إقلاع

عبد الله أمون

إصدارات دار إي-كتب
لندن، كانون الثاني – يناير 2019

Take off
By: **Abdullah Amoun**
All Rights Reserved to the author ©
Published by e-Kutub Ltd
Distribution: Amazon (**Paperback**). Kindle, Google Books, Play Store (**Electronic**)
& e-Kutub (**Hardback**)
ISBN: 9781780584355
First Edition
London, Jan. 2019
** * **

الطبعة الأولى،
لندن، كانون الثاني – يناير 2019
إقلاع
المؤلف: **عبد الله أمون**
الناشر: e-Kutub Ltd، شركة بريطانية مسجلة في انجلترا برقم: 7513024
© **جميع الحقوق محفوظة للمؤلف**
الموزعون الحصريون: **أمازون** (للنسخة الورقية)، **كيندل وغوغل بوكس وبلاي-ستور** (للنسخة الإلكترونية) و **"إي-كتب"** (للنسخة الفاخرة).
لا تجوز إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب إلكترونيا أو على ورق. كما لا يجوز الاقتباس من دون الإشارة الى المصدر.
أي محاولة للنسخ أو إعادة النشر تعرض صاحبها الى المسؤولية القانونية.
إذا عثرت على نسخة عبر أي وسيلة اخرى غير موقع الناشر (**إي- كتب**) أو غوغل بوكس أو أمازون، نرجو إشعارنا بوجود نسخة غير مشروعة، وذلك بالكتابة إلينا:
ekutub.info@gmail.com
يمكنك الكتابة الى المؤلف على العنوان التالي:
slrim1@hotmail.com

الفهرس

التاسع من أكتوبر 5

انتظار التسجيل 19

قطار المغرب العربي.... 23

في بلد المليون شهيد 28

تونس الخضراء 47

حدث معي في باريس 59

أذان في قلب الفاتكان 76

يَوْمَ أصْبَحْتُ مليونيرًا 84

الهند.. على خطى محمد ابن القاسم الثقفي 97

في دولة بلا مساجد 117

الطريق إلى عاصمة الضباب 135

أيام... في بلاد سام 147

إلى بيت الله الحرام 180

التاسع من أكتوبر

الطريق التي تقطعها لا تقل أهمية عن المكان الذي ستصل إليه.

(الروائي باولو كويلو)

التاسع من أكتوبر عام 1993م كان يوما مميزا، ليس لأنه يصادف "اليوم العالمي للبريد"، بل لأنه كان يوما مشهودا في حياتي... إنه اليوم الذي تحديت فيه الجاذبية وارتفعت عن الأرض آلاف الأمتار، إنه أول يوم أركب فيه الطائرة..!

قبل التحليق...

منذ صغري وأنا شديد الولع بالأسفار البعيدة وركوب الطائرات، وكان لي أصدقاء كثر من الذين منَّ الله عليهم فمنحوا للدراسة بعد حصولهم على الثانوية العامة، وهو ما لم يتوفر لي حيث أكملت السلكين الأول والثاني من دراستي الجامعة فيما كنا نسميه أيامها "مخازن جامعة نواكشوط".

بالفعل، كانت كلية القانون والاقتصاد بجامعة نواكشوط تتخذ مقرا لها من مخازن بنيت أصلا لغرض تخزين الحبوب، وهو ما استدل عليه بعض الطلبة الخبثاء حيث أكدوا أنهم – بعد إجراء حفريات غير عميقة في أرضيات بعض المدرجات – وجدوا حبوب قمح وشعير بل وبقايا من أعلاف المواشي!

وبغض النظر عن التاريخ العمراني لمقر الكلية، فقد تخرج منها جيل من الطلبة بعد أربع سنين يحملون ورقة مستطيلة الشكل تثبت بكل الدلائل الرسمية أنهم حصلوا على الإجازة في القانون أو الاقتصاد، ويتطلعون إلى مستقبل دراسي أو عملي تشير كل الدلائل إلى أنه ليس ورديا بالمرة.

كنت – مدفوعا بطموح كبير وحماس جارف – من أولئك الذين عزموا – رغم كل الظروف – على إكمال دراساتهم العليا في الخارج لسببين: أولهما أنني كما قلت كنت أعشق السفر و"التغرب"، وثانيهما أن السلك الجامعي الثالث حينها لم يكن متوفرا في البلد.

كانت دول المغرب العربي إضافة إلى مصر تمثل الوجهة الأولى للطلبة الموريتانيين ذوي التكوين الدراسي المرتكز على اللغة العربية وكنت أحدهم.

أرسلت إلى المغرب ملفا مكتمل الأوراق مدعوما بمعدل عام في السنة الأخيرة من الجامعة يقارب الخمسة عشر على عشرين (20/15) نقطة، كما يضم رسالة تزكية وتوصية من أحد رؤساء أبرز الأحزاب السياسية في البلد وصاحب علاقات إقليمية ودولية واسعة، كان التسجيل بالنسبة لي مجرد مسألة وقت لذلك بدأت أعد العدة لليوم المشهود.

امتلكت لأول مرة جواز سفر، نعم كان جوازي بالفعل، إنه يضم اسمي واسم أبي وتاريخ ميلادي ومكانه وصورتي الشخصية، صورة لم يألو مصور "دراما" غير البعيد من المنزل جهدا في إخراجها بأحسن شكل لكن – والحق يقال – ملامح ذلك الشاب العشريني النحيل الساهم، وتعاقب الجديدين على أجهزة المصور المتهالكة.. كانا عاملين أديا إلى خروج الصورة بلون غريب يمزج بين

الحنطي والبرتقالي.. تأمل والدي، رحمه الله، الصورة الملصقة على الجواز وسألني ممازحا وهو يبتسم: "هل تعتقد أن أي سلطة مطار ترى هذه الملامح ستسمح لصاحبها بالدخول؟".

استلمتُ تذكرة السفر وكأني ربحت ورقة يانصيب، اشتريت بعض الملابس الأنيقة بمقاييس الخيارات والإمكانيات المتوفرة، قدمت لي الهدايا والمساعدات من أفراد الأسرة كل حسب طاقته، حتى بعض الأقارب ساهموا في تلك الحملة، أذكر أن من بينهم رجلا شهما بالكاد يملك قوت يومه سلمني مبلغ 17 دولارا أمريكيا من فئة دولار واحد. ولا أدري كيف حصل على ذلك المبلغ.

كانت كل أغراضي مرتبة وجاهزة، بما فيها قارورة عطر نسيت اسمه، لكني ما زلت أتذكر رائحته الزكية، كان من ضمن أغراض جلبتها الوالدة – حفظها الله – التي كانت تجيد الاهتمام بأصغر التفاصيل.

فجر اليوم الموعود دخل الوالد، رحمه الله، غرفتي ليوقظني لصلاة الصبح كالعادة، فوجدني مستيقظا أتفحص أغراضي، تبعته إلى المسجد وبعد الصلاة استلم يميني ولبث مليا يدعو لي ويوصيني، ركز في الوصية على المصحف والصلاة في وقتها وضرورة الحيطة في اختيار الأصدقاء، أذكر أنه عانقني وربما كانت المرة الأولى، ودعته في المسجد حيث كان لا يبرحه قبل أن يصلي الضحى.

عدت إلى البيت فوجدت الجميع مستيقظين وفي حالة استنفار.. هذه تقدم قدحا من المذق البارد، وهذا يدفع إلي بشطر خبزة ساخنة تقطر زبدة ومربى، وذلك يمد كأس شاي منعنع يعتمر تاجا من الرغوة قد ملأ نصفه العلوي.

قال أخي الأكبر: "يجب أن نتحرك وإلا تأخرنا عن الرحلة، وقع اختياري، من بين ملابسي، على قميص وسروال من الجينز مرقط باللون الأزرق الغامق والفاتح مع بقع بيضاء متناثرة، كان قد وصلني هدية من أحد زملاء الدراسة، ورغم أن تلك الملابس أضفت علي شيئا من ملامح النمر السيبيري إلا أنني كنت – وأنا أرتديها – راضيا عن أناقتي تمام الرضى، وإن كنت سأكتشف بعد وصولي إلى المغرب أنني سببت بذلك الزي المرقط حرجا كبيرا لصديقي الذي استقبلني، وكان قد سبقني بشهر وهو ما منحه – في نظره – أفضلية في تقدير الملائم وغير الملائم من الملابس العصرية.

تحركنا باتجاه المطار فوصلنا قبيل السابعة صباحا، لم تأخذ الإجراءات طويل وقت فكل ما كان لدي هو حقيبة طالب مثالية تضم ملابس وبعض الكتب والكراريس.

استلمت الجواز وبطاقة الصعود وعدت إلى والدتي وأخي الذين لما يغادرا المطار بعد.

أثناء حديثنا أقبل علينا رجل ستيني يرتدي فضفاضة زرقاء من قماش "الشقة" الرخيص، فسألني قائلا:

- أنت مسافر نحو الدار البيضاء أليس كذلك؟

قلت:

- بلى.

قال:

- أريد منك خدمة، لدي نعجة أود شحنها إلى أحدهم هناك.

فرددت عليه ضاحكا:

- نعجة حية أو مذبوحة!؟

أجاب:

- بل حية، ولدي كل الأوراق اللازمة لذلك.

استغربت من كلامه، فلأول مرة أسمع أن ذوات الأربع تركب الطائرات كما البشر!

قلت له:

- هل أنت جاد يا والدي؟

قال:

- لقد كبرت على المزاح، هل ستسمح بتسجيل النعجة على تذكرتك أم أبحث عن غيرك؟

قلت معتذرا:

- ولكني للأسف قد أتممت إجراءات شحن متاعي واستلمت بطاقة الصعود.

رمقني بنظرة تحمل الكثير من عدم الرضى وانصرف يتمتم بكلمات لم استبنها، لكني لا أتوقع انتماءها إلى قاموس المديح على الإطلاق، عانقت أخي ووالدتي وتوجهت إلى قاعة الرحيل ومنها إلى الطائرة.

التحليق

كنت من شدة تعلقي بالأسفار وشغفي بركوب الطيران أعرف الكثير من الممارسات النظرية المتعلقة بالتحليق، صعدت سلالم طائرة ال (Fokker F 28) التابعة للخطوط الجوية الموريتانية،

ورغم تواضع الطائرة وصغر حجمها إلا أنها كانت بالنسبة لي مخلوقا هائلا وعجيبا.

لم أجد كبير عناء في العثور على مقعدي، لأن الطائرة لم يكن بها غير ممر واحد، تتوزع الكراسي صفين عن يمينه وشماله، لكن سيدة كانت قد سبقتني إلى مقعدي فاحتلته.

خاطبتها بلباقة الشاب المتمدن قائلا:

- لو سمحت، أعتقد أنك تجلسين في الكرسي الخطأ؟

رفعت إلي نظرها مرجفة حاجبيها باستهزاء وقالت:

- وما الفرق أصلا بين المقاعد، كلنا سنصل – إن شاء الله – في نفس الوقت؟

استحضرت بعض معلوماتي النظرية وقلت لها بلهجة الواثق:

- لكن.. هناك نظام يجب التقيد به داخل الطائرة.

كانت لهجتي تعطي للسامع انطباعا بأنني أفنيت عمرا في التنقل عبر مطارات العالم وإن كان مظهري لا يدعم ذلك الانطباع.

ولأنني كنت في داخلي مقتنعا حينها بأن ما قالته السيدة لا يجانب الصواب كثيرا وإن كان يخالف النظام، فقد تحولت مباشرة إلى أقرب كرسي شاغر محاذ للنافذة وجلست.

اكتمل وصول الركاب وشرحتْ إجراءات السلامة التي استمعت إليها باهتمام شديد، بل وراجعت بعدها الكتيب المتعلق بها والموجود في جيب الكرسي الواقع أمامي، ومع أنني كنت أستبعد تماما فرضية سقوط الطائرة، إلا أنني مع ذلك تذكرت ضعف مستواي في فن السباحة – رغم محاولاتي – وهو ما قد يقلل فرص نجاتي في حال سقطت الطائرة في مياه المحيط.

بدأت الطائرة في التحرك نحو بداية المدرج اليتيم في المطار القديم استعدادا للإقلاع الذي أعلن القائد أنه سيتم خلال لحظات.

انطلق ذلك الجرم الهائل بشكل متسارع وعجيب، أحسست كأن ظهري يلتصق بالكرسي من سرعة الانطلاق، كان مرور عجلات الطائرة على ما أعتقد أنه حفر في المدرج يسبب أصواتا قوية وهزات عنيفة في كامل جسم الطائرة.

وخلال لحظات ارتفعت مقدمة الطائرة عن المدرج ساحبا بقية الجسم إلى أعلى.. يا إلهي!.. ما أجملها من لحظة! بعد سنوات من حديث النفس عن السفر والطيران ها أنذا أعلو مودعا اليابسة ومخترقا الغيوم.

نظرت من النافذة الصغيرة فإذا بيوتات العاصمة تبتعد وتتضاءل في عيني حتى صارت كلعبة مكعبات قديمة نثرها طفل مشاغب.

كان صوت أزيز المحركات مرتفعا جدا لأن الجاذبية ما زالت قوية والمحركات تعمل بكل طاقتها، لم أشعر بأي إزعاج من تلك الأصوات، بل كنت منشغلا في مراقبة المنازل والبيوت مختلفة الأحجام فوضوية التخطيط التي ظلت تصغر وتصغر حتى تحولت إلى ما يشبه آثار حب الشباب في وجه خريج جامعة عاطل عن العمل.

بعد دقائق لم أعد أشاهد إلا ذلك الأفق اللانهائي من الصحراء مترامية الأطراف، كم كان جميلا وصف الدكتور مصطفى محمود لها حين قال بأنها "تلمع في وهج الشمس كقميص من الذهب تعلو فيه التلال كنهود مكورة في لوحة سريالية رسمها سلفادور دالي".

اعتدلت الطائرة في الجو مولية وجهها شطر الشمال، فأعلن الربان أننا سنتوقف خلال أربعين دقيقة في مدينة نواذيبو، وسنواصل رحلتنا بعد ذلك إلى الدار البيضاء، كدت أقفز من المقعد فرحا بهذا الخبر، أي خبر سعيد هذا الذي سمعت!! سأعيش تجربة الإقلاع والهبوط مرتين في يوم واحد.

كان الجو باردا رغم أن فصل الشتاء لم يبدأ بعد، خرج إلينا المضيف الذي كان شابا خلاسي اللون يرتدي قميص بدلة عسكرية وسروالا تقليديا من قماش "تبيت" في زي غريب أشبه ما يكون بأزياء فرقة "شباب لبلاد" المحلية التي تحترف موسيقي الراب بمسحة موريتانية.

خرج يحمل بين يديه طستا نحاسيا صغير الحجم يحتوي حبات من الحلوى الحارة المعروفة محليا بـ "تنكل منت"، قال وهو يبتسم "مصوا هذه الحلوى حتى لا يهلككم البرد". كنت ممن حظي بقطعة حلوى دسستها في جيبي.

كنت أسمع من بعض المسافرين المجربين أحاديث عن الوجبات التي تقدم لعلية البشر الذين يسافرون عبر الجو، يبدوا أنهم كانوا يبالغون كثيرا، لكنني استدركت فقلت في نفسي إنهم لم يقدموا لنا الوجبات ببساطة لأننا ما نزال في الأجواء الموريتانية، ثم إن ركاب الطائرة لم يكتملوا بعد، فلم العجلة؟ لا بدَّ أن الوجبات العصرية الشهية قادمة، بمجرد ما ندخل أجواء المغرب.

في الحقيقة أنا لم أكن جائعا بقدر ما كنت متشوقا لاستكشاف كل ما يتعلق بالرحلات الجوية، هبطنا في مدينة نواذيبو، صعد ركاب وهبط آخرون، وأقلعت الطائرة بعد ساعة من التوقف، استمتعت كثيرا بعمليتي الهبوط والإقلاع، كان الأمر بالنسبة لي لا

يقل أهمية وحماسة عن وضع رائد الفضاء نيل آرمسترونغ قدمه على سطح القمر لأول مرة في تاريخ البشرية، في الحالتين كان هناك تحليق وهبوط.. أما المسافة والمكان فتلك مسائل نسبية.

لقد خرجت الطائرة توا من نطاق المجال الجوي للجمهورية الإسلامية الموريتانية معلنة بذلك – بالنسبة لي – أنني دخلت عالم الرحلات الجوية الدولية.

أعلن الربان أننا سنصل الدار البيضاء بعد ساعتين وربع الساعة من الطيران، تمنيت لو كانت المدة أطول، سرحت قليلا أفكر في هذا النورس العملاق السابح جوا، رحم الله عباس ابن فرناس لو عاش إلى أيامنا لعلم أن حلمه لم يكن طفوليا، ولكن حتى الأخوان أورفيل وويلبر رايت، صاحبا أول تجربة طيران ناجحة، ربما لم يكن في تصورهما أن عالم الطيران – الذي دخلاه بآلة أثقل من الهواء في 17 من ديسمبر عام 1903م – لن يصل إلى ما وصل إليه في عصرنا الحالي، لقد كان أقصى نجاح حققاه هو التحليق لمدة 75 دقيقة وعلى ارتفاع لم يصل المائة متر، ومع ذلك تم الاحتفاء بهما عالميا واستقبلا في فرنسا استقبال الأبطال، أين هما الآن ليرياني أحلق على ارتفاع يزيد عن 5,000 متر.

كنت ما زلت أجلس بجانب النافذة المحاذية لجناح الطائرة الأيسر، في رحلتها الثانية كانت الطائرة أثقل من رحلتها الأولى أو هكذا خيل إلي، ربما لأن عدد الركاب زاد وهو ما يعني منطقيا زيادة حجم الأمتعة التي ربما تتوسطها نعجة الشيخ مكتملة الأوراق.

كانت تنتاب الطائرة من حين لآخر هزات فترتعش منتفضة كما لو كانت طائرا بلله الندى، كنت أراقب جناحها الأيسر المرتعش كذراع مصاب بمرض باركنسن، بدا لي كأنه يشكو الإرهاق من طول

ما حمل مع أخيه الأيمن.. تلك الأسطوانة الهائلة المحشوة بشرا ومتاعا وربما نعاجا.

مرت قرابة الساعة على الرحلة فإذا بفتاة سمراء تدفع أمامها عربة صغيرة تحمل بعض الأشربة والكثير من خبز "الكرواسان".

دفعت إلي بقطعة "كرواسان" وسألتني بفرنسية أنيقة عن ما أود شرابه، حقيقة لم تكن الخيارات محيرة فكل ما على الطاولة هو الحليب وبعض المشروبات الغازية المألوفة، صبت لي كأسا من الكولا التي كانت للأسف غير باردة، هل هذا كل ما سنحظى به طوال هذه السفرة؟

كان الأمر كذلك فقد اختفت المضيفة بعد إطلالتها تلك ولم تعد للظهور، كانت تلك أولى خيباتي المتعلقة بالسفر دوليا، لم أكن أبدا نهما ولا جشعا لكني فقط كنت أنتظر تجربة شيء جديد غير "الكرواسان"، الذي يباع في جميع البقالات وحتى على قارعة الطريق.

بعد ساعة وأربعين دقيقة من مغادرة نواذيبو، أعلن ربان الطائرة عن ضرورة العودة إلى المقاعد وربط الأحزمة، لأن الطائرة بدأت تأخذ مسار الهبوط.

لم أكن قد غادرت مقعدي المحاذي للنافذة حتى لا يحتله راكب آخر، أعدت ربط الحزام بطريقة أسهل وأسرع من الأولى فقد رأيت بأمٍّ عيني مرتين شرحا لكيفية ربطه وفكه.

بعد دقائق بدأت أرى من النافذة ملامح التضاريس على الأرض، وخلال دقائق أخرى كانت بعض مظاهر العمران تطفو على سطح ذلك المنظر الهلامي.

مرت دقائق أخرى فاتضحت الرؤية، كانت مساحات خضراء شاسعة تبدو بشكل جلي، أعتقد أنها كانت مزارع على ضواحي المدينة، كان الجو يبدو باردا من النافذة التي كانت تغطيها قطرات الندى.

بدأنا نقترب من الهبوط فبهرني منظر العمارات الشاهقة، والشوارع الكثيرة، والحدائق المترامية، قفزت إلى ذهني صورة مدينة نواكشوط بعيد التحليق، تلك الصورة الباهتة غير واضحة المعالم التي لا تميز منها إلا ذلك الخط الرفيع ذي اللون المازج بين الرمادي والأسود الذي يمثل طريق "أكجوجت"، كان يبدو كسلك كهربائي مشدود، قديم ومهترئ.

هبطت الطائرة وسط دوي تصفيق الركاب، حقيقة لم أعرف السبب وراء التصفيق إلا بعد ذلك بزمن، ومن خلال مقال في جريدة "الصن" (The SUN) البريطانية، تناولت كاتبته المحررة Caroline McGuire تلك الظاهرة مرجعة سببها إلى عوامل نفسية وتاريخية، ملخصها أن الرحلة الجوية هي عبارة عن نوع من العرض المسرحي أبطاله الرئيسيون هم الطيارون، ويساعدهم المضيفون، ويعتبر الهبوط هو نهاية ذلك العرض، وقد جرت العادة على التصفيق للممثلين عند نهاية أي عرض مسرحي، أما تصفيق ركاب تلك الطائرة فأظنه جاء تقليدا أعمى من طرف بعض الركاب الذين صادفوه في إحدى رحلاتهم فقاموا بتقليده ليتبعهم معظم من في الطائرة، فالتصفيق كالضحك ينتقل بالعدوى من شخص إلى آخر دون قصد أو شعور.

هنأنا ربان الطائرة على سلامة الوصول، ورحب بنا في مدينة الدار البيضاء معلنا أن درجة الحرارة الخارجية تنقص عن العشرين،

وطلب عدم فك الأحزمة أو مغادرة المقاعد قبل توقف الطائرة بشكل كلي، وهو ما لم يستمع إليه الركاب المفطورون على الفوضى وعدم طاعة الأوامر المتعلقة بالنظام.

لم تتوقف الطائرة إلا وكان معظم المسافرين يزدحمون في الممر كأنما يبحثون عن وسيلة للإفلات من مجهول لا يعرفون مصدره.

أصابتني العدوى فقفزت واقفا متأثرا – دون شعور – بنظرية سلوك القطيع (herd behaviour)، التي أسس لها عالم الأحياء W D Hamilton في مقالته المشهورة "هندسة القطيع الأناني".

فتح باب الطائرة فتسابق المزدحمون للخروج، كنت لحداثة سني ونشاطي من أول الخارجين فألفيت من سبقوني يصعدون باصا تابعا للمطار فتبعت القطيع مرة أخرى وركبت الباص دون سؤال.

امتلأ الباص بالواقفين والجالسين وأغلقت أبوابه آليا وهي حركة لم تفتني ملاحظتها إذ كانت جديدة علي، أنا أتذكر أن باصات النقل لدينا لا تغلق أبوابها أصلا فإن دعت حاجة ماسة لذلك فإن عملية الإغلاق تكون بواسطة حبل أو سلسلة حديدية لجذب الباب أولا ثم بترباس يدوي لتثبيته مغلقا.

تحرك الباص، وأنا واقف أسند ظهري إلى عمود حديدي، ليتوقف بعد دقائق أمام بوابة زجاجية تفاجأت أنها هي الأخرى تنفتح آليا، فبدأ رفقاء القطيع في الهبوط والتوجه إلى البوابة فتبعتهم ودلفت كما دلفوا..

أوصلتنا البوابة إلى قاعات واسعة فممرات زجاجية طويلة تصطف على جنباتها محلات تجارية تتلألأ بالأضواء من مختلف الألوان وتعرض فيها البضائع بتناسق وتنظيم لا يخطر على بال من

كان مثله الأعلى في مراكز التسوق هو "سوق السبخة" وإن شطح فـ"سوق العاصمة المركزي".

كنت ما أزال ضمن قطيع من المسافرين، فتراءت لي على مسافة غير بعيدة من منافذ شرطة الجوازات حيث كان مسافرون من رحلة أخرى يصطفون، طوابير فتوزع قطيعنا مكملا تلك الطوابير.

بدأت أتقدم شيئا فشيئا.. حتى وقفت أمام شرطي الجوازات الذي بدا كأنما يقارن بين حامل الجواز وصورته، تذكرت سؤال والدي الساخر من ملامحي في الصورة فابتسمت عن غير قصد، ظن الشرطي أنني أبتسم تلطيفا للموقف فابتسم لي بدوره غير مدرك للحقيقة.

يبدو أن الشرطي، للأسف، اقتنع بالشبه البيّن بين الصورة وحامل الجواز، بدأ في تصفح الجواز بحثا عن التأشيرة وضرب عليها بالختم ثم عمد إلى الصفحة الأخيرة من الجواز فطبع عليها بختم على شكل سطر مكون من حروف وأرقام سأعرف فيما بعد أنه رمز مرجعي يوضع مرة واحدة على جواز الداخل إلى المغرب ويسهل لاحقا الاطلاع على معلوماته من خلال إدخال نفس الرمز.

استلمت جوازي وتوجهت خلف من سبقوني لأصل بتأثير الجاذبية إلى حيث تستلم الحقائب، بحثت عن حقيبتي ذات اللون القرمزي المميز فإذا بها تتهادى مستلقية على حزام الأمتعة المتحرك الذي كان له هو الآخر نصيب من دهشتي وإعجابي.

وضعت الحقيبة على العربة تماما كما يفعل الآخرون، لقد نصحني أحدهم ذات مرة بأن أحسن طريقة لتسيير أمور المسافر

المبتدئ هي التقليد، نعم التقليد، راقب تصرف من أتى قبلك واتبعه حذو القذة بالقذة، حقا كانت نصيحة ذهبية.

دفعت العربة أمامي متبعا جموع المغادرين، رأيت خارج الممر من خلال الزجاج جموعا من الناس مشرئبة أعناقهم إلى الداخل فعرفت أنهم مستقبلو القادمين، واصلت تقدمي باحثا عن صديقي الذي كان قد وصل قبلي بمدة وهو ينتظرني الآن بفارغ الصبر.

لم يطل تفحصي للوجوه، إنه هناك صديقي، كان يرتدي بدلة كحلية اللون بقميص أبيض وربطة عنق حمراء، لقد كان بالفعل أنيقا وإن كان يبدو رسميا أكثر من اللازم، كان يذكر بمسؤولي البعثات الدبلوماسية فترة السبعينات، رأيت في ملامح وجهه نوعا من المفاجأة التي لم تؤثر على حفاوة الاستقبال وحرارة العناق، عرفت بعد ذلك أن الأمر راجع إلى إحراج بسيط من زي النمر القطبي المرقط الذي كنت أرتديه.

نزلنا السلالم الكهربائية العجيبة إلى محطة القطار، لم أكن قد رأيت قبلها القطار إلا في الأفلام، ذكرني طوله وكثرة فقراته (عرباته) بحشرة أم أربعة وأربعين ((scolopendridae أو (بُرْدلي) بلهجتنا المحلية (الحسانية)، كان ذلك ال (بُرْدلى) العملاق متوجها إلى الدار البيضاء ومنها مباشرة إلى الرباط حيث وصلنا قبيل الظهر إلى المنزل الكائن في 15 شارع عبد العزيز الثعالبي، حي يعقوب المنصور.

انتظار التسجيل

بعد أكثر من شهر في الرباط، كان كل الطلبة الوافدين قد تم قبول ملفاتهم وتم توجيههم إلى الجامعات المعنية إلا ملف واحد ظل مصيره عصيا على الكشف.

راجعت الوكالة المغربية للتعاون الدولي المعنية بتسجيل الطلبة الأجانب فاستمهلوني أياما لمعرفة حقيقة ما جرى للملف، لم يعد الوقت في صالحي فطلبت لقاء المدير العام للوكالة لأن المسؤولين تحته عجزوا عن تزويدي بمعلومة ذات قيمة.

دخلت على المسؤول عصر ذلك اليوم غير السعيد ليصدمني بجوابه الغريب.

- أيها الموريتاني إن ملفك لم يسلم إلى الوكالة أصلا.
- ماذا تعني؟ قلت مستغربا "وكيف ذلك"؟

قال:

- "هو كما قلت لك، لا وجود لملفك بين المقبولين أو المرفوضين وهو ما يعني أنه لم يستلم أصلا ثم أردف قائلا: هل أنت بنفسك من سلم الملف للوكالة؟".

قلت:

- "لا، المفترض أنه وصلكم ضمن الملفات المقدمة من (شخصية وازنة وجدّ معروفة)".

فقال المدير:

- "عليك مراجعة تلك الشخصية لأن الملف ما زال على الأرجح في درجه ولا أظن أن بإمكانك إدراك التسجيل لهذه السنة،

أنا متأسف، لقد تأخرت كثيرا ومعظم الجامعات بدأت فيها الدراسة بالفعل".

أصابني الذهول والصدمة وشعرت بخيبة أمل، كيف يمكن أن يحدث هذا، لقد تم قبول ملفات أصحاب المعدلات المتواضعة والذين لم يأتوا بتوصيات عليا، فكيف يحصل هذا معي أنا بالذات؟

خرجت من مبنى الوكالة لا أكاد أستبين طريقي، كان ينتابني شعور من حكم عليه بالإعدام دون أن يرتكب ذنبا، أو من طرد من امتحان مصيري قبل أن يشارك فيه، كانت قدماي بالكاد تحملاني، حاولت أن أوقظ مخزون الإيمان بالقضاء والقدر الكامن في قلبي لكن عقلي وقف حاجزا دون قبول الأمر أو التسليم به.

بحثت عن أقرب هاتف في الشارع وأخرجت قطعا نقدية واتصلت على الرجل الذي أكد أن الأمر مستحيل، أتذكر حين عرفته بنفسي يوم دفعت إليه الملف أنه قال لي: "اسمع يا بني، اذهب ونم قرير العين ستكون أول من يقبل ملفه وأول من يحصل على منحة الوكالة، لكن ما الذي حصل؟".

التفسير المنطقي الوحيد أن الرجل – لشدة اهتمامه بملفي – عزله عن بقية الملفات الكثيرة التي ترده من أناس كثر حتى أن بعضها يصل بالبريد وصاحبه ما زال في البلد، إذًا عزل ملفي من باب الاهتمام الخاص به ونسيه في الدرج وحمل بقية الملفات مجتمعة إلى الوكالة.

قال لي – رحمه الله – عبر الهاتف:

- "لا تهتم سيتم تسجيلك حتى ولو كان آخر يوم في السنة الدراسية".

لكن الأمور كانت أكثر تعقيدا بالنسبة لي، فالطالبان الذين يشاركانني تأجير المنزل تم توجيه أحدهما إلى "جامعة الحسن الثاني" بمدينة المحمدية التابعة للدار البيضاء، واستلم الآخر غرفته في السكن الجامعي ولم يعد بحاجة إلى تأجير منزل، ولن أنسَى للأخير- الذي لم أكن أعرفه من قبل – أنه قال لي بنبرة ملؤها الصدق والتعاطف "لا تهتم لشيء.. أنا سأتقاسم الإيجار معك حتى يتم تسجيلك ولو بعد سنة"، كان ذلك الشاب النبيل من الذين يعتمد عليهم عندما تشتدّ الأزمات ويضيق الحال.

لكني ما كنت لأرضى أن يدفع غيري فاتورة حسابي، ما تربيت على ذلك ولن أستغل نبل طلبة كرام ذوي إمكانيات محدودة لأقتطع من ميزانيتهم المتواضعة.

كان أملي في التسجيل ضئيلا، خاصة بعد أن سمعت كلام مدير الوكالة، لقد تأخرت بالفعل فنحن في العشر الأواخر من نوفمبر، أحسست أن حلم الدراسات العليا يتلاشى قبل أن يولد أصلا.

ولكن، ورغم الصورة القاتمة التي ارتسمت أمامي، ولم أكن أرى سواها فإنها وكما يقولون، ما ضاقت إلا فرجت، وكما قال الروائي العالمي "باولو كويلو": "إن الساعة الأكثر ظلمة هي التي تسبق شروق الشمس".

لقد كانت في الأفق مفاجأة سارة لم تكن في الحسبان.

كنت قبل مغادرة البلد قد سلمت ملفا لمن لا يسعني أن أكتم اسمه، إنه الملاك البشري الذي يمشي على الأرض، الرئيس المؤسس العلامة الشيخ الدكتور الخليل النحوي.

كان النحوي حينها يلعب دور سفير فعلي للبلد في تونس، كان محطَّ رحال كثير من الطلبة والعابرين، لقد قدم ملفي "لجامعة

تونس المنار"، أقدم الجامعات التونسية وأعرقها، وتم قبول ملفي بالفعل، وصلتني بذلك رسالة عاجلة من زميل دراسة آخر كان قد اختار التوجه مباشرة إلى تونس.

كانت الرسالة قد وصلت في الوقت المناسب تماما، لقد كنت في حالة نفسية غير مريحة مطلقا، حيث تتناوشني أفكار الخيبة في عدم التسجيل وهاجس العودة دون البدء في تحقيق الحلم، لكن الرسالة بقدر ما كانت مفرحة كانت تحمل تحديا صعب التحقيق، لقد كان علي أن أراجع الجامعة التونسية في الأول من ديسمبر لإكمال إجراءات التسجيل وإلا اعتبرت في حكم المتنازل عن المقعد الدراسي.

قطار المغرب العربي....

إنه السابع والعشرون من نوفمبر عام 1993، كانت أمامي أربعة أيام فقط يجب أن أصل خلالها إلى تونس، قد يبدو الأمر سهلا لو توفر ثمن تذكرة الطائرة لكني كنت ما زلت احتفظ من الميزانية ب 500 فرنك فرنسي فقط.

لم أشأ أن أتصل بالأهل للحصول على المال اللازم مع علمي أنهم لن يتأخروا، كان هناك بديل للسفر عبر الطائرة يمكن للميزانية أن تغطيه بكل أريحية، إنه السفر عبر القطار، نعم السفر عبر القطار من الرباط في المغرب إلى تونس العاصمة.

الولع بالسفر وإغراء التجربة الجديدة ومخزون الأدرنالين الفائض لدي، كلها عوامل دفعت إلى ترجيح ذلك التوجه.

كانت العلاقات المغاربية حينها على قدر من الانسجام وكان الحلم المغاربي الذي ولد في 17 من فبراير 1989م بمدينة مراكش ما زال يتنفس، كان من ثمرات ذلك الحلم ما عرف بقطار المغرب العربي وهو القطار الذي يربط بخط مباشر غرب المغرب بالشرق التونسي عابرا الأراضي الجزائرية.

وبما أن الأحلام العربية لا تعيش طويلا فقد أصيب ذلك القطار (الحلم) بشلل في ذراعه الغربي نتيجة التوتر الذي طرأ على العلاقات بين المغرب والجزائر عام 1994م وما تلاه من قرار إغلاق الحدود البرية بينهما فبترت ذراعه الغربية، لتواصل تحركها منفردة رغم انفصالها عن جسمها تماما كذيل البرص المقطوعة.

بعدها ظلت الذراع التونسية الشرقية ملتحمة حتى عام 2006م لتصاب بجلطة هي الأخرى أدت إلى بترها ليعاد تقسيم جسم ذلك (الحلم) إلى ثلاث قطع تتحرك كل منها بمعزل عن الأخرى.

كانت الرحلة من الرباط إلى تونس العاصمة تستغرق بالضبط ثمانا وأربعين ساعة من الانتقال بين المحطات والكراسي والعربات، وهو أمر كان يشجعني على السفر بدل أن يثنيني عنه، السفر قطعة من العذاب لكنه بالنسبة لي حينها كان قطعة من الجنة.

كان الجو باردا وماطرا، ودعت الصحبة ورافقني صديق دراستي إلى محطة القطارات المركزية بالرباط، حولت مبلغ مائتي فرنك فرنسي إلى درهم مغربي، قطعت التذكرة من الرباط إلى تونس بمبلغ 240 درهما وبقي لدي فائض بسيط لتغطية مصاريف الرحلة.

كان قطاري الذي يحمل اسم العداء المغربي الأولمبي "سعيد اعويطة" سيغادر تمام التاسعة مساء، تبادلت مع صديقي – الذي كان بادي التأثر بسفري – أحاديث متفرقة حول ضرورة البقاء على تواصل وإيصال التحية إلى الأصدقاء المشتركين هنا وهناك وما إلى ذلك.

اقترب موعد الرحلة فنزلنا إلى سكة القطار الواقعة تحت المحطة، جلسنا ننتظر قدوم ذلك الثعبان الحديدي الهائل، لن أنسَى دموع صديقي التي نزلت أسفا على مغادرتي وإن كان حاول أن لا أراها..

وصل القطار الآتي سلخا تحت قشرة المدينة كما تفعل اليرقة بين جذع الشجرة واللحاء، صعدت إلى مقصورتي بعد أن ودعت صديقي الذي ظل واقفا ينتظر مغادرة القطار..

المسافة من الرباط إلى مدينة وجدة تقارب 530 كلم يستغرق القطار لقطعها – مع احتساب التوقف في المحطات – حوالي 9 ساعات.

لا أحدث عن معالم الطريق من الرباط إلى وجدة بشيء فقد كانت الرحلة ليلية يخيم عليها السكون والظلام.

ظلت مقصورتي محطة لداخلين ومغادرين كان آخرهم رجل خمسيني وامرأتان إحداهما تبدو في الأربعين من العمر أما الأخرى فكانت فتاة لم تتجاوز السابعة عشر من عمرها، كانت الساعة تقارب الثانية فجرا، جلست الفتاة على طرف الأريكة التي كنت أجلس على طرفها الآخر، أما الرجل والمرأة الأربعينية فقد جلسا على الأريكة المقابلة لنا.

كان النور قد أطفئ في العربات ليسهل النوم على سراة المسافرين، لم يطل الوقت حتى تمددت الزوجة على الأريكة ليجاريها بعد قليل الزوج الذي نسي أنه في مقصورة قطار مشتركة، كانت الأريكة بالكاد تتسع لاستلقاء شخص واحد وهي بالفعل الصورة التي بدا عليها الرجل والمرأة، لقد تحولا – بقدرة قادر – إلى جسد واحد.

كان أقل ما يقال عن وضعيتهما ملتصقين تحت الإضاءة الخافتة للمقصورة أنها وضعية غير ملائمة، استغرق الأمر منهما بعض الوقت وحركات مختلفة وغريبة أحيانا ليجدا الوضعية

المناسبة للنوم محشورين في تلك الأريكة، وبعد دقائق هدأت حركاتهما واستغرقا في النوم وعلا شخيرهما.

همست الفتاة بصوت خافت قائلة لي وهي تبتسم (أراهو راجلها) يعني "إنه زوجها"، لو لم يكن الظلام يمنع كشف الملامح لحدثت عن خدودها المحمرة خجلا، كانت المسكينة تحاول تبرير التصرف غير اللائق لذلك العلج قليل الحياء.

لأني والفتاة ما كان أحدنا ليستلقي حرجا من الآخر، ولأن النوم كان بعيد المنال في وضعية الجلوس تلك فقد تبادلنا كلمات قليلة عرفت من خلالها أنها الأخت الصغرى لزوجة العلج وأنها طالبة في الثانوية وأنهم مسافرون إلى وجدة حيث يقيمون.

لم يجد كلانا موضوعا ملحا أو سببا وجيها لمواصلة الحديث العابر الخافت فآثرنا الصمت مخرجا.

سرحت لوهلة فتذكرت قصيدة "في القطار" التي نظم فيها الشاعر المهاجر إلياء أبو ماضي رحلة له، ربما تشبه رحلتي، حيث يقول واصفا حركة القطار بشكل عام ومعلقا على سرعته بشكل خاص:

سرى يطـوي بنا الأميال طيّا

كما تطوي السّجلّ أو الإزارا

فلم ندر وجنـح اللّيـل داج

أبرقـا ما ركبـنا أم قطـارا.

أما في البيتين التاليين فإن الشاعر تنزل على حالي كما لو كان معنا في المقصورة نفسها:

غفا صحبي وبعضهم تغـافى

ولم أذق الكـرى إلاّ غـرارا

جلست أراقب الجوزاء وحدي
كما قد يرقب السّاري المنارا.

كانت مقصورات "سعيد اعويطة" – والحق يقال – مريحة وكانت الكراسي الأقرب إلى أرائك جلد وثيرة، كما كان صوت القطار بالكاد يسمع من الداخل، ذاك ما سألاحظه غدا في القطار الجزائري، ومع ذلك فقد فشلت كل محاولاتي لاستراق غفوة ولو لمدة دقيقة.

وصلنا مدينة وجدة قبيل الساعة السادسة فجرا، كنت – رغم السهر – ما زلت نشيطا ومفعما بالحماسة، أخبرنا جمارك الحدود المغربية – بعد ختم خروج الجوازات – أن علينا امتطاء القطار الحدودي مسافة 14 كيلومترا وصولا إلى مدينة "مغنية" بولاية تلمسان الجزائرية التي تعتبر نقطة الحدود مع المغرب.

كانت محطة "وجدة" تزدحم – رغم أن الوقت ما زال مبكرا – بالمسافرين، وكان بين المتجولين أشخاص يمتهنون خدمة الزبائن من قبيل تعبئة استمارات السفر وصرف العملة وحمل الحقائب وما إلى ذلك.

اتفقت مع أحدهم على كل تلك الخدمات مقابل 50 درهما مغربيا تدفع بعد تمام العمل، انطلق يعدو أمامي حاملا حقيبتي الثقيلة، قطع سكة الحديد قفزا كأنه أرنب يطارده كلب صيد، للحظة خيل إلي أنه سيختفي مع الحقيبة ولكن المسافة بيننا لم تكن لتزيد عن خمسة أمتار، أنا أيضا أعرف كيف أجري وكيف أقفز كالأرنب لو لزم الأمر.

في بلد المليون شهيد

وصلنا مكتب خدمات الحدود الجزائرية فأخرج استمارة عبور وخط فيها كلمات استبعدت أن يتمكن الجمركي من قراءتها، دس الورقة في الجواز وسلمها للجمركي الذي لم ينظر فيها أصلا وإنما وضعها فوق كومة أوراق كانت بجانبه وختم الجواز ورده له.

دفع الشاب إلي بالجواز قائلا انتهت الإجراءات، أخرجت الميزانية المعدة للرحلة، عزلت منها خمسين درهما وقلت له أريد صرف الباقي بين الدينار الجزائري والتونسي، أخرج من جيبه حزمة من العملات المختلفة وسلمني 220 دينارا جزائريا وعشرة دنانير تونسية، أعطيته نقوده فأشار إلى قطار غير بعيد قائلا "ذاك هو قطارك"، واختفى يعدو بحثا عن زبون أخر.

ركبت القطار المعمر ذي الكراسي الحديدية الباردة، شعرت أنني أجلس في ثلاجة كبيرة قديمة وصدئة، هنا عرفت أن المغاربة استثمروا كثيرا في مجال النقل عبر السكك الحديدية.

كان القطار بطيئا جدا، ولولا خيوط الشمس التي بدأت تتسلل من خلف هضاب منطقة "صبرة" لتجمدت من البرد.

وصلنا محطة القطارات بمدينة "مغنية" التي تستمد اسمها من المرأة الصالحة "الحاجة مغنية"، تلك المرأة التي كانت تحج كل سنة مع القوافل لتستقر وذريتها – بعد أن بلغت من الكبر عتيا – في تلك المدينة الساحلية الوادعة وتدفن فيها حيث ما يزال عقبها موجودين هناك حتى الآن.

لم يكن القطار المنطلق من مدينة مغنية أكثر راحة من القطار الحدودي، يبدوا أنني سأدفع نصيبي من فاتورة النظام الجزائري ذي الإرث الاشتراكي القائم على التقشف وسد الحاجة الملحة بأقل تكلفة.

207 كيلومترات هي المسافة الفاصلة بين مدينة "مغنية" ومدينة "وهران" مرورا بمحطة "سيد بلعباس"، مسافة قطعها ذلك القطار الهرم في أكثر من ثلاث ساعات.

في محطة "العقيد عباس" صعد مفتشو التذاكر إلى القطار، طلبوا التذاكر وقاموا بثقبها حتى لا يتم استخدامها مرة أخرى.

كان القطار مكتظا أو (منبعجا كامرأة في أخريات الحمل)، كما شبه أمل دنقل قطاره ذات مرة.

كانت المقصورة تضم خليطا من أجناس الركاب، شبابا ورجالا ونساء، غير بعيد مني يجلس رجال من أجيال مختلفة يخوضون في أحاديث نصف سياسية، كان تعليق أحد الركاب على خبر في الجريدة التي بين يديه هو الذي أطلق شرارة النقاش.

كان حامل الجريدة رجلا قارب الستين من العمر واشتعل رأسه شيبا من مشاكل الحياة، كان يعتمر قبعة من نوع "ديكيس" تغطي الجزء الأعلى من رأسه، كان من النوع الذي يعطيك انطباعا بأنه مثقف أفنى جل ماضي عمره في المطالعة لكنه مع ذلك لم يكمل تعليمه النظامي وإن كان يرى أنه أغزر علما وأوسع معرفة وأرفع شأنا من أن يجلس أمام محاضر متحذلق مغرور، إنه من ذلك النوع الذي يرى أن الحياة لم تنصفه بحيث ضنت عليه بورقة رسمية هي كل ما ينقصه ليصبح محاضرا في أرقى الجامعات.

كان صاحبنا يخبئ وجهه وراء جريدة كأنه جاسوس من الخمسينات في مهمة رقابة، طرف النقاش الثاني كان رجلا في الأربعينات دقيق تقاسم الوجه حليقه قد غزا الشعر عارضيه، يرتدى بدلة صفراء داكنة دون ربطة عنق، يلبس نظارات طبية ويحمل ملامح أستاذ لمادة العلوم أو الكيمياء، قال الأخير: "المشكلة تتمحور حول جهل الشعب، لو كان الشعب متعلما وواعيا لما حدث ما حدث، لكننا شعب للأسف أغلبيته لم تتعلم وهي تدفع الآن ثمن ذلك"، رد شاب يافع يرتدي بنطلون جينز أزرق و"جاكيت" من الجلد بنية اللون، قائلا بصوت حيي كأنه تلميذ يقف أمام معلمه: "كل السياسيين الموجودين على الساحة يجب أن يحالوا إلى التقاعد، وما دام الشباب مهمشا في القضايا المصيرية فإن الأمور لن تتحسن".

أبرز حامل الجريدة وجهه وقال بلهجة حملت الكثير من المرارة والتشاؤم: "المشكلة ليست فيمن يحكم: أشابا كان أم كهلا، المشكلة في غياب الصلة بين الحاكم والمحكوم، كل ما تولى الأمر أحدهم عزل نفسه في برج عاجي ونسي مبادئه الإصلاحية وخطاباته الدعائية، نحن أمة لا يرجى لها صلاح"، قالها وهو يدس وجهه مرة أخرى وراء الجريدة.

أحببت أن أشارك في النقاش الذي كنت غائبا عن أوله فقلت: "أعتقد أن الحل في توحد الشعوب وكسر الحدود"، وأردفت: "لو توحدت دول المغرب العربي بما تحويه من ثروات مختلفة وموقع استراتيجي لأنشأت كيانا يحسب له حساب في موازين السياسة الدولية".

أنزل الرجل المتشائم ستار الجريدة الذي كان قد حجب وجهه مرة أخرى وقال بابتسامة خالية من الدلالة: "أنت موريتاني؟"، قلت "نعم"، قال: "أنتم شعب طيب ما زال يعيش على الفطرة، يا عزيزي إنك تكرر الأسطوانة المشروخة التي يرددها الحالمون، نعم المغرب العربي يحتوي على ثروات طبيعية هائلة.. النفط والحديد والفوسفات والسمك ويقترب تعداد سكانه من عتبة المائة مليون، كل هذا صحيح لكن أين الساسة المخلصون الصادقون الذين يفكرون في مصلحة الشعب ومستقبله بدل التفكير في ملء جيوبهم، لا تتعبوا أنفسكم، هذه الشعوب مبتلاة بلعنة عدم الانتماء، فلسفة الحكام هي أنا ومن بعدي الطوفان، لا أحد يهتم بغير محيطه الضيق، الحل الوحيد هو أن نستجلب حكاما من عالم آخر"، قالها ورجع إلى تصفح جريدته.

خامس الحلقة النقاشية كان جزائريا في أواخر الثلاثينات، كان ذا أسنان غير متناسقة بنية اللون من كثرة ما تعاقبت عليها السجائر وقهوة "الاكسبريس" حالكة السواد، كانت معارك الشوارع والمقاهي قد خلفت على وجهه العديد من العلامات المميزة، كان يدخن بشراهة طوال الوقت كأنه قطار يتحرك بالفحم الحجري مالئا المكان بدخان سيجارته المحلية الرخيصة غير آبه بعباد الله من حوله، اقتصرت مشاركة أخينا ذلك على عبارة "هذا كله هراء"، التي كان يرددها – مصحوبة بابتسامة ساخرة – كتعليق على أحاديث الجميع.

في الجانب الأخر يدور نقاش من نوع آخر بين سيدتين إحداهما في شهور الحمل الأخيرة والأخرى خمسينية تحمل بين يديها صندوقا من البيض يبدو أن الحامل غير مرتاحة له.

أما غالبية الركاب فكانت تنعم بسبات عميق بعيدا عن نقاشات المتثيقفين، التي لا طائل من ورائها، لعل تلك الأغلبية من ألهمت المفكر الجزائري ذي الأصول الفرانكو إسبانية "البير كامي" مقولته الشهيرة: "يتكلم بعض الناس أثناء نومهم، أما المحاضرون فيتكلمون أثناء نوم الآخرين".

دخلنا مدينة "وهران" الملقبة بـ"الباهية"، ثاني أكبر المدن الجزائرية بعد العاصمة، تلك المدينة الساحلية المطلة على "خليج وهران"، غرب البحر الأبيض المتوسط، والتي ظلت منذ عقود عديدة وما تزال مركزا اقتصاديا وميناءً بحريًا هامًا.

إنها المدينة التي سحرت – منذ القدم – بجمالها كل حضارات البحر الأبيض المتوسط وكانت محطَّ أطماعها، فتقلب حكمها بين سلالات محلية من بربر وعرب وأتراك (عثمانيين) وبين محتلين إسبان وفرنسيين، وضع كلٌّ منهم بصمته ليرسموا من المدينة لوحة فسيفساء تمزج بين كل تلك الملامح التراثية والثقافية.

من محطة "وهران" انحرف القطار جنوبا باتجاه مدينة "مسكارة" ثم مدينة "اسعيدة" قاطعا مسافة 176 كيلومترا، ليعود مع نفس المسار راجعا إلى "وهران" مرة أخرى.

وصلنا "وهران" للمرة الثانية قرابة الساعة الثانية ظهرا، ليستمر ذلك القطار المعمر– الذي دخل الخدمة قبل خمسين سنة – في التهام مدن وقرى الشمال الجزائري في نهم وتؤدة كمن يتناول وجبة يعلم أن لا أحد سيشاركه فيها.

نحن الآن باتجاه مدينة "مستغانم"، التي تبعد حوالي 80 كلم، كنت أشعر بنعاس شديد فآخر عهد لي بالنوم مرت عليه قرابة

الثلاثين ساعة، دفنت وجهي بين أوراق جريدة اشتريتها في الصباح ونجحت في خطف غفوة قصيرة.

كنت في أمس الحاجة إلى تلك الغفوة التي امتدت لنحو ساعة على ما أعتقد، وقد استيقظت منها وأنا أشعر بجوع شديد فطلبت "ساندويش دجاج" وعلبة "كولا."

نحن على أبواب مدينة "الشلف"، عاصمة ولاية "الشلف"، تلك المدينة التي سماها الرومان "كاستليوم تانجتانيوم"، ومعناها "القلعة الطنجية"، وأطلق عليها العرب الفاتحون "مدينة الأصنام" لما رأوا فيها من الأعمدة والبناءات الرومانية الكبيرة، ثم سماها ممثل المستعمر الفرنسي المارشال بيجو باسم "أورليان فيل" وتعني "مدينة الدوق أورليان" وهو ملك فرنسي، لتستقر تسميتها على "الشلف" نسبة إلى "واد الشلف" الذي يمر عبر أراضيها.

إنها المدينة التي أوجعت ضربات مقاوميها بقيادة "الشريف بومعزة" ظهور المحتل الفرنسي ليسير إليها المارشال "بيجو" ثلاث قوافل عسكرية لمحاصرتها، وهو ما ألجأ السكان في مناطق الظفرة إلى الاعتصام بالكهوف، الأمر الذي كان السفاح "سنتارنو" يخطط له ليرتكب خلال يومي 9 و10 من شهر أغسطس 1845م مجزرة رهيبة في حق الأبرياء.

لقد قام ذلك النيروني بإغلاق منافذ الكهوف الخمسة بالخشب المرشوش بالبارود وأشعل النار ليقتل 2000 شخص من الموجودين في الكهوف بسبب الاختناق.

إنها المدينة التي تعيش صراع إرادة مع قوى الطبيعة، المدينة التي ضربتها زلازل مدمرة على مدى القرن الماضي وقع آخرها

وأعنفها في العاشر من أكتوبر عام 1980م وأدى إلى وفاة أكثر من 3000 شخص وتدمير البنية التحتية للمدينة بالكامل، ورغم ذلك فإن شعب "الشلف" العنيد كان ينتفض من تحت الركام – كل مرة – ليعيد بناء ما تهدم، كانت الزلازل كل مرة تكسر المباني والعمران لكنها لم تنجح مرة في كسر إرادة سكان المدينة في العيش والبقاء.

الاشتباه....

قبل أن يتحرك القطار من مدينة "الشلف" مستعدا لعبور مسافة 131 كلم باتجاه "لبليدة"، صعد عسكريان إلى متنه لإجراء عملية تفتيش عشوائية.

كانت العشرية السوداء في الجزائر – التي بدأت في يناير عام 1992م عقب إلغاء نتائج الانتخابات البرلمانية لعام 1991م – في أوجها، وكان من ثمراتها الخبيثة ذلك الصراع المسلح الذي نشب بين النظام الجزائري وفصائل متعددة تتبنى أفكارا موالية لما عرف بـ"الجبهة الإسلامية للإنقاذ"، لقد عززت تلك المواجهات من حساسية العسكر من كل ما له علاقة بكلمة "إسلام" بل ربما كانت النواة لما سيعرف لاحقا في كل العالم بـ"الإسلاموفوبيا".

توجه إلي أحد العسكريين طالبا جواز سفري فسلمته إياه، فسألني إن كنت أحمل بعض العملة الصعبة فأجبت بالنفي، في الواقع كانت لدي 300 افرنك فرنسي خبأتها في مكان لا يستدل عليه الجن الأزرق على قول إخواننا المصريين.

طلب مني العسكري فتح حقيبتي فحاولت لكنها تمنعت وكانت تفعلها أحيانا، ما يضطرني إلى استخدام سكين أو ما شابه لفتح

الحقيبة، قلت للعسكري بكل براءة: "أعرني سكينك حتى أفتح الحقيبة"، فحدق في مستنكرا طلبي ولكزني بقبضة يده على المنكب قائلا: "Tu es fou؟" (هل أنت مجنون؟) سمع زميله الحديث فسأل عن الأمر فكررت عليه ما قلت لصاحبه، فأخذ الحقيبة فضربها بيده مرتين ففتحها.

بدأ العسكريان يقلبان الأغراض فصادفا مصحفا فسلماه لي، وأكملا بعثرة الأغراض ليقع نظر أحدهما على نسخة من كتاب "الإسلام يتحدى" لوحيد الدين خان فرفعه أحدهما وقال لي بلهجة من عثر على دليل إدانة لمتهم: "واش هدا" (ما هذا؟)، قلت له: "هذا كتاب في العقيدة يرد على شبهات الملحدين ويثبت بالأدلة البعث والقيامة كما يتطرق إلى موضوع الإعجاز العلمي للقرآن الكريم"، ابتسم العسكري ابتسامة بلهاء تأكدت أنه لم يستوعب حرفا مما قلت.

أخذ العسكري الثاني الكتاب من يد صاحبه ووضعه في الحقيبة وهم بإغلاقها فقلت: "اسمح لي أن أضع المصحف"، أغلقت الحقيبة وجلست، في حين نزل العسكريان قبيل مغادرة القطار.

من "الشلف" باتجاه "لبليدة" قطع ذلك القطار الهرم ذو البنية الفولاذية الصلبة مسافة 161 كلم إضافة إلى 50 كلم أخرى من "لبليدة" نحو الجزائر العاصمة، التي دخلناها قبيل صلاة العشاء قاطعين على مدار ذلك اليوم الطويل ما يقارب مجموعه 1000 كلم.

التخلـف عن القــافلـة...

توقف القطار حوالي الساعة الثامنة مساء، كان البرد قارسا، لاحظت أن كل الركاب في المقصورة قد غادروها، وخلافا لنظرية القطيع، التي كنت مقتنعا بها، لم أبرح مكاني وظللت جالسا، مرت قرابة نصف ساعة وأنا ما أزال متسمرا على ذلك الكرسي كأنما أخشى أن ينتزعه مني أحد.

بعد طول انتظار واستغراب من أن العربة لم يصعد إليها راكب، فجأة صعد رجل أشيب يبدو في الخمسينات من عمره، يحمل حقيبة صغيرة تحت إبطه ويرتدي زيا رسميا يشبه إلى حد ما زي رجال الجمارك في بلادي، نظر إلي باستغراب قائلا: "ماذا تفعل هنا أيها الشاب؟".

قلت: "أنا متوجه إلى تونس"، فقال بلهجة الواثق: "بالتأكيد ليس الليلة، لقد فاتك القطار".. كانت تلك أول مرة أسمع فيها تلك العبارة التي ستشتهر بعد ذلك بزمن على لسان الرئيس اليمني الراحل علي عبد الله صالح قبل أن يغادر الفانية.

قلت: "له كيف ذلك؟".

قال: "القطار المتوجه إلى الحدود التونسية غادر قبل دقائق ولن تجد غيره قبل نفس التوقيت من يوم غد".

خرجت من العربة أجر حقيبتي التي لم أتنبه من قبل إلى أنها بذلك القدر من الثقل، كان البرد قارسا إلى درجة لا تتصور، وكيف لا ونحن في محطة قطار مفتوحة غير بعيد من البحر الأبيض المتوسط ليلة الثامن والعشرين من نوفمبر.

تذكرت أن حقيبتي تحوي كوفية من الصوف فأردت إخراجها لاستخدامها كلثام، لكن أصابعي المتجمدة لم تساعد في فتح الحقيبة، واصلت السير خطوات لأجد شابين يتحدثان عن مشكلتهما، فوقفت غير بعيد ففهما أنني ربما وقعت في نفس المشكلة فبادرني أحدهما بالسؤال قائلا: "هل فاتك القطار أنت الآخر؟"، قلت: "نعم، كيف عرفت!"، قال: "لقد خمنت الأمر".

بعد دقائق انضم إلينا رابع وقع في نفس الشرك، صرنا أربعة.. مغربيان وتونسي، أخذنا نفكر في حل وأثناء ذلك مر بنا أحد عمال المحطة على ما أعتقد فقال بعد أن سمع مشكلتنا، يمكنكما استئجار سيارة تقلكما إلى المحطة المقبلة للقطار قبل أن يصلها القطار نفسه، كانت فكرة موفقة فسألنا صاحبها عن المحطة الموالية لتوقف القطار فأجاب بأنها محطة "اسطيف"، التي تبعد عن الجزائر العاصمة قرابة 270 كلم.

أعجبتنا الفكرة فخرجنا من المحطة واتفقنا مع سائق سيارة على دفع مبلغ معين شريطة أن يوصلنا إلى المحطة قبل موعد وصول القطار فالتزم بالأمر وتحركت السيارة.

لو كان بين ركاب تلك السيارة الصغيرة مواطن ليبي لكانت نجحت فيما لم ينجح فيه جميع ساسة المنطقة، كنا سنمثل اجتماعا مصغرا للمغرب العربي تحت سقف واحد، كان السائق الجزائري رجلا شهما كغالبية الجزائريين، قال لنا منذ البداية لن نختلف على الأجرة، وبالفعل قبل أول عرض قدمه أحدنا، أذكر أن نصيبي من الأجرة أتى – تقريبا – على ما بقي من الدينار الجزائري في جعبتي.

بدأ السائق يروي قصصا وحكايات عن تاريخه في مجال النقل، لم يصنع من نفسه بطلا بقدر ما كان مركزا على المواقف الطريفة التي مرت به وتعامل السلطات غير المريح مع الناقلين وأشياء من هذا القبيل.

كانت ليلة شتوية قارسة ومظلمة، بعد خروجنا من ضواحي العاصمة عبرنا مناطق مختلفة التضاريس؛ سهول ووديان وجبال القاسم المشترك بينها هو الظلام الدامس، لا أذكر أن ليلة أشد حلكة من تلك الليلة قد مرت علي.

عبر الطريق الجبلي وفي عتمة ذلك الظلام الدامس كانت تتراءى من حين لآخر أضواء منازل وأكواخ تحتضنها سفوح الجبال عند نهاية الأفق المنظور، كنت أسائل نفسي، ترى من يسكن تلك المنازل القصية المعزولة؟ ترى علام يجتمع أولئك الناؤون عن صخب المدينة؟ هل هم نيام الآن أم مستيقظون؟ هل لهم آمال وأحلام كآمالنا وأحلامنا؟

فجأة ووسط الطريق ظهر حاجز عسكري! "إنها الشرطة العسكرية"، قال السائق الذي أخذ يمين الطريق وتوقف طالبا منا إعطاءه جوازات السفر، استلم جوازات سفرنا وتوجه إلى العساكر، بعد دقائق عاد يتبعه اثنان منهما مدججان بالسلاح ويغطيان وجهيهما بحيث لم تترك الأقنعة باديا منهما سوى عيون متوثبة كعيون ذئاب الجبل.

صوب أحدهما مصباحا كاشفا إلى داخل السيارة وتفحص وجوهنا في حين كان رفيقه واقفا بجانبه واضعا إصبعه على الزناد.

أتذكر أن أي نوع من مشاعر الخوف لم يعتريني، ربما لأني لا أقدر حقيقة الوضع والخطر الذي يواجه هؤلاء كل يوم من المسلحين المناوئين لهم.

أرجع العسكري الجوازات إلى السائق وأشار إليه بالمغادرة، بدوره دفع السائق إلينا بالجوازات قائلا بلهجته الجزائرية: "لو لم يقوموا بهذه الدوريات لعمَّت الفوضى على طول الطريق".

بعيد الثانية عشر ليلا سمعنا صوت هدير قطار غير بعيد منا فقال السائق: "هذا قطاركم لقد تجاوزناه الآن".

على تمام الساعة الواحدة فجرا توقف السائق عند استراحة في الطريق وطلب منا النزول لأخذ قسط من الراحة، فتعللنا بالخوف من تفويت القطار، فقال: "اطمئنوا لقد بقي خلفنا بمسافة وهو على أية حال – إن وصل– فلن يغادر المحطة قبل الساعة الرابعة فجرا".

جلب النادل صحونا من الشوربة حارة وساخنة ما كنا لنقاوم ذلك الزمهرير لولاها وأتبعها بكاسات شاي في حين أصر السائق – حالفا بأغلظ الأيمان – أن يدفع الحساب.

صليت المغرب والعشاء جمع تأخير، واستأنفنا الرحلة بعد عشرين دقيقة تقريبا حيث وصلنا المحطة بعيد الساعة الثالثة فجرا، ودعنا السائق وانصرف.

دخلت المحطة التي كانت عبارة عن عنبر عملاق مفتوح الجانبين تشقه السكة الحديدية من الوسط، ولكم أن تتخيلوا درجة البرودة قبيل الفجر في شتاء الجزائر داخل مكان يخترقه الهواء من الجانبين.

كنت ذا تاريخ قديم مع الصداع النصفي ولا أحتمل المكوث في مسار التيار الهوائي المفتوح، لذلك كان لزاما أن أفتح الحقيبة مهما كلف الأمر لاستخراج ما ألفتُ به رأسي الذي بدأ يعطي إشارات إنذارية بأن نوبة صداع أصبحت على الأبواب.

وأنا جالس على أحد الكراسي غير المريحة، وقف غير بعيد مني رجل في السبعين من عمره محدودب الظهر، خلق الثياب نتن الرائحة، يبدو من مظهره أن آخر عهد له بالنظافة والحلاق كان قبل أن أولد، اقترب مني وطلب سيجارة، لا يعلم المسكين أنها لم تلمس شفتي مذ خرجت من بطن أمي، قلت له: "أنا لا أدخن"، فكرر نفس الطلب بصوت أرفع، كنت في مزاج سيئ لا يسمح بإطالة النقاش حتى مع عجوز في عمر جدي، فقلت له بحدة: "ألم أقل لك إنني لا أدخن!".

هناك على بعد أمتار كان رجل – لعله من العاملين في المكان – يسمع الحديث فقال لي مشيرا إلى العجوز: "مسكين أراهو مهبول"، يعني المسكين مختل عقليا، صدق الفيلسوف الروماني "إيبكتيتوس" حين قال: "المجنون لا يمكن إقناعه ولا تحطيمه"، الآن فهمت، كنت أعلم أنه ليس طبيعيا لكني توقعت أنه أحد السكارى المشردين من ضحايا المدنية التي لا ترحم.

أدخلت يدي في جيبي فعادت بورقة 5 أو 10 دنانير جزائرية كانت قابعة في إحدى زوايا الجيب تنتظر صاحب النصيب، سلمته إياها فضحك وتولى يدندن ويرقص.

قبيل الرابعة وصل القطار مالئا المكان بالضجيج، صعدت مع أول من صعد مستأنفا رحلة باتجاه مدينة "قَسنطينة" التي تبعد مسافة 129 كلم.

خرجنا من مدينة "اسطيف" وما زال الظلام يلف الكون ولا تسمع من همس إلا ما يكون من نباح كلب ساهر ينتظر طلوع الفجر لينام.

نحن تحديدا في اتجاه الشرق ومع أول خيوط الفجر بدأت ذرى جبال "مغرس" و"بابور" تلوح في الأفق حاجبة ضوء الصباح.

لا غرابة في أن يكون الجو قارسا فمدينة "اسطيف" من أكثر المدن الجزائرية تعرضا لسقوط الثلوج خلال فصل الشتاء، إنها المدينة التي اختارها غزاة الرومان كمنطقة مثالية للراحة والاستجمام فأسموها "سيتيفيس" أي "الأرض السوداء الخصبة" فاستوطنوها وما تزال آثار عمرانهم قائمة إلى حد الساعة.

لقد ظلت أرض "اسطيف" مسرحا لمعارك طاحنة بين "الوندال" و"البرابرة" إلى أن فتحها المسلمون عام 90 هجرية لتتحول إلى خزان غلال لقرون عديدة، حيث وصفت في "معجم البلدان" لياقوت الحموي بأنها مدينة ذات زرع عظيم.

أشرقت علي شمس يوم الاستقلال الوطني وأنا أتأهب لدخول ولاية "قسنطينة"، لا شيء يقف في وجه ذلك الأفعوان المزمجر، هناك تلوح قمة مرتفع "شطابة"، عبرنا سلسلة من المنحدرات والأحواض والوديان التي تشكلت جيولوجيا من الاتصال بين تل الشمال والسهول العليا بالجنوب، كشف الأفق البعيد عن قمة جبل "الوحش"، الذي يمثل أعلى نقطة في مدينة "قسنطينة" بل في ولايات الشرق الجزائري كلها، إذًا فدخول مدينة "قسنطينة" أصبح مجرد مسألة وقت.

دخلنا الشطر الشرقي من مدينة "قسنطينة" المشهورة باسم "مدينة الجسور المعلقة"، إنها عاصمة الشرق الجزائري وثالث أكبر المدن الجزائرية بعد الجزائر العاصمة ومدينة "وهران".

ترجع تسمية المدينة إلى "قسطنطين العظيم"، الذي أسسها عام 202 قبل الميلاد، وقد شيدت على صخرة من الكلس الصلب يفصل بين شطريها أخدود عظيم استخدمت – عبر العصور – الجسور المعلقة من أجل عبوره وصولا إلى الشطر الآخر من تلك الصخرة الهائلة.

تمثل "قسنطينة" – من حيث النمط المعماري – قطعة مهاجرة من أوروبا شمال البحر المتوسط، يطغى اللون الأبيض الداكن على جدران المنازل والتجمعات السكنية بمسحة تصميم فكتورية، في حين تصطبغ المدينة من أعلى باللون الأحمر وهو اللون الغالب في الياجور الذي يغطي السقوف المنحنية لتسهيل انزلاق الثلوج متوقعة التراكم كل فصل شتاء.

وتزول الغرابة من اختيار مدينة "قسنطينة" عاصمة للثقافة العربية عام 2015م إذا علمنا أن رحم تلك المدينة أنجب العديد من العلماء والمفكرين والأدباء العظماء، ومن أشهرهم الشيخ "عبد الحميد بن باديس" مؤسس "جمعية العلماء المسلمين" الجزائرية، والمفكر "مالك بن نبي"، الذي يعد أحد أبرز أعلام الفكر العربي الإسلامي في القرن العشرين، إضافة إلى الكاتبة الروائية "أحلام مستغانمي".

كان نسيم الصباح الممزوج بتيار بارد ندي قادم من غابات جبل "الوحش"، غير البعيدة كفيلا بتنشيط الدورة الدموية وتنظيف الشعب الهوائية التي سدها مزيج أبخرة محركات القطار وروائح

المسافرين وأمتعتهم خلال اليوم الماضي، ودعنا تلك المدينة الرائعة منحرفين شمالا باتجاه مدينة "اسكيكدة"، التي تفصلنا عنها مسافة 95 كلم.

"اسكيكدة" أو "روسيكادا" حسب التسمية الفينيقية، هي عاصمة الولاية الواقعة شرق الشريط الساحلي الجزائري والمشرفة على البحر الأبيض المتوسط.

كانت تلك المدينة – منذ القرن 12 وحتى القرن الأول قبل الميلاد – تعتبر أحد المداخل الرئيسية لمحيط كان يشكل مسرحا للصراع بين الفينيقيين والنوميديين والرومان إلى أن حسم "يوليوس قيصر" ذلك الصراع لصالحه سنة 45 قبل الميلاد، واضعا يده على ذلك الإقليم من شمال إفريقية.

لقد ظلت تلك المدينة رومانية الحكم والهوى رغم محاولات الفتح الإسلامي لبلاد البربر التي انطلقت بأولى غزوات "عقبة بن نافع" في عهد "عمر بن الخطاب"، لكن سكان تلك الأقاليم ظلوا مستعصين على الدخلاء حتى عام 85 هجرية، وهو العام الذي تم خلاله الفتح الشامل لتلك المناطق على يد القادة المسلمين العظماء من أمثال عقبة وزهير وحسان وموسى ابن نصير.

التاسعة صباحا وما زال رأس ذلك التمساح يجر باقي أجزائه دون كلل، ساعة تفصلنا عن الوصول إلى محطة "اسكيكدة".

نحن الآن في نهاية سهل "صفصاف" تاركين جبال "التوميات" بمنطقة "الحروش" خلفنا ومستعدين لعبور سهل "وبلي" الممتد من منطقة "أم الطوب" إلى منطقة "تمالوس" شمالا.

على امتداد تلك السهول لا تكاد عيناك تقع على ذرة تراب، الكروم والأشجار المثمرة وحقول الحبوب والخضروات تغطي وجه الأرض.

من مدينة "اسكيكدة" في أقصى الشمال الجزائري انعطف القطار باتجاه الشرق ميمما مدينة "عنابة" عاصمة الساحل الشرقي الملقبة بـ"جوهرة الشرق الجزائري" و"جوهرة المتوسط" لفرط جمالها.

مدينة "هيبون" كما أسماها الفينيقيون أو "عنابة" كما أسماها العرب كناية عن إنتاجها الغزير من العنب، كانت هذه المدينة من أغنى مدن إفريقيا الرومانية خلال القرون الثلاثة الأولى للميلاد، وكان ميناؤها يعرف باسم "الأفروديسيوم" نسبة للإلهة "أفروديت"، كما كانت مركزا للمعتقد المسيحي الأول ما قبل الإسلام، وقد عاش فيها واحد من أعظم الشخصيات الدينية في العالم المسيحي (354 – 430 م) ألا وهو القديس "أوغسطين"، الذي كان أسقفا لها منذ عام 396 م.

لكنها أيضا حفظت للمسلمين الفاتحين الكثير من آثار عمارتهم ومن أبرز تلك الآثار مسجد أبي مروان المشيد سنة 425 هـ، إبان حكم المعز بن باديس الصنهاجي تحت إشراف المهندس الأندلسي أبو ليث البوني.

دخلنا "عنابة" من جهة الشمال لننحرف جنوبا عابرين السهل الساحلي الخصب الممتد من سفح جبل "إدوغ" إلى جبال "قالمة" جنوبا مرورا بـ"بحيرة فزارة" عابرين جزء من "وادي سيبوس" الممتد شرقا.

أكملنا الآن قرابة 80 كلم من مسافة 100 كلم التي تفصل "عنابة" عن محطتنا الأخيرة في أرض الجزائر وهي مدينة "سوق اهراس" على الحدود التونسية.

الساعة تشير إلى الرابعة مساء، دخلنا مدينة "سوق اهراس"، التي أخذت اسمها من الأمازيغية وتعني "سوق الأسود"، هذه الأخيرة التي ظلت تنتشر في غابات الولاية حتى منتصف القرن العشرين.

لم أر في رحلتي كثافة للغابات والجداول المائية كما رأيتها في تلك الولاية، ويكفي أن الغابات – حسب المعطيات البيئية الرسمية – تغطي نسبة 25% من مساحة الولاية، التي تزدحم على أديمها أشجار الصنوبر والسرور والزان والفلين والبلوط وغيرها من النباتات الغابية، فيخيل للعابر من تلك الغابات البكر الموحشة أن ديناصورا سيطل برأسه في أية لحظة في مشهد يذكر بلقطات من فيلم "الحديقة الجوراسية".

لا تبعد الحدود التونسية عن مدينة "سوق اهراس" أكثر من 40 كلم وهي المسافة التي تستغل الجمارك وشرطة الحدود الجزائرية مدة قطعها في مراقبة المسافرين وختم الجوازات.

أجمل ما في نقاط العبور بين الجزائر وتونس أن عملية التأشير على جوازات السفر وتفتيش المسافرين – من طرف فرق الجمارك وشرطة الحدود لكلا البلدين – تتم داخل القطار دون حاجة إلى توقفه.

كانت لدي بقية من تمر اشتريته وأنا في الطريق بين "اسكيكدة" و"عنابة"، نبهني أحد عناصر الشرطة الجزائرية إلى ضرورة التخلص منها قبل دخول الحدود التونسية فنفذت دون سؤال أو اعتراض،

سأعرف فيما بعد أن التوانسة يمنعون دخول التمور الجزائرية إلى أراضيهم خوفا على نخيلهم من عدوى فقد المناعة التي يقولون إن نخل الجزائر كان مصابا بها، شخصيا لست خبيرا زراعيا وكل ما أجزم به هو أن ذلك المرض المزعوم لم يؤثر على طعم التمر الجزائري.

تونس الخضراء

ودعنا الجزائر ودخلنا تونس الخضراء من بوابة معبر "غار الدماء" في ولاية "جندوبة" الواقعة أقصي الشمال الغربي لتونس.

لا تختلف منطقة "غار الدماء" من حيث الجمال الطبيعي عن منطقة "سوق اهراس"، نفس الغلاف النباتي والجداول المائية المنسابة بمحض إرادتها منذ قرون، إنها نفس المنطقة شقها خط حدودي لم يغير شيئا في المناخ أو التضاريس.

لقد ولد تزاوج عناصر الوسط الطبيعي من مناخ رطب وكساء غابي نتيجة حتميّة جعلت من تلك المنطقة جنة على الأرض ورئة طبيعية لكل مناطق الشمال الغربي التونسي، لذلك لم تترد السلطات التونسية في جعلها محمية طبيعية وهي نضم الآن ما يعرف بـ"الحديقة الوطنية بالفايجة"، التي تمتد على مساحة تقارب 2632 هكتارا.

ولاية "جندوبة" إذًا هي ولاية خصب ومرعى حيث يشقها نهر وادي "امجردة" المنحدر من جبال "سوق اهراس" بالجزائر، وبالإضافة إلى احتوائها أكبر الغابات المعروفة بسلسلة جبال "خمير"، الممتدة من الجزائر وصولا إلى "بنزرت"، فإن ولاية "جندوبة" أيضا تتميّز باتساع سهولها وجودة تربتها واحتوائها على ثلث المخزون المائي في تونس.

كان القطار التونسي أحسن حالا من القطار الجزائري وإن لم يصل إلى مستوى القطار المغربي.

عبرنا منطقة سهول "امجردة" باتجاه عاصمة الولاية حيث وصلنا بعيد حدود الساعة السادسة مساء.

من بين الركاب كانت هناك عجوز تتلفع بالسفساري وهو لحاف من قماش أبيض شائع اللبس في النساء اللائي تجاوزن الستين من التونسيات الريفيات خاصة، كانت برفقتها امرأة ثلاثينية ترتدي عباية ريفية كثيرة الألوان وتغطي شعرها بمنديل وردي اللون، كانت الأخيرة تحمل طفلا لا يكلُّ ولا يملّ من الصراخ كأنه دمية ببطاريات لا تنفد، كان مصدر إزعاج لكل الركاب ومصدر إحراج لجدته ولأمه المسكينة، أطعمته أمه ورغبته وهددته لكنه ظل يصرخ محتفظا بكامل طاقته.

بعد كثير من الصراخ ومحاولات الأم في هدهدته تعبت بطارياته فصار يصدر أصواتا متقطعة غير منتظمة لا تعلم طبيعتها ليغط بعد مدة في نوم عميق مانحا لحظات من الهدوء والسكينة لركاب ذلك الصندوق الحديدي.

هنا محطة القطار العتيقة، التي تأسست حولها المدينة ونفث - منطلقا منها أول قطار بخاري- دخانه غرة سبتمبر من عام 1879م، ما تزال المحطة تحتفظ بالكثير من أساساتها القديمة رغم التحديثات التي أجريت عليها.

في تلك المحطة، كمعظم سابقاتها، يستمر قدر المقصورات في ابتلاع أمتعة وبشر جدد ليتم التخلص من أمتعة وبشر آخرين، هكذا هي سنة حياة وسائل النقل، تحبل في محطة وتلد في أخرى، قد تطول مدة الحمل أو تقصر لكن لابدَّ من ولادة في النهاية، وتستمر العملية بين صعود ونزول.

عبر الأراضي التونسية يعتبر قطار الشمال امتدادا لما عرف حينها بـ"قطار المغرب العربي"، كانت مهمته في الربط تبدأ من محطة "غار الدماء" على الحدود الجزائرية مخترقا ولايتي "جندوبة" فـ"باجة" ثم "منوبة" وصولا إلى تونس العاصمة، قاطعا مسافة تقارب ال 200 كلم.

43 كلم تفصل "جندوبة" عن "باجة"، مررنا خلالها بمدن "بن بشير"، فـ"بو سالم"، فـ"سيدي إسماعيل" ثم "مستوتة"، لندخل مدينة "باجة" من جهة الغرب.

"باجة" أو "فاقا" كما أطلق عليها الرومان وتعني "البقرة الحلوب"، في إشارة إلى أراضيها الخصبة، هي إحدى مدن الشمال الغربي التونسي التي كانت ذات يوم مركز الفلاحة في "العهد القرطاجني" وإحدى أهم مدن النوميديين حيث اختارها "يوغرطة" مقرّا لإقامته وكانت تُنظّم فيها سوق للتجارة يأتيها التجار من مختلف أنحاء البلاد واشتهرت بزراعة الشعير والقمح حيث سمّاها الرومان "مطمورة روما" لأنّهم كانوا يعتمدون عليها للتزود بالحبوب.

وإلى عهد الأغالبة ومن بعدهم الصنهاجيين، ظلت محتفظة بقدر كبير من الازدهار ليجتاحها الدمار والخراب مدفوعا بالنقع الذي أثارته خيول الهلاليين في زحفهم القادم من الشرق.

لكنها ستستعيد رونقها وتلبس زينتها مع طلائع الحفصيين ومن بعدهم العثمانيين حيث تم تجديد بناءاتها القديمة وخاصة قصبتها التي كان يتم التحصن داخلها عند اللزوم، والتي اشتهرت بها منذ "العهد القرطاجنّي".

تقترب الساعة من السابعة مساء ونحن نغادر مدينة "باجة"، 120 كلم وثمان محطات توقف، ذلك ما يفصلنا عن تونس العاصمة.

سيتعين علينا انطلاقا من "باجة" أن نتوقف في "محطة سيدي مهيمش"، ثم "محطة واد الزرقاء"، وصولا إلى محطة مدينة "مجاز الباب"، تلك المدينة التي كانت مركزا للقوات البريطانية خلال الحرب العالمية الثانية واحتفظت بجثث ثلاثة جنود بريطانيين كذكرى من الحرب.

من بين الصاعدين من تلك المحطة شاب أقزع مفتول العضلات يلبس "سروال جينز" قصير لا يتعدى الركبتين، صعد إلى القطار وهو يجر وراءه – بسلسلة حديدية – كلبا ضخما من فصيلة "سانت برنارد" (Saint–Bernard)، كان كلبا بحجم أسد، لا شك أن لذلك العملاق قرابة مع ذوات الأنياب الطويلة التي انقرضت مع الديناصورات، سبب مظهر الكلب هرجا ومرجا بل وذعرا داخل عربة القطار، فبين معترض بشجاعة يشوبها الحذر على صعود الكلب إلى عربة المسافرين المسالمين، وبين ساكت – على مضض – خوفا من الكلب وعينيه الناريتين، اللتين كان يقلبهما في الركاب جيأة وذهابا، كان ذلك الحيوان يحاول من حين لآخر الإفلات من السلسة التي تطوق عنقه.

أما صاحب الكلب فكان يشعر بالفخر والرضا كلما لاحظ مسحة رعب على وجه أحد الركاب.

قرأت مرة أن الذين يصطحبون حيوانات مفترسة في أماكن عمومية إنما هم ناس يشعرون بعدم تقدير الآخرين لهم، فيتولد لديهم شعور بالرغبة في معاقبة الناس من خلال إرهابهم، وبما

أنهم لا يثقون في أنفسهم فإنهم يستعينون بمصدر إرعاب خارجي قد يكون أي حيوان مفترس.

لم أكن من الذين يعانون رهابا من الكلاب، أنا أخاف القطط أكثر، لدي شعور دائم بأنها بمجرد أن تقع عينها علي ستغرس أظافرها في وجهي لذلك دائما أتفادى النظر في عينيها.

وبينما الشاب مفتول العضلات منتفخ زهوا بكلبه الضخم، إذ توقف القطار في المحطة التالية، وكان من بين من صعد أحد رجال الشرطة أو "الحاكم" كما يسمونه في تونس، هنا تغيّر الوضع مائة وثمانين درجة، وتكلم من كان ملتزما للصمت سابقا وحوصر الشاب وكلبه بالعيون المستنكرة والكلمات المنددة.

لاحظت أن الشاب لم ينبس ببنت شفة، وخيل إلي أن حجمه تضاءل إلى النصف، أقبل الشرطي نحو صاحب الكلب وقال له بلهجة آمرة: "انزل أنت وكلبك ولا تصعد مرة أخرى وسائل النقل العمومي بهذا النوع من الحيوانات"، طأطأ المسكين رأسه وهو يهرول نحو باب الخروج جارا وراءه كلبه.

ارتفعت حناجر الركاب بالدعاء لرجل الشرطة والثناء على تصرفه، تذكرت كيف يعامل الناس رجال الشرطة لدينا لكنني تذكرت أيضا أن شرطتنا هي التي أرخصت نفسها من خلال تصرفاتها الدونية في كثير من الأحيان.

تحرك القطار من محطة "الهري"، وهي تحمل اسما تناسب دلالته الحسانية كتاب القصص والروايات، أسلمتنا تلك المحطة إلى أخرى تسمى "برج التوم" لنودع معها ولاية "باجة" داخلين ولاية "منوبة" المحاذية من الغرب لمدينة تونس العاصمة.

كانت محطة مدينة "طبربة" مدخلنا إلى "منوبة"، "طبربة" التي تعتبر عاصمة الكتاتيب القرآنية التي تقوم على تحفيظ القرآن للصغار بطريقة تشترك في قواسم كثيرة مع الطريقة المعتمدة لدينا في موريتانيا.

تزخر مدينة "طبربة" بعديد الكتاتيب التي من أشهرها "كُتَّاب الجامع الكبير"، "جامع سيدي ثابت"، "جامع جعفر"، "نهج السبة"، "زاوية سيدي بن حسين"، "زاوية سيدي علي العزوز"، و"زاوية سيدي الطاهر".

عرض علي رجل كان يجلس بقربي مشاركته حلوى في كيس ورقي يحمله بين يديه، لم أرد إحراجه فمددت يدي وأخذت حبة من الكيس، كانت لذيذة جدا، فسألته، وأنا أمد يدي لأخذ حبة أخرى: "ما هذا الشيء؟"، قال مستغربا: "ألا تعرفه؟ إنه "المقروض" التونسي ونسميه حلوى الأغالبة نسبة إلى دولة الأغالبة، إنه يصنع من السميد الممزوج بالسمسم ويتم حشوه بالتمر ويغمس بالعسل وقد تضاف إليه بعض الفواكه الجافة لإعطائه نكهة مميزة"، كانت تلك أول مرة أتذوق فيها تلك الحلوى أو أسمع عنها.

لم يعد يفصلنا عن تونس العاصمة سوى محطتين والساعة تجاوزت الثامنة مساء، بعد "طبربة" أخذت محطة "الجديدة" نصيبها من التوقف لنغادرها باتجاه مدينة "منوبة".

نحن الآن على مشارف تونس العاصمة التي سندخلها من جهة الغرب، إنها الوجهة الأخيرة وموطن الحلم الكبير.

ورغم أن الظلام كان قد أرخى سدوله إلا أن جبل "بوقرنين" ما كان ليخفى على الداخل من خلال الكشافات الضوئية النابضة التي

تتربع على قمته، كان الأصوب أن يسمى ذلك الجبل "بذات النهدين" فقمته – بالنتوءين البارزين فوقها – كانت تشبه صدر فتاة نافر أكثر من أي شيء آخر.

دخلنا تونس، إنها المدينة التي ستأويني لسنوات عديدة، إنها في الواقع مدينة احتضان الغرباء، وحيث يستأنس المستوحشون لذلك كان اسمها تونس.

لست أول من آوته تلك المدينة المفعمة بحب الحياة، الغارقة في رائحة الفل والياسمين، لقد فعلتها من قبل بالأميرة "عليسة" حينما هربت بحاشيتها – قبل الميلاد ب 814 سنة – من موطنها الأصلي في "صور" بجنوب لبنان واتخذت تونس وجهتها، لتبني مدينة "قرطاج" ذات التاريخ والمجد العريقين.

اسألوا جامعة الدول العربية أين استوطنت بعد ما لوثت "اتفاقية كامب ديفد" هواء القاهرة برائحة أنتن من كبريت الهيدروجين، ثم أين توجهت منظمة التحرير الفلسطيني بعد ما حاصر "الكيان" الصهيوني الراحل ياسر عرفات مع رجاله في لبنان عقب اجتياح عام 1982م، كانت تونس، بصدرها الرحب ونخلها الباسق وكل ما استوطنها من غابات الصنوبر والزيتون، تقف كيانا واحدا في استقبال الزعيم ورفاقه.

بلا عنوان في محطة تونس للقطارات

دخلنا – بعيد التاسعة مساء – "محطة أرتال تونس" كما تسمى محليا أو محطة القطارات المركزية أو (La Gare de Tunis)، كلها

أسماء لبناء ضخم تتجمع عنده كل القطارات الداخلة إلى تونس والمغادرة منها.

نزلت من القطار أجر حقيبتي الثقيلة التي أرهقني رفعها وإنزالها خلال الرحلة، دخلت بهو المحطة التي بهرتني باتساعها وفخامتها مقارنة بما رأيت قبلها من محطات.

كان برنامجي أن أجعل من وصولي إلى تونس مفاجأة لزميلي الذي سبقني إلى هناك، فلم أعلمه بموعد وصولي، وإنما أردت أن أتصل عليه من المحطة مباشرة، كنت قد اشتريت قبل أيام جماعة مفاتيح على شكل مذكرة صغيرة لكتابة أرقام الهواتف، كانت عبارة عن قالب على شكل دفتين نحاسيتين تضمان بطاقات صغيرة من الورق المقوى مصنوعة خصيصا لكتابة أسماء الأشخاص وأرقام الهاتف.

وبقدرة قادر طارت تلك المذكرة الصغيرة ولم أعثر لها على أثر، بحثْتُ في كل ذرة من ذرات الحقيبة لكن دون جدوى، لا بَّد أنها كانت ضحية التفتيش غير اللبق للعساكر الجزائريين يوم أمس.

حاولت أن أتذكر رقم الهاتف، لكن ذاكرتي كانت دوما ضعيفة تجاه حفظ الأرقام، ما العمل إذًا؟ أنا لا أعرف عن زميلي إلا أنه يسكن في تلك المدينة مترامية الأطراف التي يزيد تعداد سكانها عن المليون نسمة.

تذكرت أنني تبادلت مع زميلي رسائل عبر البريد وأن رسائله تحمل عنوان سكنه، لقد حلت المشكلة إذًا على ما اعتقدت، أخذت آخر رسالة وصلتني من قبله ووضعتها في جيبي وأغلقت الحقيبة.

كانت الميزانية عبارة عن 300 إفرنك فرنسي مخبأة في "روح الغول" كما نقول بالعربية الحسانية، وبقي لدي ديناران تونسيان ونصف الدينار فاضا عن مصاريف محطات القطارات بتونس.

سألت عن مكان إيداع الأمتعة لأتخلص من تلك الحقيبة ثقيلة الوزن والظل، دلني أحدهم عليه فسلمتهم الحقيبة غير آسف على فراقها، طلب مني الموظف مبلغ دينارين فدفعتهما عن طيب نفس.

كان مجرد التخلص من الحقيبة كافيا لإشعاري براحة تامة حتى ولو كنت سأبيت بعدها في الشارع.

أخرجت كنزي المدفون وبحثت عن صرافة لكني لم أجدها في المحطة، كانت مفاجأة كبيرة لي، قلت كيف لا تضم المحطة مكتب صرافة للعملات الأجنبية، فقال لي أحدهم بأن هناك واحدة لكنها مغلقة ذلك اليوم.

كان الثامن والعشرون من نوفمبر 1993م يصادف يوم الأحد الذي هو عطلة رسمية، قلت لمحدثي كيف إذًا سأحصل على مكان لصرف العملة فأجاب: "لن تجدها إلا في المطار لأن مكاتب الصرف الموجودة في شارع الحبيب بورقيبة (قلب المدينة) غير البعيد مغلقة هي الأخرى اليوم".

كنت كالتائه داخل تلك المحطة الفسيحة، كنت أتلفت هنا وهناك كطفل أضاع أمه في السوق، كان أحدهم كأنما يراقبني منذ وصولي، كان شابا وسيما في الثلاثين من عمره، كان من أولئك التوانسة ذوي الأصول الهجينة الذين اختلطت فيهم دماء الشعوب المتعاقبة على تلك البقعة من شمال إفريقيا، أقبل علي متهلل الوجه وقال: "لا أراك تونسيا"، قلت: "أصبت التخمين أنا

من موريتانيا"، فقال: "أهلا ومرحبا بك في تونس، إنك بالفعل لن تجد من يصرف لك النقود قبل غد، لكن – ودس يده في جيبه – هذه خمسة دنانير دبر بها أمرك".

أخبرني أصدقائي لاحقا بأن تلك كانت كرامة عظمى خصني الله بها إن لم تكن معجزة، أعرف أن أهل المدينة تعودوا على أن يعيش كل منهم لنفسه فقط ولا علاقة له بالغير لكن ذلك الشاب التونسي أحدث لدي خللا في نظام المسلمات.

مددت يدي وأخذت المبلغ شاكرا له صنيعه، فقال بعبارة لم أعرف معناها بالضبط في حينها (من غير امزية) ودلالتها أن لا منة له علي فيما فعل.

خرجت من المحطة أحمل كنزي الذي ما زال مختوما كما هو، 300 افرنك فرنسية بالتمام والكمال وأحمل خمسة دنانير ونصف في جيبي وغلاف الرسالة في يدي.

ابتعدت قليلا عن المحطة وأوقفت سيارة أجرة وأريت صاحبها العنوان المكتوب على غلاف الرسالة (8 نهج النابلس، باردو 2000، تونس) قال لي: "لا أعرف المكان بالضبط لكني أعرف المنطقة ولن نعدم من يدلنا"، جلست بجانبه وتحركت السيارة.

سألته عن الأجرة فقال: "هي حسب العداد"، فقلت: "كم ستكون تقريبا؟"، فقال: "إذا سارت الأمور بشكل طبيعي فلن تزيد عن 3000"، قلت متفاجئا "كم؟"، قال: "3 آلاف يعني ثلاثة دنانير"، شعرت بالارتياح فقلت له: "اسمع، لدي 5 دنانير ولا أريد منها بقية، لكنك ستتعهد بإيصالي إلى العنوان المكتوب"، قال: "بقدرة ربي".

في الحقيقة كان ذلك الاتفاق يحمل نسبة من الغَرَرِ المبطل للعقود لكنه – على الأرجح – غَرَرٌ أقرب إلى ما يعرف بالغرر اليسير المعفى عنه، كما أنني وقتها بلغت من التعب درجة يصعب معها توقي الشبهات.

في الطريق دار حديث معتاد من الأحاديث النمطية التي تدور بين الراكب وسائق سيارة الأجرة، كل ما كان ينغصه هو الاصطدام بكلمات غير مفهومة الدلالة تقع من أحدنا بين الفينة والأخرى لكنها لم تصل إلى الحد الذي يوجب وقف الحديث.

صادفتنا بوابة ذات مداخل متعددة يبدو من خلال نمطها المعماري أنها ترجع إلى عهود سحيقة، كانت تتوسط ملتقى عدة طرق فقال السائق: "هنا "منطقة باب سعدون" ونحن الآن ندخل "منطقة باردو"، "إذًا نحن قريبون من العنوان أليس كذلك سألته؟"، قال: "نعم". لكن تبين بعد الكثير من الدوران داخل "منطقة باردو" أن الوصول إلى العنوان المكتوب ليس بالأمر السهل، كان الوقت متأخرا فلم نصادف من نسأل فقال السائق: "لدي فكرة، مركز الدرك الوطني في "باردو" ليس بعيدا من هنا، سنتوجه إليهم ونستدل من خلال الخريطة العامة على عنواننا".

قلت له: "افعل كما تشاء"، توقف السائق على شارع رئيسي ودخل مبني الدرك، بعد دقائق خرج إلي مبتسما وهو يقول: "المكان قريب جدا من هنا، لكن اسم النهج (وهو الشارع الصغير) ليس معروفا لسائقي الأجرة لأنه فرعي وصغير لذلك لا يعرفه إلا سعاة البريد الذين يحفظون خريطة المدينة بأزقتها وحتى أرقام منزلها، أما قاصد هذه المنطقة في سيارة الأجرة فإنه يطلب من

السائق عادة التوجه إلى "شارع بيروت" وهو الشارع الواقع مباشرة خلف المنزل الذي تقصده أنت".

لم تمض دقائق إلا ونحن أمام المنزل المقصود، ضغط السائق الجرس فكان الخارج لفتح الباب هو صديقي الذي سبقني بشهرين إلى تونس، والذي لم يستطع تصديق تلك المفاجأة السارة.

دخلنا المنزل فاستقبلني سكانه – الطلبة – (استقبال الأبطال)، كانت عقارب الساعة قد خلفت الساعة العاشرة مساء وراءها، لم أكد اعتدل في جلستي حتى مد إلي أحد الشباب كأسا من الشاي كان لحظتها يعْدُلُ بالنسبة لي الدنيا وما فيها.

بادر آخر إلى المطبخ ليعد وجبة عشاء فقلت: "إنني لا أريد من الدنيا بعد ذلك الكأس أكثر من أن أستغرق في النوم"، أنا لم أنم منذ يومين وقد بلغ مني الإرهاق والتعب والنعاس منتهاهما، لذلك فكل ما أريده هو مكان هادئ أستلقي فيه لأعطي جسدي المنهك بعضا من حقه في الراحة، الذي كان قد سُلبه لأكثر من يومين.

رغم كل التعب والإرهاق لم أتمكن ليلتها من النوم إلا قبيل الفجر، وهي عادة صاحبتني من حينها حيث كان الإرهاق الشديد يمنعني النوم بدل أن يدفعني إليه.

استيقظت متأخرا يوم الاثنين 29 من نوفمبر 1993م، لأبدأ سنوات من الغربة في تونس تخللتها الأفراح والأتراح والخيبة والنجاح، لكنها تكللت بالحصول على الشهادة الكبيرة كما يقول المصريون. ولعل الفرصة تأتي مستقبلا للكتابة عن تلك الأيام الراحلة من ربيع العمر، التي حولها الشعور الطبيعي بالحنين إلى الماضي إلى ذكريات جميلة حتى في أحلك مراحلها.

حدث معي في باريس

من بين زياراتي العديدة إلى "عاصمة النور" (باريس) هناك ثلاثة مواقف حدثت معي لا أنساها، وترجع أسباب اثنين من تلك المواقف التي تعرضت لها، إلى البداوة الفطرية التي عُجِنت شخصيا من طينتها، والتي لم تستطع سنين الغربة ولا التطواف حول العالم أن يغيِّرا منها شيئا، فالطبع أملك كما يقال.

الحادثة الأولى... في المطار بدون أوراق

في صيف 2004م أقلعت طائرة الخطوط الفرنسية منتصف الليل من مطار نواكشوط الدولي متوجهة إلى باريس لتحط في "مطار شارل ديغول" تمام السادسة فجرا.

لم تكن رحلات طيران الإمارات من دكار أو الدار البيضاء نحو دبي ولا رحلة الخطوط التونسية قد توفرت بعد.

كانت تلك المحطة معتادة لدى المسافرين إلى دبي عبر باريس حيث يمكثون في المطار سبع ساعات ليغادروه باتجاه دبي تمام الواحدة زوالا.

كنت معتادا أن آخذ من تلك الساعات السبع لنفسي وقتا مقتطعا أقوم من خلاله بجولة باريسية أتفقد خلالها بعض معالم "عاصمة النور"، أشتري بعض العطور والهدايا من المحلات المنتشرة على "الشانزليزيه".

رجعت من جولتي الباريسية قبيل الحادية عشر صباحا فأحسست برغبة عارمة في احتساء فنجان قهوة "لاتي" برشة من مسحوق الشوكولا، إنهم هنا يعدونها بطريقة احترافية توقع الزبون في فخ الإدمان دون أن يشعر.

كان الوقت صيفا، وكنت أرتدي "سروال جينز" وقميصا قصير الكم خاليا من أي جيوب، لذلك كنت أحمل في يدي حقيبة صغيرة أودعتها بعض الأغراض الخاصة كالجواز والتذكرة إضافة إلى قوارير عطر كنت اشتريتها من أحد المحلات الباريسية.

دفعت بالشنطة الصغيرة إلى إحدى المسافرات نحو دبي والتي كان اسمها "ربيعة" حسب سابق معرفتي بها.

ثم صعدت مع السلالم الكهربائية نحو المقهى وطلبت قهوتي وقنينة ماء وبدأت أرتشف على مهل حتى أعطي كل قطرة قهوة حقها من التذوق.

سرقني الوقت وأنا أتابع التلفزيون وأحتسي القهوة بطقوس تونسية (يعرفها من درس في تونس)..

عدت بعد أكثر من ساعة لأجد كل الركاب قد صعدوا إلى الطائرة بمن فيهم صاحبتنا "ربيعة"، التي لم تتردد في أخذ الحقيبة معها – عن حسن نية – خوفا عليها من الضياع.

وجدت نفسي واقفا بلا هوية في مطار دولة أوروبية، مع ما يعنيه ذلك من إثارة للشك والريبة لدى سلطات الدول الأوروبية.

إنها البداوة بعينها التي تجعل الشخص يدفع بكافة أوراقه الثبوتية لشخص آخر وينطلق تاركا كيانه الرسمي وراءه، في العالم المتحضر لا قيمة للشخص بدون أوراق، أنت بدون أوراق رسمية لا

تعدو أن تكون كومة من اللحم مثيرة للشك ومكانها الطبيعي هو الحجز حتى يتضح أمرها.

لا أحد هناك سيسألك عن قبيلتك أو أسرتك ليتعرف عليك من خلال بعض أفرادها، أنت محل اشتباه ومثار قلق حتى تفصح عن هويتك بالأوراق المدنية ولا شيء غير تلك الأوراق.

بعضهم يفعلها عمدا ويتلف أوراقه الثبوتية حال ما تطأ قدماه أرضا أوروبية ومن ثم يطلب اللجوء السياسي.

تقدمت بهدوء إلى موظف الخطوط الجوية وقلت له ما جرى بشأن الحقيبة فنظر إلى نظرة تحمل الكثير من الاستغراب، لكن بدا لي أنه لا يلغي – بالكامل – افتراض أن أكون صادقا، قال لي وهو منكب على شاشة جهازه:

– ما اسم المرأة التي تعتقد أنها أخذت معها أوراقك؟

قلت: – معتقدا أن الموضوع قد حل–:

- اسمها "ربيعة".

فألقى نظرة على لائحة المسافرين أمامه وقال:

– ليس بين ركاب هذه الطائرة من يحمل هذا الاسم.

فقلت له:

– كيف ذلك! أنا متأكد من الأمر؟

فقال لي:

– متأسف، لكن هذا الاسم ليس على هذه الطائرة.

وقبل أن يترك لي مجالا للاستغراب، أخذ جهاز اتصال كان قريبا منه وبدا أنه يستدعي أشخاصا لتوفير الدعم، فسلطة الرجل لا تتعدى الإذن بدخول الطائرة لمن يبرز جوازا وتذكرة صالحين للسفر.

ما هي إلا لحظة حتى حضر اثنان من أمن المطار فسرد عليهما موظف الخطوط القصة تاركا لهما سلطة القرار وتحديد الإجراء الملائم.

وقبل أن ينطق أحدهم بادرت بالقول وبراءة – تحمل الكثير من خرق قواعد إجراءات السفر –:

– خذاني إلى داخل الطائرة وسأثبت لكما أن المرأة موجودة على متنها.

نظر كل من الشرطيين إلى صاحبه، ودون الدخول في نقاش أمسك أحدهما بذراعي ودخل السرداب متوجها إلى الطائرة في حين كان الشرطي الآخر يتبعنا دخلنا الطائرة، وما هي إلا لحظات حتى رأيت صاحبتنا جالسة في مقعدها وممسكة الحقيبة بيدها.

قلت لها:

– "لقد كدت أن توقعيني في ورطة"..

فتح الشرطي الحقيبة واستخرج الجواز والتذكرة فتأكد من صحتهما وأخذني معه راجعا لأستكمل إجراءاتي.

عدت إلى الطائرة أسائل نفسي: "ماذا كان سيحدث لو أن الطائرة غادرت بأوراقي؟!". لقد أخذت من ذلك اليوم درسا أفادني فيما بعد كثيرا، بالمناسبة كانت "ربيعة" موجودة بالفعل على متن الطائرة لكن اسمها في الأوراق كان "مريم ابنة عمران".

الموقف الثاني... "خرق قانون العقوبات الفرنسي"

منتصف ديسمبر 2008م، كنا رفقة من أربعة أشخاص، أكملنا للتو مناسك الحج ويستعد كل منا للمغادرة إلى جهة معينة،

سيسافر أحدنا مباشرة عائدا إلى البلد عن طريق الخطوط الجوية التركية، أما الثاني فهو متوجه شرقا إلى الصين، بينما سأتوجه أنا وشقيقي الأكبر فجرا إلى العاصمة البلجيكية (بروكسيل) عن طريق باريس.

أقلعت بنا – من مطار جدة – فجرا طائرة الخطوط الجوية الفرنسية المتوجهة إلى باريس لتصل بعيد العاشرة صباحا.

نزلنا من الطائرة وبعد أن استلمنا الأمتعة أخبرني شقيقي أنه متوجه إلى مكتب الجمارك للتصريح بمبلغ من العملة الصعبة.

أعلم أن أخي مسافر كعادته إلى "بروكسيل" لشراء السيارات، لكنني كنت أعلم أنه لا يحمل النقود معه وإنما سيستلمها من أحد تجار العملات المقيمين في بلجيكا فور وصوله هناك بعد أن يكون التاجر استلم مقابل المبلغ من عملتنا المحلية (الأوقية).

كنت خلف أخي أدفع العربة التي تحمل أمتعتنا فلما رأيته دخل مكتب الجمارك وقفت في الخارج أنتظره.

كنت منكبا على هاتفي الذي بدأ توا يستقبل بعض الرسائل، ما يعني أنه التقط الشبكة المحلية، أردت إجراء اتصال هاتفي، لكن قبل أن أكمل إدخال الرقم أقبل شقيقي والقلق بادٍ على وجهه، سألته ما الأمر؟ قال: "لقد طلبتُ من الجمركية تسجيل مبلغ 200 ألف يورو لكنها – وبعد أن ختمت الأوراق – طلبت مني إحضار المبلغ لتعُده وتتأكد منه، إنها أول مرة يطلبون مني رؤية المبلغ المصرح به، كانوا دائما يسلمونني أوراق التصريح دون أي مراجعة أو تدقيق".

قلت له: "وبم أجبتها؟"، قال: "قلت لها إن الفلوس معك!!!"، قلت له – وأنا أضحك متفاجئا –: "معي أنا؟ أنا لا أحمل سوى

بطاقاتي الائتمانية وربما مبلغ 200 دولار نقدا لا أكثر"، قال لي: "كان لا بد أن أخبرها أي شيء حتى نتدبر الأمر"، قلت له: "لا تقلق، لنذهب إليها".

دخلنا المكتب فبادرتنا الجمركية قائلة: "السيد أمون – تقصد شقيقي– أين المبلغ؟".

كانت الجمركية امرأة في نهاية الأربعينات من عمرها نحيفة ونشيطة، من عرق فرنسي نقي، خمرية اللون، يبرز من جبينها عِرْقٌ نافر بلون أخضر، تشع عيناها الزرقاوان بذكاء واضح ويحمل وجهها المثلث الكثير من علامات الالتزام والتصميم والجدية في العمل.

فقلت لها بلباقة: "سيدتي، لقد حدث سوء تفاهم، فعلا كان أخي قد سلمني المبلغ وأنا في مطار جدة لكني ظننته يريد إرساله إلى بلدنا فسلمته لصديقنا الذي كان معنا في المطار والذي كان متوجها إلى بلادنا مباشرة وهذه صورة من تذكرته"، وسلمتها نسخة من التذكرة كانت معي.

رمقتني وهي تبتسم ابتسامة من لم يقتنع بما سمع وقالت: "يقول أخوك إنه متوجه إلى "بروكسيل" لشراء السيارات، فكيف تعيد نقوده بدل حملها معك؟!".

كنت كالتلميذ المذنب الذي يعنفه أستاذه ولا يجد عبارة يرد بها عن نفسه، قلت:

– صدقيني، أنا لست تاجرا ولا أفهم في التجارة، أنا رجل قانون.

هنا حدقت في كأنما أمسكت علي حجة إدانة دامغة وقالت:

– ما دمت رجل قانون فلا بد أنك تعرف أن ما قام به شقيقك يعتبر مخالفة صريحة للقوانين.. إن ما قام به شقيقك هو ما يعرف

في القانون ب"Une fausse declaration" (إبلاغ كاذب) يهدف من ورائه إلى الحصول على منفعة غير شرعية، ولا بد أنك تعرف أن هذا التصرف مجرم طبقا لأحكم المادة 426 من قانون الجمارك الفرنسي، إن ما قام به شقيقك قد يخضع لترتيبات الفقرة السابعة من المادة 441 من قانون العقوبات الفرنسي وهو ما يعرضه حينها للسجن 3 سنوات والتغريم بمبلغ 45,000 يورو، ما دمت رجل قانون فلا بد أنك تعرف كل ذلك.

قلت في نفسي وقد استشعرت خطر الموقف: "يبدو أنني تحدثت عن اختصاصي في الوقت الخطأ"، كان أخي يستمع إلى المحاضرة القانونية فالتفت إلي وعلى وجهه ابتسامة صفراء وقال: "الزايد واعر".

كنت أشعر وكأني محام فاشل ورط موكله المسكين، وبدل أن يخرجه من جنحة أدخله في جناية.

قلت لها:

– سيدتي بقدر ما أنا واثق من كل ما تقولين فإنني واثق من حسن نية شقيقي وأنه لم يتعمد الوقوع في جريمة الإبلاغ الكاذب مطلقا.

هنا تدخل شقيقي قائلا:

– لقد كنت متأكدا من أن النقود مع شقيقي وإلا فما وجه استفادتي من التصريح؟!

قالت الجمركية:

– هناك من يقومون بهذه الحركة ليتمكنوا من إجراء نوع من غسيل الأموال، فأنت بهذه الورقة تستطيع إيداع نفس المبلغ المصرح به أو أقل منه في أي حساب أوروبي بوثيقة التصريح،

وتستطيع إن شئت إخراجه من كافة المنافذ الفرنسية بشكل قانوني ودون أن يكلمك أحد على اعتبار أنك قدمت به معك، في حين أنك أتيت صفر اليدين إلى الأراضي الفرنسية، إنها طريقة سهلة ومعروفة لتبييض الأموال، ولولا أنني أعرف أن الموريتانيين في الغالب ليسوا طويلي باع في مجال تبييض الأموال لقلت إنك قمت بهذه الحركة عن عمد وسابق إصرار.

على كل حال، سيد أمون، سأسامحك هذه المرة وأرجو ألا تقع في نفس الخطأ مرة أخرى، لأنك حينها ستكون عرضة لتطبيق القانون.

قالت كلامها وهي تفرغ جزء من غضبها على تمزيق التصريح الذي كانت قد أعدته لأخي عن نقوده المفترضة.

شكرنا السيدة وخرجنا غير مصدقين الإفلات من العقاب، هنا سألت أخي: "ما كان غرضك من التصريح ما دمت لا تحمل نقودا؟"، فقال: "هو كما ذكرت الجمركية.. لكن بدون نية لتبييض الأموال طبعا"، قلت: "كيف؟".

قال: "أنا تعاملت – كالعادة – مع أحد تجار العملة في نواكشوط على أن يحول لي نفس المبلغ وسأستلمه من ممثله في "بروكسيل"، لكنني لست متأكدا من صرف المبلغ كله أو بعضه فذلك يعتمد على سوق السيارات، عندها سيكون بمقدوري أن أعود بالمبلغ كاملا أو ناقصا حسب مشترياتي ولن يكون هناك قلق من التفتيش فأنا أحمل وثيقة رسمية بإدخال المبلغ إلى التراب الأوروبي".

قلت له: "ولكن هذا يعتبر تحايلا"، فقال: "كلهم يفعلون نفس الشيء وأنا أقوم بهذه العملية منذ أكثر من 10 سنوات ولم يحدث

أن سألني جمركي، لكنها على ما أرجح ستكون أخر مرة"، قلت له وأنا أضحك: "أنا واثق من ذلك".

نزلنا إلى محطة ال TGV وقطعنا تذكرتين نحو "بروكسيل"، استمرت الرحلة حوالي ساعة ونصف حيث وصلنا محطة الشمال "La gare du nord bruxelles" قرابة الواحدة ظهرا، ومنها إلى المنزل الذي تعود أخي أن يتقاسمه مع بعض المقيمين في "بروكسيل" من العاملين في مجال تجارة السيارات.

وجدنا المنزل خاليا من ساكنته ذلك الوقت وهو الوضع المعتاد كما أخبرني شقيقي حيث أنهم يتفرقون طول النهار في أسواق السيارات ويعودون فرادى إلى المنزل بعيد المغرب حيث يتقاسمون العمل أيضا كل حسب اختصاصه.

أنزلنا الحقائب وتوجهنا إلى مطعم تركي غير بعيد فأخذنا وجبة غداء قوامها الكباب التركي بالسلطة إضافة إلى مشروبات غازية، وقد فاجأني السعر الرخيص للغداء في المطعم حيث لم يتجاوز ال 20 يورو لكلينا.

كان علي العودة إلى باريس التي سأسافر منها بعد المغرب إلى نواكشوط، عدنا إلى المنزل فأخذت غفوة قصيرة كنت بحاجة إليها وعلى تمام الرابعة مساء ودعت شقيقي وأخذت القطار من محطة الشمال عائدا إلى باريس.

الثامنة مساء كنت قد شحنت أغراضي واستلمت بطاقة صعود الطائرة وفيما أنا أداعب أزرار كمبيوتري المحمول سمعت رنة الإعلان التي تبعها نداء باسمي يطلب مني أن أتوجه فورا إلى مكتب الأمن والسلامة في المطار.

قلت في نفسي "لقد فعلها أخي ونجا بفعلته وسأدفع أنا الثمن، لا مجال للاختباء هنا، علي أن أتوجه إليهم فورا فلن أستطيع صعود الطائرة قبل أن يسمحوا لي بذلك فلأبادر لعلي أقنعهم ببراءتي قبل أن تقلع الطائرة".

توجهت إلى المكتب فدخلت وقلت: "لقد ناديتم باسمي فما الأمر؟"، قال رجل الأمن: "نعم أنت السيد أمون؟"، قلت: "نعم"، قال: "هل هذا الكرتون لك؟"، نظرت فعرفته، إنه الكرتون الذي أرسله معي رفيقنا الذي غادر نحو الصين، إنه يضم كمية من إبر الخياطة يصل وزنها 15 كيلوغراما، لقد كان صغير الحجم لكنه ثقيل، لقد كان كمكعب من الفولاذ.

قلت: "نعم إنه لي، هل من مشكلة؟" قال: "نعم عليك فتح الكرتون لنرى ما فيه، فقد وضع جهاز كشف المحتويات عليه علامة استفهام ويجب أن يتم تفتيشه"، قلت له: "وهل هذا سبب استدعائي؟"، قال: "نعم"، فقلت، وأنا أكاد أطير من الفرح بعدما عرفت أن المسألة لا تتعلق بالحبس أو الغرامة: "أجل على الرحب والسعة هو أمامك فتشه كما تشاء"، قال: "عليك أن تفتحه بنفسك"، فأخذت أمزق الشريط اللاصق الذي كان يغطى الكرتون بالكامل، حتى وصلت إلى محتواه الداخلي، فقال: "ما هذا؟"، قلت: "كما ترى إنها علب صغيرة تحوي إبر خياطة"، أدخل يده في الكرتون وأخرج بعض العلب حتى وصل إلى أسفله ثم أعادها وطلب مني إعادة ترتيبها واعتذر عن استدعائي قائلا: "لكنها إجراءات السلامة".

أعدت ترتيب الكرتونة التي تعهد أحد عمال المطار بإلحاقها بالأغراض المشحونة إلى نواكشوط وقفلت راجعا إلى قاعة المغادرة لأجد البوابة قد أغلقت.

يبدو أن الوصول إلى مكتب الأمن والسلامة وفتح الكرتون وتفتيشه ومن ثم إعادة تغليفه قد أخذ وقتا أطول مما كنت أتوقع.

راجعت مكتب الخطوط الجوية الفرنسية فأخبروني أنهم نادوا باسمي مرتين فلم أجب فقاموا بإنزال حقائبي من الرحلة واعتبروني غائبا، قلت لهم: "لقد كنت في مكتب أمن المطار بسبب اشتباه في إحدى حقائبي، هم من استدعوني بعدما كنت قد استلمت بطاقة الصعود".

أخذ الموظف بطاقة الصعود ورفع جهاز الإرسال وتكلم مع جهة لا أعرفها، بعد قليل قال لي: "فعلا يبدو أنك تأخرت بسبب إجراءات التفتيش الأمنية، لا مشكلة، سنجد طريقة لسفرك".

عاد إلى جهاز كومبيوتره فنقر على بعض الأزرار وقال: "لحسن الحظ أنك مسافر على درجة رجال الأعمال لذلك لم يكن إيجاد مقعد لك أمرا صعبا، لقد حجزت لك مقعدا في نفس الدرجة على متن الخطوط الجوية المغربية التي ستغادر خلال ساعة ونصف نحو الدار البيضاء ومن هناك خلال ساعتين ستغادر على نفس الخطوط نحو نواكشوط، سنتولى تغيير الملصقات على أغراضك ونرسلها إلى الوجهة النهائية، أتمنى لك سفرا سعيدا".

خلال ساعتين كنت – على متن طائرة الخطوط الجوية الملكية المغربية المتجهة جنوبا – أرتشف من كأس عصير قدمته إلي تلك المضيفة ذات الثغر الجميل الباسم، التي كان اسمها "عفراء"، سألتها إن كانت تعرف "عروة ابن حزام"، فأجابت بالنفي سائلة

"من هوا"، فقلت لها: "إنه أنا"، ابتسمت كأنها لم تصدق وانصرفت.

كنت أردد في ذهني قول عروة في محبوبته عفراء بنت مهاصر:

وإنّي لتعروني لذكراكِ رعـدةٌ
لها بين جسمي والعظامِ دبيبُ
وما هـوَ إلاّ أن أراهـا فجـاءة
فَـأُبْهَتُ حتى مَا أَكَادُ أُجِيبُ
وأُصرفُ عن رأيي الذي كنتُ أرتئي
وأَنْسى الذي حُدِّثْتُ ثُمَّ تَغِيبُ
وَيُظْـهِرُ قَـلْبِي عُـذْرَهَا وَيُعينها
علَيَّ فَمـا لِي فِي الفُؤاد نَصِيبُ
وقدْ علمتْ نفسي مكانَ شفائها
قَرِيباً وهل ما لا يُنَال قَرِيبُ.

بعد ربع ساعة عادت تبتسم حاملة منديلا حارا معطرا لترطيب الوجه، ناولتنيه وقالت: "إن اسمك حسب رقم الكرسي الذي تجلس عليه ليس ما ذكرت"، قلت لها وأنا أبتسم: "ذلك اسمي على الورق فقط أما الواقع فشيء آخر"، ابتسمت مرة أخرى قبل أن تختفي، تذكرت ونحن نهبط في مطار محمد الخامس بالدار البيضاء أن عروة ابن حزام مات ولم تكن عفراء من نصيبه.

وصلت نواكشوط متأخرا تلك الليلة فوجدت الصغيرتين عائشة وفاطمة ما زالتا مستيقظتين كأنما تودان سماع قصة ما.

الموقف الثالث... "عندما تركت ابنتي الرضيعة في سيارة أجرة وذهبت"

نهاية نوفمبر من عام 2009م.. كنا في تونس لإجراء بعض المراجعات العلاجية، أكملنا الفحوصات وبقيت لدينا أيام قبل موعد العودة فوجدتها فرصة سانحة للوفاء بعهد كنت قد قطعته لـ "إحداهن" بأن آخذها في رحلة إلى باريس.

كنا بصحبة البنيتين: عائشة وفاطمة، قطعنا التذاكر وحضرنا الحقائب استعدادا لرحلة الغد الصباحية.

أعلن من مطار تونس قرطاج عن إقلاع الرحلة رقم TU 716 المتوجهة إلى "مطار أورلي" بباريس، كان الانطلاق على تمام الساعة الثامنة صباحا والوصول عند الساعة العاشرة وعشرين دقيقة.

وصلنا المطار فأخذنا سيارة تاكسي إلى فندق Le Belmont Champs Elysées الواقع في 30 شارع Bassano القطاع 16 من باريس، الذي كنت حجزت فيه مسبقا،

يقع الفندق ضمن ما يعرف بـ "المثلث الذهبي" في بناية عتيقة من بنايات باريس القرن التاسع عشر على مسافة لا تزيد عن 400 متر من "برج إيفل".

كانت الساعة تقارب الحادية عشر والنصف صباحا، الصغيرتان تغالبان النوم لاستيقاظهما باكرا ذلك الصباح، قررنا منحهما ساعتين للراحة قبل أن ننزل لتناول الغداء والتجول في معالم المدينة.

أيقظنا الصغيرتين على تمام الواحدة والنصف ونزلنا إلى المطعم، كانت عائشة وهي الكبرى متحمسة للخروج بعد ما استعادت نشاطها بالكامل إثر تلك الغفوة، أما فاطمة التي لم تكمل حينها عامها الثاني فكانت ما تزال في حالة برزخية بين النوم واليقظة تغمض عينا وتفتح أخرى.

تناولنا الغداء وغادرنا الفندق، كان الجو في غاية الروعة ودرجة الحرارة في حدود العشرة مائوية، لو لم تكن الصغيرتان معنا لكان الجو مثاليا للمشي لكن وجود الصغيرتين حتّم أخذ سيارة أجرة للتنقل بين معالم قلب باريس.

أوقفت سيارة تاكسي وصعدنا، قلت للسائق أريدك أن تأخذنا إلى المعالم الشهيرة غير بعيد من "الشانزليزيه"، بالصدفة كان السائق شابا فرنسيا من أصل مغربي.. "أنتم من موريتانيا؟"، قالها باللهجة المغربية، قلت: "نعم، وأنت مغربي؟"، أجاب ضاحكا: "بالتأكيد".

كان لتحرك السيارة مفعول الهدهدة على الصغيرة فاطمة فراحت تغط في سبات عميق، تحركنا جنوبا عبر شارع Marceau باتجاه "قوس النصر"، حملتُ الصغيرة معي ونزلنا لنلتقط بعض الصور ثم عدنا إلى السيارة.

عبرنا منطقة حدائق "الشانزليزيه" الرائعة، ووصلنا "ساحة الكونكورد"، هنا اقترح علي السائق ترك الطفلة في السيارة بدل التجول بها نائمة في "ساحة الكونكورد" الطويلة العريضة.

كانت الفكرة ممتازة وتوفر مزيدا من الراحة للصغيرة ومن حرية الحركة بالنسبة لنا نحن.

أوصلنا السائق إلى مدخل الساحة حيث صف سيارته بشكل مؤقت لننطلق نحن عبر الساحة الجميلة الواسعة، كنت – من حين لآخر– ألقي نظرة من بعيد على السيارة فأراها متوقفة في مكانها.

كنا قد ابتعدنا عن السيارة بعد ما يقارب ربع الساعة من التجول هنا وهناك والتقاط الصور من مختلف الزوايا، انتابني قلق مفاجئ من ترك الصغيرة في سيارة لم أكلف نفسي حتى أن أسجل رقمها، التقطت عائشة فحملتها بين ذراعي وطلبت من أم البنتين أن تسرع الخطى لنعود إلى السيارة ولم أفصح لها عن سبب قلقي حتى لا أشغل بالها هي الأخرى وأفسد عليها متعة التجوال.

صار المكان الذي تركت السائق واقفا فيه مرئيا لكن السيارة ليست هناك، كدت أصاب بالهلع لكني كتمت مشاعر الخوف التي كانت شبه مفضوحة.

بدأت الهواجس تكبر والوساوس تتناسل حتى صرت على شفير الانفجار، سياط من لوم النفس وتأنيب الضمير تلسعني، كيف فرطت في الأمانة وتركت صغيرتي مع غريب لا أعرف له اسما ولا عنوانا؟ لابدَّ أنه زيَّنَ لي فكرة ترك الصغيرة في السيارة حتى يتسنى له اختطافها وأنا بكل بلاهة وبداوة أخذت فكرته بطيب نية وتركتها له.

أجل، أنا من شجعته على التفكير باختطاف الصغيرة بعدما تركتها بين يديه بغباء منقطع النظير، هل يعقل أن يترك أب ابنته التي لم تكمل عامين في سيارة أجرة بعاصمة دولة لا يعرف فيها أحدا!؟

ترى هل سيبيعها لتجار أعضاء البشر؟ أم أنها ستكون من نصيب أسرة عقيمة تتبناها وتربيها بالطريقة التي تريد؟ مسكينة أنت يا صغيرتي فاطمة، لابدَّ أنهم سيغيرون اسمك إلى "استيفاني" أو "جولييت"، إنها ما زالت صغيرة ويسهل تشكيلها كقالب المطاط الناعم حسب ما يريد من سيربيها، معنى ذلك أنها قد تتربى في حضن أسرة مسيحية أو حتى لا دينية، آه يا ابنتي!

ماذا سأقول لأمها الآن وقد اكتشفت مصدر قلقي رغم أني لم أكلمها بعد ولم أبح لها بشيء؟ كيف ستتقبل أن فلذة كبدها الصغيرة اختفت إلى غير رجعة؟! جاء السؤال الذي ما كنت أود أن أسمعه: "عبد الله، أين السيارة؟"، قلت وأنا مشيح بوجهي: "لا بدّ أن السائق غير موقف سيارته لسبب ما وسيعود حالا، لا تقلقي"، بقيت متسمرا حيث كانت السيارة واقفة، كنت ألتفت إلى كل اتجاه محاولا قدر جهدي أن أتماسك، آه لو عرفت المسكينة بالوساوس التي تنهبني وما وصلت إليه من استنتاجات وتخمينات إذا لأغمي عليها أو فقدت صوابها.

مرت دقائق كأنها دهر، وأنا ما زلت غير قادر على اتخاذ موقف معين أو التصرف تجاه ما يدور في عقلي.

قلت في نفسي "إن علي إبلاغ الشرطة أو الاتصال بجهة ما"، كنت مقتنعا بأن علي القيام بتصرف بدل الوقوف كالأبله في ذلك الحال الإسفلتي البارد.

كانت قدماي بالكاد تحملاني، أحسست للحظة أنني فقدت القدرة على التفكير بل على الرؤية، كان صدري ينتفض من قوة نبضات قلبي المتسارعة، تضرعت سرا إلى الله ألا يريني مكروها في صغيرتي فأنا غير قادر على مواجهة أمها بخبر كالذي يدور في عقلي

المتشائم، وأنا أقل قدرة على مواجهة والدتي بنفس الخبر إن تحقق لا قدر الله.

لم أنتبه – وأنا في تلك الدوامة الجحيمية – إلا والسائق يضغط على الفرامل أمام قدمي، كدتُ أسقط من شدة الفرح، قال لي: "أنا متأسف لقد توقعت أنكما ستأخذان وقتا أكثر ولم أرد أن أسدد رسوم الموقف فقمت بدورة حول الميدان ثم رأيتكما من بعيد فرجعت مباشرة".

فتحت باب السيارة قبل أن أرد عليه، كانت الصغيرة ما تزال محلقة مع عصافير الجنة في سابع نومة على المقاعد الخلفية، تلقفتها وضممتها إلى صدري متلمسا يديها وقدميها الصغيرتين كأنما لأتأكد أنها لم تفقد عضوا من أعضائها، شعرت الصغيرة بقوة الضمة ففتحت عينيها الصغيرتين كعيني أرنب بري وابتسمت في طمأنينة وراحة كاملة، لقد شبعت نوما وهي الآن مستعدة للسياحة والتقاط الصور بدورها".

مسحت دمعة فرت من عيني دون أن أترك أم العيال تراها فلا شيء يكسر المرأة أكثر من دموع الرجل.

أكملنا رحلتنا السياحية وعدنا إلى الفندق وكنت ما أزال في حالة لا أستطع التعبير عنها.. لكنني تعلمت درسا لن أنساه، وكما يقولون لا بدّ لتعلم الدرس من دفع ثمن، والحمد لله أن الثمن لم يكن أغلى من ذلك.

أذان في قلب الفاتكان

لم أكن بالتأكيد أول مسلم يدخل الفاتكان (فاتحا)، فعام 846م، وفي عهد الأمير زيادة الله بن إبراهيم، ثالث أمراء "دولة الأغالبة"، قام المسلمون بغزو كاسح للأراضي البابوية، وإثر وصولهم إلى مدينة روما، لم يقم المسلمون بمحاصرتها أو بمحاولة فتحها، حيث كانت أسلحتهم خفيفة، ولكنهم هاجموا الأحياء المحيطية بها ومن ضمنها حي (مدينة) الفاتيكان، والتي كانت تقع خارج "الجدار الأورليانى" آنذاك، كان من نتائج تلك الغزوة البحرية أن عاد المسلمون بغنائم هائلة من كنائس القديسين: "بطرس"، و"بولس"، ومن الفاتيكان نفسه.

كان ذلك في زمن الغزو والكر والفر المتبادل بين أساطيل جنوب البحر الأبيض المتوسط وشماله، إنه عهد تولى بفرض "القوى العظمى" سيطرتها على مياه البحار بما يتناسب وموازين القوى الجديدة التي ليس للمسلمين فيها كبير شأن.

جهزت حقيبتي وحجزت مقعدا على متن إحدى طائرات الخطوط الجوية الإيطالية المتوجهة من دبي إلى روما، كان ذلك عشية يوم من أيام شهر أكتوبر من سنة 2009م.

بحثت قبل السفر عن أقرب فندق إلى قلب مدينة الفاتكان ووقع اختياري على فندق (Vatican Garden Inn)، الذي لا تفصله عن أسوار المدينة أكثر من مائتي متر.

هبطت الطائرة قبيل صلاة المغرب في مطار (Leonardo da Vinci–Fiumicino) في روما بعد أن توقفت قبل ذلك مدة ساعة في "مطار ميلانو الدولي".

نزلت من الطائرة حيث كان الجو أقرب إلى البرودة فداعب وجهي نسيم يحمل رذاذا نديًّا من نهر "تيبر" أو "Tevere" بالإيطالية، ذلك النهر الذي ينبع من سلسلة "جبال توسكان"، ويتدفق جنوبا لمسافة 405 كلم، عابرا مدينة روما قبل أن يصب في البحر الأبيض المتوسط في منطقة "أوستيا"، إنه نفس النهر الذي ركبه "الأغالبة" ذات ضحوة جهاد بحري بعدما هزموا جيش حامية مدينة "أوستيا"، فانطلقوا يلتهمون مدن الجنوب الإيطالي بدءً من "برنديزي" ف"تارانتو" ف"كلابرية"، ثم استولوا على "نابولي" و"كابوا"، ليصل الأمر في عهد "محمد بن الأغلب" إلى حصار "روما" بجيش قوي كان سيحتلها لولا أن البابا "يوحنا الثامن" اضطر صاغرا أن يلتزم بدفع جزية مقدارها خمس وعشرون ألف (25000) مكيال من الفضة لجيش المسلمين، بعد أن تخلى عنه حلفاؤه في الدم والدين ومن بينهم إمبراطور بيزنطة وملك الفرنجة "الكارولنجيين" خوفا من صولة أسود البحر من المجاهدين المسلمين.

أخذت سيارة أجرة نحو الفندق الواقع في 201 شارع Germanico المتفرع من شارع Lungotevere المحاذي لنهر "التيبر".

وصلت إلى الفندق بعيد الثامنة مساءً، كان عبارة عن بناية من أربعة طوابق عمرها يزيد على 200 سنة، تلقفتني موظفة الاستقبال بابتسامة عريضة، كانت امرأة ستينية حسب ما خمنت،

لكنها كانت تتحرك بنشاط كما لو كانت في عمر الثلاثين، استلمت المفتاح الفولاذي القديم الذي تتدلي منه كتلة نحاسية أسطوانية الشكل تشبه (حجر الخمسين غرام) في بعض الموازين التقليدية.

قالت لي: "إذا فتحت الباب ستجد عن يمينك مكعبا مثبتا في الجدار، ضع كتلة النحاس هذه في التجويف الموجود في المكعب وستجد أن الكهرباء اتصلت بالغرفة"، كانت تقنية توصيل الكهرباء تلك تتناسب مع عمر البناية، ومن يدري، ربما قصدوا الإبقاء على تلك الطريقة اليدوية شبه البدائية ليجعلوا النزيل يعيش لحظات من الماضي بدلا عن تقنيات الحاضر، التي تعتمد نظام البطاقات الممغنطة في خدمات الغرف.

دخلت الغرفة وتحللت من ملابس السفر غير المريحة ثم نزلت إلى المطعم، كانت لائحة الطعام مكتوبة بالإيطالية، لم أجد صعوبة في تمييز "البيزا" الإيطالية الغنية عن التعريف، وهروبا من شبهة الحلال والحرام اخترت "بيزا" بالخضار المشوية أو (Pizza con verdure grigliate)، كما كانت مكتوبة في لائحة الطعام على ما أذكر.

عدت إلى غرفتي وفتحت التلفزيون، فكانت كل القنوات تقريبا ناطقة بالإيطالية، فبدأت رحلة صراع مع النوم.

نسيت ما مر علي ليلة البارحة، تناولت الإفطار باكرا وتوجهت إلى "دولة مدينة الفاتكان" أو (Stato della Città del Vaticano) كما تسمى بالإيطالية.

إنها أصغر دولة من حيث المساحة (0.44 كم مربع)، ومن حيث عدد السكان (940 نسمة)، إلا أنها رغم ذلك تعتبر مركز القيادة الروحية للكنيسة الكاثوليكية في العالم، والتي يربو عدد

أتباعها على 1.147 مليار نسمة، كما أنها تحتفظ في متاحفها وأرشيفها مجموعة من أرقى التحف الفنية التي أنتجها الجنس البشري على مر العصور.

كانت الشمس ما تزال نائمة في حضن الأفق، وكان الجو باردا والشارع ما يزال شبه خال من المارة، قصدت مدخل "قوس الجرس" (Arco delle campane)، الذي كان أقرب المداخل الثلاثة المفتوحة للعموم في "مدينة الفاتيكان" (الدولة)، كانت البوابة عبارة عن قوس هائل من الرخام الأبيض مفتوح في السور العالي الذي يحيط بالمدينة، ليس للقوس باب يفتح أو يغلق وإنما هناك حارسان يجلس كل منهما في طرف من المدخل، لاحظت من خلال جلستهما المريحة أنهما يمثلان نوعا من الديكور لا غير، وأن لا علاقة لهما بالداخل أو الخارج من المكان، لوحت لأحدهما بالتحية فرد على الإشارة بمثلها، كنت بتجاوزي للبوابة قد وضعت قدمي في "ميدان البابا بيوس الثاني عشر".

كان المكان صامتا وهادئا حدَّ الرهبة، تابعت خطواتي حتى وصلت نقطة شعاع تلك الدائرة العملاقة المرصوفة ببلاط غرانيتي أسود، هنا "ساحة القديس بطرس"، التي صممها المهندس المعماري "برنيني" واستمر العمل بها إحدى عشرة سنة من عام 1656م وحتى 1667م.. وسط الساحة تقف المسلة التي جلبها الإمبراطور "كاليغولا" من مصر منتصبة على ظهور أربعة أسود برونزية، وعن يمينها ويسارها نافورتا "ماردينو" و"فونتانا" ويعلوها صليب يحتوي ذخائر من الصليب الحقيقي وفق الزعم المسيحي.

أجلت بصري في المكان فلم تقع عيناي على أي بشر، فوق الأسوار كانت تنتصب 96 تمثالاً يفترض حسب مصممها "جان لورينزو برنيني" أنها لقديسين وملائكة يحرسون المكان ويمنحونه السكينة والبركة، أرجعت البصر كرة أخرى إلى تلك التماثيل العارية فإذا بها جميعا تحدق في وكأنما تتهامس متسائلة عن ماذا يريد هذا المسلم البدوي في الحاضرة البابوية؟..

هناك نحو اليمين يتربع "القصر الرسولي"، وفي منتصف نصف دائرة الأسوار العالية تتوسط "كاتدرائية القديس بطرس" كأنها لؤلؤة في صدر تاج ملكي.

سبحان مغير الأحوال، هذا المكان المعتبر حاليا أقدس بقعة لدى الغرب، ويقصده ملايين الناس للتبرك ونيل السلام، هذا المكان يقع على نفس الهضبة التي بنى عليها الإمبراطور "كاليكولا" مبنى "مسرح الكولوسيوم" في القرن الميلادي الأول حيث كان أتباع يسوع المسيح يعذبون ويصلبون حتى الموت في ساحة المسرح ضمن حفلات سادية، يحضرها الكثير من الناس وعلى رأسهم الإمبراطور وبقية النبلاء والقادة، ما تزال لوحة "الصلاة الأخيرة"، التي رسمها "جان ليون جيروم" سنة 1834م، خير شاهد على تلك الحقبة.

ما يزال المكان خاليا، فقط أنا والتماثيل من يمثل الأرواح في تلك الصبيحة الباردة، قلت في نفسي "هذه فرصتي لأصلي ركعتين ولأرفع الأذان في هذا المكان الذي لم يؤذن فيه من قبل حسب علمي، فتشهد لي كل تلك التماثيل والأعمدة والجدران".

لكن هل من الحكمة أن أغامر بخطوة كهذه في قلب عاصمة الديانة المسيحية، ثم هل يجوز أصلا أن أصلي في مكان عبادة غير

المسلمين، تذكرت أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما استلم مفاتيح القدس من "البطريارك صفرونيوس" وحان وقت الصلاة رفض أن يصلي في الكنيسة رغم أن الرهبان عرضوا عليه استخدامها للصلاة، وحتى لو جاز الأمر شرعا أليس فيه مخاطرة قد تؤدي بي إلى أحد سجون روما؟..

صرفت النظر عن الصلاة لكني لم أقاوم رغبة تجتاحني برفع الأذان في ذلك المكان الذي لم يسمع باسم النبي محمد صلى الله عليه وسلم ولم يتردد فيه لفظ الجلالة إلا مقرونا "بالابن والروح القدس" تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

قلت "إذًا أرفع عقيرتي بالأذان حتى أسمع رجع صداه من جنبات المكان"، لكن صوت العقل خاطبني قائلا "إن تصرفا متهورا كهذا سيوقظ سكان دولة الفاتكان بأكملهم ولو تغاضوا عن محاسبتي بتهمة التجديف والإساءة إلى مقدساتهم فلن يتغاضوا عن تهمة إزعاج النائمين بسلام من الكرادلة والشمامسة والكهنة والرهبان".

بدأت أداء الأذان بخشوع قدر المستطاع، لم أتجاوز بصوتي حد الجهر في الصلاة عند المالكية، (وجهر أقله أن يسمع نفسه ومن يليه) كما قال خليل، ثم إن رفع الصوت بالأذان لا يشترط أصلا لمن يؤذن لنفسه فقط ولا يرجو حضور جماعة، نعم ذاك رأي الشافعية وهو الأصوب لي حاليا.

شعرت، وأنا أردد الشهادتين، أن روح المكان، المشحونة بـ"عقيدة الثالوث"، كانت تقول لي "لقد صدقت ولكن سكان المكان لا يعلمون"، لم تفلح قرون من ترديد المعتقدات المغلوطة في تهجين ذاكرة المكان المسكونة بعقيدة الفطرة، حتى الحجارة

الصمَّاء لن تقتنع بأن ثلاثة تساوي واحد، يحدث ذلك فقط في العروض الترويجية على البضائع الكاسدة.

ما زال المكان فارغا إلا من هذا البدوي العابر، حتى طائر "العكلي" جد حمامة سلام "البابا افرنسيس"، التي سيمزقها الغراب أمام الملأ بعد ذلك بسنين، كان ما يزال جاثما في برجه مبلل الجناحين من طل ذلك الصباح الندي.

كان لا بدَّ أن أخلّد تلك الوقفة بصورة تذكارية فانتظرت لعل زائرا يَمرُّ، بعد هنيهة تراءى لي أحدهم قادما من جهة مدخل "متاحف الفاتيكان" في الجدار الشمالي، انتظرت حتى يصله مدى صوتي ثمَّ حييته طالبا منه أن يلتقط لي بعض الصور.

وأنا أستعد لرحلة أخرى بعد ساعات قليلة. ومع الضوء الخاطف لفلاش مصورة الهاتف فكرت أنني بهذه الصورة أخلد مروري من هذه البقعة غير المباركة التي طالما أُشرك فيها بالله، تذكرت هواجسي ليلة البارحة حينما استجديت النوم فتمنع وهرب كما تهرب الغزالة من أسد جائع، تذكرت ذلك القلق غير المعلل الذي تسلل إلى نفسي فحاولت طرده بشتى الوسائل، لقد استخدمت البارحة كل تقنيات "دونالد هربربت" في العلاج السلوكي المعرفي، لكنها لم تفلح، أنا ذو تاريخ قديم مع "الحموضة" ومن المتيقنين بأن المعدة بيت الداء وشر وعاء يملأه المرء، فنحيت باللائمة على قطع "البدزا" وحملتها مسؤولية ما مر علي من شعور غير مريح، تذكرت كيف بدأت مخاوف من نوع آخر تهاجمني، ألح علي حينها سؤال يقول: "لم أنت في دار (الكافرين) هذه، لا بد أن أقدامك حملتك إلى قدرك المحتوم

لتموت بجوار الضالين عبدة الثالوث"، أحسست بشيء يصعب تفسيره لكنه كان أبعد ما يكون عن الشعور بالراحة أو الاسترخاء.

تذكرت أخيرا كيف نهضت من السرير واستعذت بالله من الشيطان الرجيم، توضأت وصليت ركعات ناجيت خلالها من كان يرى حالي، ثم عدت إلى السرير فبدأت السكينة تتسلل إلى نفسي رويدا رويدا ولم أنتبه إلا على صوت منبه صلاة الفجر.

يَوْمَ أصْبَحْتُ مليونيرًا

كانت تلك أولى رحلاتي خارج النطاق الجغرافي للمغرب العربي، سألت موظفة الخطوط عن رحلة متوجهة من تونس إلى دبي، داعبت أزرار لوحة المفاتيح وقالت: "هناك رحلة إلى دبي عبر الخطوط التركية لكنك ستمضي أكثر من 36 ساعة في اسطنبول"، قلت في نفسي "تلك بغيتي" وكدت أطير من الفرح، كنت حينها شابا يافعا أحب السفر وأعشق المغامرة، سألتها: "وهل سيكون الفندق على حساب شركة الطيران؟"، قالت: "ستبيت في الفندق على حساب الناقل لكنك ستتولى أمر نفسك ابتداء من الساعة الثانية عشر ظهرا".

تفقدت الميزانية فاكتشفت أن الباقي، بعد ثمن التذكرة وترتيبات ما قبل الرحلة، لن يكون كثيرا، لكن فكرة زيارة معالم "الدولة العثمانية" كانت قد سيطرت على تفكيري، قلت لها: "حسنا أريد تذكرة في تلك الرحلة"، وعدت إلى البيت في "حي المنزه السادس"، كانت الرحلة بعد أسبوع تقريبا، فتوجهت اليوم الموالي إلى السفارة التركية وقدمت لتأشيرة عبور واستلمتها بعد يومين، رتبت حقيبة سفري وودعت زملائي.

صبيحة السادس من يوليو عام 2000م أقلعت بنا الطائرة من "مطار تونس قرطاج" متوجهة إلى اسطنبول لتهبط قبيل الساعة الحادية عشر ضحى في "مطار أتاتورك الدولي".

كنت قد تعلمت قبل ذلك أن أكبر عائق للمسافر هو المتاع، لذلك لم أكن مصحوبا بغير حقيبة ظهري التي لا تحوي كبير قيمة.

نزلت من الطائرة لأضع قدمي لأول مرة على أرض غير إفريقية، إنها مدينة القسطنطينية وقبل ذلك بيزنطة بكل ما تحمله الكلمتان من عبق التاريخين الروماني والإغريقي.

دلفت إلى المطار وعبرت من منفذ شرطة الدخول، وجدت نفسي في بهو الاستقبال الواسع، كان علي أن أتوجه إلى مكتب العبور ليتم توصيلي إلى الفندق.

غير بعيد مني كانت تقف مجندة شقراء زرقاء العينين تحمل سلاحا آليا، تقدمت نحوها وسألتها بالإنجليزية عن مكتب العبور، فابتسمت وردت علي بلغة تركية عرفت من خلالها أنها لم تفهم سؤالي، شجعتني ابتسامتها على إطالة أمد الحديث فكررت ما قلت لكن هذه المرة باللغة الفرنسية، خفت حدة ابتسامة المجندة واكتفت بهز رأسها نافية أن تكون قد فهمت شيئا مما أرطن به، كنت – استلطافا للحديث – قد عزمت على طرح نفس السؤال باللغة "الولفية" غير أن ملامح المجندة بعد سؤالي الثاني كانت تحمل تعبيرا لا يشجع على مواصلة الحديث.

تابعت خطواتي باحثا عن نقطة استعلام ليقع نظري فجأة على تجمع من المسافرين يقفون أمام مكتب تعلوه لوحة كتب عليها "Transit travelers" (المسافرون العابرون).

أخذت مكاني بين المسافرين إلى أن وصلت إلى أحد الموظفين، الذي سلم أوراقي إلى موظف من الخطوط الجوية التركية على ما أعتقد، وبعد نصف ساعة تقريبا سلمني الجواز وورقة حجز الفندق وطلب مني الانتظار مع آخرين ريثما يصل باص الفندق.

تفقدت الميزانية التي استقرت بعد أخر عملية صرف على ثلاثين دولارا فقط، أخرجتها من جيبي وتوجهت إلى مكتب للصرف

ووضعت المبلغ على استحياء أمام الموظف الذي كان رجلا خمسينيا أقرب إلى النحافة حليق اللحية ذا شنب كثيف معقوف الأطراف، يرتدي قميصا بمربعات صفراء ورمادية ويثبت بنطاله بحمالتي أكتاف.

طلب مني الرجل الجواز والتذكرة فسلمته إياهما قائلا في نفسي "وهل يتطلب صرف مبلغ زهيد كهذا أوراقا رسمية؟"، بعد لحظة سلمني عدة أوراق نقدية وقطعا معدنية وقال كلاما بلغته التركية لم أفهم منه حرفا واحدا، دسست المبلغ في جيبي وغادرت.

بعد نصف ساعة تقريبا كان الباص متجها إلى قلب المدينة عبر شارع الاستقلال لنصل – قبيل الظهر– إلى "فندق خيري باشا" ذي الثلاث نجوم.

المفاجأة الكبرى

صعدت إلى غرفتي وأخذت حماما دافئا، وعلى السرير المريح تذكرت الميزانية التي تحولت إلى عملة أخرى فدفعني الفضول لأستكشف شكل وألوان العملة التركية، فأخرجت المبلغ من جيبي لتكون المفاجأة الصاعقة!

لا بد أن الصراف أخطأ في المبلغ الذي دفع لي، تفحصت المبلغ وأنا في ذهول تام، ما هذه الأرقام المهولة! كنت قد مررت في دروس الاقتصاد أيام الجامعة على مفاهيم مثل التضخم وغيرها من أمراض الاقتصاد لكن شيئا بداخلي رفض أن يصدق أن عملة دولة تركيا (العظيمة) قد تكون أضعف من عملة بلدي "الأوقية"،

وحتى إذا تضخمت العملة التركية فلن تنزل قيمة وحدتها النقدية عن الفرنك الغرب إفريقي.

كل المقارنات المنطقية وغير المنطقية التي خطرت ببالي انتهت إلى نتيجة مفادها أن بين يدي مبلغا مهولا وأنني وضعت قدمي في نادي المليونيرات، لقد كان المبلغ تحديدا 18,400,000 (ثمانية عشر مليونا وأربع مائة ألف ليرة)! يا إلهي لقد أصبحت مليونيرا بشكل مفاجئ وفي طرفة عين، تفحصت المبلغ مرة أخرى بكل ثقة.. كانت خمسة أوراق نقدية إحداها من فئة 10,000,000 وواحدة من فئة 5,000,000 وثلاث ورقات كل منها من فئة 1,000,000 وأربع قطع نقدية تحمل كل منها رمز 100,000 ليرة.

فجأة قفز إلى ذهني سؤال "ولكن كيف؟ هل معنى ما حدث أن الصراف المسكين أخطأ في حساباته أو أنه أعطاني مبلغا كان من المفترض أن يعطيه لغيري"، قال شيء بداخلي "إن علي أن أراجع الصراف حتى لا أتسبب في خراب بيته وضياع مستقبله"، لكن النفس الأمارة أكدت أن الأمر لا يعدو أن يكون رزقا ساقه الله إلي، لكنني قررت بعد صراع النفس الأمارة مع اللوامة أن لا أتصرف في المبلغ حتى أستبين الأمر.

تأكدت حينها أن عرقا في ضميري ما زال ينبض، وأن سنوات الدراسة العجاف في تونس وما صاحبها من شظف العيش بفعل مبلغ المنحة الزهيد لم تجهز على بقية أمانة وشيء من التقوى بقيا قابعين في قاع نفسي رغم ما مر على الطلاب في تلك السنوات من سغب يجعل الورع يستحل الميتة ولحم الخنزير.

لكن الحلم لم يطل كثيرا حين تذكرت أن بإمكاني معرفة الحقيقة من خلال استعلامات الفندق، أخذت الهاتف واتصلت:

"لو سمحتم، ما هو سعر صرف الدولار مقابل الليرة؟"، فرد صوت على الطرف الثاني من الهاتف "الدولار الواحد يساوي ستمائة ألف و...". لما سمعت ستمائة ألف لم أهتم بالكسور المتبقية، ليتني ما سألت، لمَ لمْ أطل مدة الحلم قليلا؟ كان وقع الجواب علي صادما، أحسست كأن أحدهم صب دلوًا من الماء المثلج على ظهري، الآن عرفت أن الصراف لم يخطئ، بل أنا من لعبت غريزة الطمع بعقله، تذكرت تنبيه موظفة الخطوط الجوية في تونس لي بأن علي الاعتماد على نفسي بعد ظهر الغد، دفعني ذلك إلى دراسة الميزانية من جديد، نزلت إلى الاستقبال وسألت عن مواعيد الطعام ووقت المغادرة والتوصيل إلى المطار وكان الأخير هو الأهم عندي حيث لا أعرف كم سيكلف إن كان على حسابي في ظل الميزانية العاجزة أصلا، رد موظف الاستقبال بأن سيارة الفندق تغادر نحو المطار على تمام الساعة الحادية عشر صباحا وأنهم غير مسؤولين عن نقل من تأخر عن ذلك الوقت، لكن طائرتي تغادر مساء ولا أريد أن أظل عشر ساعات حبيسا بين قاعات المطار، والأهم من ذلك أنني أريد استكشاف المدينة العريقة فربما لا أجد فرصة أخرى في المدى المنظور، سألت الموظف كم تكلف سيارة الأجرة نحو المطار فأجاب: "ستكلفك ما بين أربعة وخمسة ملايين ليرة".

تذكرت أسعار سيارات الأجرة في نواكشوط وكيف أنها لا تتعدى ألف أوقية من أقصى طرف في المدينة إلى أقصى طرفها الآخر، وحتى في تونس فإن أجرة السيارة نحو المطار لا تزيد عن خمسة دنانير من أقصى نقطة من العاصمة.

إذًا فيجب حجز ربع الميزانية على الأقل لسيارة الأجرة.. وماذا عن الأكل والشرب والسياحة، ألا يفترض أنني سائح؟

تقع قاعة الطعام بالفندق في طابقه العلوي، حيث يتوفر للنزيل منظر بانورامي للمدينة القديمة، تناولت الغداء وعدت إلى غرفتي على أمل القيام بجولة مسائية على البحر الذي لم يكن يبعد عن الفندق أكثر من مائتي متر.

قمت بجولة مسائية على ضفة "بحر مرمرة" تنشقت خلالها عبير الفتوحات والفاتحين..

استحضرت شريطا من تاريخ تلك القلاع التي ظل ولاة أمور المسلمين وقادتهم يحاولون فتحها أملا في الفوز بالتزكية التي أقرها الرسول الخاتم لذلك الجيش وقائده، تلك الجائزة التي ظلت معلقة قرابة تسعمائة سنة حتى حظي بشرف نيلها السُلطان الشّاب ذو الواحد والعشرين ربيعًا، مُحمَّد الثاني بن مُراد العُثماني، ضدَّ حلفٍ مكون من "البيزنطيين" و"البنادقة" و"الجنويين" بقيادة "قيصر الروم" (الإمبراطور قسطنطين پاليولوگ الحادي عشر).. بعد حصار دام من يوم الجُمعة 5 نيسان (أبريل) حتى 29 أيَّار (مايو) سنة 1453م، حينما انهارت دفاعات جيش الروم ووقعت المدينة لُقمةً سائغة بيد "العُثمانيين".

لقد كدت – تفاعلا مع التاريخ – أن أشم رائحة بارود مدافع "العثمانيين" العملاقة، التي ظلت على مدى شهرين تقذف أسوار القسطنطينية بالنار والحديد.، من تلك الضفة الأخرى للمدينة صدحت الحناجر بالتكبير والتهليل وغصت الآفاق بدوي المدافع وحجبت النبال ضوء الشمس.

كانت أياما لبى الناس فيها نداء "حي على الفلاح والجهاد" فسارت سفن الفاتحين على اليابسة عابرة الجبال والهضاب، ليشهد التاريخ أن الرحلة البرية الوحيدة للسفن كانت بسواعد جند سلطان البرين وخاقان البحرين أبي البركات محمد الثاني الفاتح خان، وليكتب الدهر أن من تقنيات واختراعات المسلمين العسكرية ما أذهل العالم وغير مجرى التاريخ.

تخيلت شعور الإمبراطور الروماني المتعجرف "قسطنطين" وهو يموت حسرة بعد أن عجز أن ينجب من زيجتيه لينقطع نسله تماما كما انقطع معه حكم "البيزنطيين" للقسطنطينية إلى الأبد.. إنه اليوم الذي انتهت فيه "العصور الأوروبية الوسطى" ودخلنا في العصور الحديثة، كما يقول الباحث جمال الدين فالح الكيالي، حيث تحولت "عاصمة بيزنطة" إلى مدينة إسلامية شكلت أكبر خطر على أوروبا طول الفترة اللاحقة.

كنت أراقب منظر الغروب من على جسر السلطان محمد الفاتح، فتشكل في ذهني ربط بين الحاضر والماضي، تماما كما يربط ذلك الجسر المهيب بين شطري المدينة الآسيوي والأوروبي، قلت في نفسي لو قُسِّمَ جسر بهذا الطول على نقاط الازدحام في نواكشوط لحلت الكثير من المشاكل.

عدت قبيل العشاء إلى الفندق، تناولت العشاء وخلدت إلى النوم على أمل القيام برحلة سياحية صباح اليوم الموالي.

في الصباح تناولت فطوري ووضعت حقيبتي على ظهري وخرجت من الفندق، بادرت بشراء مصورة من تلك التي تستخدم مرة واحدة، ولأن الميزانية لم تكن تسمح بالسياحة في شطري

المدينة فقد اكتفيت بالتنقل عبر الشطر الأوروبي مركزا على المتحف المفتوح في الهواء الطلق والمتمثل في "منطقة الفاتح".

في رحاب جامع السليمانية

تقع منطقة السليمانية في الجنوب الشرقي من الشطر الأوروبي لمدينة اسطنبول، وقد اكتسبت اسمها من السلطان "سليمان القانوني"، الذي شهدت في عهده ازدهارا عمرانيا غير مسبوق، وتعتبر المنطقة قلب ما كان يعرف بالقسطنطينية "عاصمة بيزنطة"..

ويبقى "المسجد السليماني"، الذي بني على ربوة مرتفعة تطل على مضيق البوسفور وخليج القرن الذهبي، يبقى أعظم إنجار معماري شهده ما سمي لاحقا بـ"العصر الكلاسيكي للعمارة العثمانية"، ذلك المسجد الذي وضع "سليمان القانوني" حجره الأساس عام 1550م ليكتمل بناءه عام 1557م مستغرقا سبع سنين من جهد المهندس العمراني العثماني "سنان باشا".

ذكرني رجع صدى أذان صلاة الظهر في المسجد بقصة حساد المهندس سنان الذين وشوا به لدى السلطان سليمان، فلأن كل الناجحين محسودون، ولأن المهندس سنان كان يتربع على قمة هرم المهندسين والبناة في عصره، فقد توجهت بوصلة أعداء النجاح نحوه فاتهموه عند السلطان بشرب النرجيلة داخل الجامع ،فغضب السلطان وتوجه فورا إلى الجامع ليسمع قرقرة ماء النرجيلة مترددا في زوايا المسجد كلها، لكن لم تكن هناك نار ولا دخان ليكشف له المهندس عن آخر صيحة في مجال تكبير

الصوت وتوزيعه في جنبات المسجد، لقد صمم المهندس نظاما يعكس صدى الأصوات داخل المسجد قام على وضع مكعبات مفرغة من الداخل حول محيط القبة وبنقاط مختلفة تتوزع داخل الجامع.

يبهرك المسجد بمآذنه الأربع التي ترمز إلى ترتيب السلطان سليمان كرابع سلاطين الإمبراطورية منذ أن فتحت "القسطنطينية"، أما شرفات المآذن العشر فترمز إلى ترتيب السلطان ضمن من حكموا "الدولة العثمانية" منذ انتشائها.

أما التصميم الداخلي لـ"جامع السليمانية" فقد أبدعت فيه أنامل الخطاطين والنقاشين ومحترفي فنّ الزخرفة، وقد أضفي عدم التكلف الكبير في الزخارف مع إتقانها في ذات الوقت جمالا ساحرا على المسجد من الداخل، لقد زينت جدران بهو المسجد بنقوش لآيات قرآنية متفرقة وبعض من قصار السور، أما جدران القبة من الداخل فلا تخطئ العين آيات من "سورة النور" كتبت عليها بأحرف كبيرة تسهل قراءتها حتى من بعيد، وقد تم كل ذلك على يد الخطاط البارع "حسن جلبي" تلميذ الخطاط المشهور "أحمد كار احصار".

أما جدران الجامع فقد زينت برخام إزنيك المزخرف، وزجاجه المنمنم بزخارف فنية بديعة نفذها الحرفي المشهور "صارهوش إبراهيم".

ووفاءً للسلطان، ولمن نفذ مشروع البناء، شيد العثمانيون في الحديقة الخلفية للمسجد أضرحة مثلت مقبرة للسلطان "سليمان الأول" وزوجته "روكسيلانا" وابنته "ميهريما" وأمه "ديلشوب

صليحة" وشقيقته "عسيية"، فضلا عن المقبرة التي دفن بها كل من السلطانين "سليمان الثاني" و"أحمد الثاني".

خارج جدران المسجد، إلى الشمال يوجد قبر "المهندس سنان"، الذي يعتبر أعظم مهندس في "الفترة الكلاسيكية من العمارة العثمانية"، والذي توفي عن عمر ناهز 98 عامًا، بنى خلاله 131 مسجدًا و200 مبنى آخر.

وإذا كان "جامع السليمانية" يمثل تحفة معمارية عجيبة، فإن "منطقة الفاتح" تزخر بمزارات سياحية أخرى هامة أبرزها "البازار الكبير" و"بازار التوابل" و"السوق المصري" و"مسجد رستم باشا" و"المسجد الجديد"، كما يمكن الوصول سيرا على الأقدام لمن هم مثلى حينها إلى "قصر توبكابي"، و"المسجد الأزرق"، ومسجد ومتحف "آيا صوفيا".

ذلك بالفعل ما قمت به حيث توجهت جنوبا إلى "مسجد السلطان أحمد" أو "المسجد الأزرق"، والذي يبعد مسافة 2500 متر من "جامع السليمانية".

إلى المسجد الأزرق ومتحف آيا صوفيا

في الطريق أزكمت أنفي رائحة الشواء المتبل المنبعثة من مدخنة أحد المطاعم التركية المنتشرة، دخلت بعد أن عرفت من خلال لوحة خارجية بارزة أن أسعار الوجبات في متناول المليونيرات ممن هم على شاكلتي، لقد كانت أسعار وجبات الغداء تتراوح بين أربعة وخمسة ملايين ليرة.

قدم إلي النادل لائحة الوجبات التي كانت صورها كافية لفتح شهية الشبعان أحرى المراهق الذي يتسكع منذ الصباح.

وقع اختياري على وجبة كباب تركي ذائع الصيت يسمونها "إسكندر كباب"، وهي من أشهر الأكلات التركية وخاصة في الشمال الغربي، وتعود تسميتها إلى "إسكندر أفندي"، الذي أقام في تركيا خلال القرن التاسع عشر الميلادي، وقد أصبحت تراثًا وإرثًا لأحفاد إسكندر في تركيا حتى اليوم.

تتكون الوجبة من شرائح اللحم المغموسة في صلصة الطماطم، مع قطع من الخبز، كما يُصَبُّ في طرف الطبق القليل من اللبن وشرائح من الطماطم والفلفل الأخضر، وتسكب الزبدة الساخنة على الطبق بينما أنت جالس على مائدة الطعام حسب الرغبة، لقد كنت بالفعل بحاجة إلى وجبة كتلك تعينني على سياحة الأثرياء من أمثالي.

واصلت السير على أديم تلك الأرض التي أنهكتها سنابك خيول الفاتحين فوصلت قبيل العصر إلى منطقة المسجد الأزرق المحاذي لمسجد ومتحف آيا صوفيا.

هناك تشابه بيّن من الناحية المعمارية بين "جامع السليمانية" و"المسجد الأزرق"، الذي بناه السلطان العثماني "أحمد الأول" بين عامي 1609– 1616م بإشراف "المهندس محمد آغا" أحد تلامذة المعماري الشهير "سنان" وقد حمل المسجد اسم السلطان مترادفا مع اسمه الآخر "المسجد الأزرق".

لم يؤثر على جمال المسجد وفخامته كونه بني في فترة عصيبة من فترات حكم السلطان أحمد، ولا كونه بني من أموال خزينة الدولة وليس من غنائم الحروب، كما هو حال "جامع السليمانية"،

إنه بالفعل يمثل بدوره تحفة معمارية جمعت في تناغم وانسجام بين بصمات فني المعمار عند العثمانيين والبيزنطيين، ينضاف إلى ذلك تميُّزه من خلال موقعه المطل على "بحر مرمرة" ومقابلته لمتحف "آيا صوفيا"، وهو يتمتع بفناء واسع ويحتوي أكثر من 200 نافذة.

أما مسجد ومتحف "آيا صوفيا" فتلك قصة أخرى، لقد ظل ذلك البناء الضخم على مدار 916 عاما يمثل كاتدرائية ولمدة 481 عاما يمثل مسجداً ليتحول منذ عام 1935م إلى متحف من أهم المتاحف في المنطقة.

لقد بنيت كنيسة "آيا صوفيا" على أنقاض كنيسة أقدم كان قد أقامها "الإمبراطور قسطنطين العظيم" وانتهت في عام 360م في عهد "الإمبراطور قسطنطينيوس الثاني"، ليقوم "الإمبراطور جستنيان الأول" بإعادة بنائها مرة أخرى عام 537م، وكانت تسمى في البداية "ميغالي أكليسيا" أي "الكنيسة الكبيرة"، ثم سميت بعد القرن الخامس "هاغيا صوفيا" أي "مكان الحكمة المقدسة".

بعد فتح "القسطنطينية" على يد "السلطان محمد الفاتح ابن السلطان مراد الثاني"، أمر السلطان بأن يؤذن فيها وقام بأداء ركعتين شكرا لله على الفتح العظيم، ولما كان لا يوجد للمسلمين في المدينة "جامع" ليصلوا فيه "الجمعة" التي تلت الفتح، وخوفا من تعطيل الجمعة أمر السلطان بتحويل "آيا صوفيا" إلى جامع، ليقوم بعد ذلك بشرائها من ماله الخاص، ويأمر بتغطية رسومات الموزاييك الموجودة بداخلها بدل إزالتها حفاظًا على مشاعر المسيحيين، وما زالت الرسومات موجودة بداخلها إلى الآن.

قام السلطان بعد ذلك بنصب أربعة مآذن أسطوانية الشكل ذات قمم مخروطية حولها لتأخذ شكل مسجد فائق الجمال مع احتفاظها بطابع "العمارة البيزنطية".

ظلت "آيا صوفيا" مسجداً حتى بداية القرن العشرين حيث قام "أتاتورك" بتحويل المبنى إلى متحف وما زال كذلك حتى الآن، مع أن جنباته المشتاقة إلى ذكر الله كان لها موعد ظهر يوم جميل من أيام 2012م مع رفع الأذان من داخله من جديد، بعد 83 سنة من الصمت والشوق، كان ذلك في ذكرى مرور 460 سنة على فتح "القسطنطينية".

كان قرص الشمس قد بدأ في الاختباء خلف قباب ومنارات مساجد تلك المدينة الفاتنة وخلال لحظات سيختفي مخلفا ذلك الأفق الدامي معلنا شطب نهار ذلك اليوم من تاريخ مدينة إسطنبول، وكان ذلك تنبيها لي بأن رحلة سياحتي قد انتهت بدورها وأن علي الاستعداد للرحيل خلال ساعات معدودة إلى مدينة الأبراج والجسور، "لؤلؤة الخليج" مدينة التسوق والإبهار "دبي دار الحي".

الهند.. على خطى
محمد ابن القاسم الثقفي

كنت منذ صغري مفتوناً بقصص "ألف ليلة وليلة"، وكنت أقرأ بشوق رحلة السندباد في مناطق جنوب وشرق آسيا، لست أدري كيف تشكل لدي ربط بين تلك المغامرات وبعض الأفلام الهندية التي كنت أشاهدها اختلاسا في "سينما الفتح" وأحيانا "سينما ميناء الفن".

كانت الأفلام الهندية مسيطرة على معروضات دور السينما في نواكشوط خلال عقود، ولعل السبب في ذلك راجع إلى الاحتشام النسبي وعدم الفحش الصارخ الذي يطغي على مضمونها مقارنة بالأفلام الغربية.

يحسب للسينما الهندية – كما أتذكر خلال تلك السنين الخوالي – أنها حافظت في الغالب على ستر ما بين السرة والركبة من جسد المرأة، هذا الحد وإن كان عريا صريحا بالمفهوم الشرعي إلا أنه كان مقبولا لدى الشباب (سيئ السمعة وغير المؤدب) الذي كان يرتاد دور السينما في نواكشوط.

لا أحد ينكر أن الهنديات بارعات الجمال، العيون النجلاء، والشعر الليلي الحالك السواد، والوجه القمري والثغر المفتر عن مثل حبات اللؤلؤ، الجيد الطويل والخصر النحيل، والقوام المتناسق الممتلئ، إنها نفس مقاييس الجمال المحلية، حتى الملحفة وإن اختلفت طريقة لبسها.

كل تلك القواسم المشتركة جعلت الشباب المحروم، في مجتمع يظهر الكثير من العفة والتستر، يجد في السينما الهندية متنفسا يشاهد من خلاله كثيرا مما أخفي عنه.

كثرٌ هم الشباب والمراهقون الذين هاموا عشقا بالفاتنات الهنديات من قبيل "سيري ديفي"، "جايا بارادي"، "شاشيكا ميناكشي"، و"بونام دلون"، وأكثر منهم الذين تمايلوا طربا على أنغام ورقصات أولئك الجميلات مع فتيان الأحلام من أمثال "راج بابار"، "شاشي كابور"، "راجيش خانا"، الملقب بـ"ملك الرومنسية"، وحامل لقب الشاب الغاضب في السينما الهندية النجم العالمي "أميتاب باتشان".

كم احتبست أنفاس الضلال المارقين من ذلك الجيل الهجين بين البادية والمدينة وهم يتابعون تلك الرقصات المشتركة لأولئك المردة من شياطين النساء والرجال، تلك الرقصات التي تراوح في حركاتها بين كر وفر من الوقوع – بين الحبيبين – في الخطيئة والرجوع عنها فتراهم يمرون عليها دون الوقوع تماما كما تمر العَناق من على فوهة البئر.

أتذكر ذهولي من القدرات الخارقة لأولئك الأبطال الذين كنا نرى رأي العين أحدهم وهو يسقط أربعين رجلا بضربة واحدة من يمناه وأربعين أخرى بيسراه!!!، حتى رصاصة المسدس الهندي لم تكن كسائر الرصاص، لقد كانت تتحدى جميع قوانين الفيزياء الحركية فتراها تصيب هدفين أو ثلاثة في انطلاقة واحدة.

الطبيعة الهندية وما أدراك! الجبال الشاهقة المكسوة خضرة كأنما ألبست عباءة من الزمرد، التلال والوديان التي تغطيها الورود

بألوانها وأشكالها وتتخللها الأنهار والجداول المائية في مشاهد لا يصدق العقل أنها يمكن أن توجد على هذا الكوكب.

كل تلك الذكريات والمشاعر الضبابية المترسبة في ذهني عن الهند جعلت من المحتم أن أزورها حالما تسنح لي الفرصة.

وحدث ذلك يوم الجمعة السابع من فبراير 2018م وعلى تمام الساعة 12:15 دقيقة ظهرا، حين أقلعت الطائرة التابعة لطيران Jet Airways الهندية في رحلتها رقم 541 المتجهة من مدينة دبي إلى مدينة "مومباي" (بومبي سابقا)، عاصمة ولاية (ماهار اشترا) في الهند.

لم تكن الرحلة طويلة (3:30 دقيقة)، وهو ما ساعد على تحمل الوضع غير المريح في جو مشحون برائحة التوابل والبهارات والعطور الهندية غريبة الرائحة، في واحدة من أسطول تلك الشركة متواضعة الخدمات والمعهودة أصلا للمسافرين الهنود دون غيرهم من سكان هذا الأرض.

لكني أردت أن أدخل التجربة من بدايتها وأسافر مع القوم قبل أن أتعايش معهم، كل شيء تفتقده أذنك في تلك الرحلة إلا الرطانة بتلك اللغات الهندية المختلفة ذات الإيقاع السريع.

اللغة الرسمية في تلك الطائرة كانت "الأوردو" ومشتقاتها، إنهم يفترضون أن كل المسافرين يتحدثون "الأوردو".

لا أدعي مطلقا معرفة "اللغة الأوردية"، لكني أستطيع طلب بعض الحاجات الملحة بها، كما أستطيع فهم المحدث إذا تكلم ببطء ولم يسرف في الحديث.

بعد ساعة من الإقلاع بدأ طاقم الطائرة في تقديم الوجبات التي سيطر عليها الطابع الهندي، وقع اختياري ضمن المعروض غير

المتنوع على شرائح من لحم الدجاج المشوي لأتفاجأ بأنها كانت متبلة بالفلفل الأحمر وأعواد القرنفل.

بكثير من مغالبة النفس، أكملت تناول شريحة من أصل ثلاث كانت قوامَ تلك الوجبة، حتى الصلطة التي ضمت أوراقا من النعناع لم تنج من الرش بمنقوع الإذخر والليمون.

تمامَ الرابعة وخمسٍ وأربعين دقيقة مساءً هبطنا في مطار Mahraj international Airport lMumbai Chhatrapati Shivaji كان مطارا ضخما ومزدحما.

يصعب على من تعود السفر عبر "مطار دبي" أن يعجب بأي مطار عالمي لكن "مطار مومباي الدولي" كان مطارا جميلا بمسحة هندية بادية تتمثل في حضور تماثيل الآلهة ومجسمات المعابد الهندية القديمة.

ليست الملامح الهندية غريبة علي بحكم الإقامة سنوات عديدة في منطقة الخليج العربي نظرا لانتشار أولئك البشر هناك، لكنني هنا في معقل القوم، أنا في أحد منابع النهر الذي يتدفق منه ذلك السيل العرم من البشر داكني البشرة وذوي الشعر المسترسل.

لطالما ارتبط لدينا اللون الداكن المائل إلى السواد بالشعر المجعد والأنف منحني العرنين إن لم نقل الأفطس.

الأمر هنا يختلف تماما، تجد الأسود الفاحم ذا أنف أشمَّ طويل وشعر مسترسل ناعم كوبر تيس كشميري.

يخيل للناظر إلى أولئك النسوة المائلات للسواد مع ملامح قوقازية بادية، أنهن إنما صبغن أجسادهن بذلك اللون المستعار، إذ كيف لامرأة سوداء أن تحظى بشعر حريري طويل يضرب منها أسفل الخصر؟!

أول ملاحظة تكتشفها وأنت تخترق الأمواج الهائلة المتلاطمة من الهنود هي أن الصورة النموذجية التي كانت ترقد في مخيلتك عن نساء فاتنات حدَّ الجدارة بالعبادة، كما قال أحد شعرائنا المحليين، هي صورة مزيفة وغير واقعية بالمرة، إنها صورة منتقاة لعيِّنَة نادرة من ملايين النساء، لكنها تخفي وراءها السواد الأعظم من النساء القصيرات الدميمات البدينات حد ضياع ملامح الجسم أو النحيفات حد الهزال، أما أولئك الرجال السمر الطوال من ذوي الأجسام المتناسقة والملامح النبيلة فإنها تحجب صورة ملايين الرجال داكني البشرة ألي بطون منتفخة.

الطابع الغالب على الشعب الهندي هو التواضع حد الابتذال، إنه شعب مسالم إلى درجة تدفع الآخر إلى احتقاره، إنهم قوم يصدق فيهم قول الشاعر قيس ابن عمرو النجاشي في هجو بني عجلان:

قبيِّلة لا يغـــدرون بذمة
ولا يظلمـون النـاس حبة خردل
ولا يـردون المـاء إلا عشـية
إذا صـدر الوراد عن كل منهل
تعاف الذئاب الضاريات لحومهم
وتأكل من كعب بن عوف ونهشل.

والهنود بذلك على النقيض من جاريهما المقسمين - بعد قرون من الوحدة - باكستان وبنغلاديش.

لا أقصد الانتقاص من الشعب الهندي الطيب المسالم، لكن هذه حقائق يدعمها الواقع المعاش والتاريخ الحي.

لو لم بكن الهنود بذلك المستوى من المسالمة السلبية لما رزحوا عقودا من الزمن – وهم عدد الحصى– تحت نير استعمار فيالق معدودة من الإنجليز دون أن يظهروا أية مقاومة تذكر.

وقفت تحت "بوابة مومباي" المطلة على البحر والتي هي خير شاهد على ما أقول عن طبع القوم، تلك البوابة التي تعتبر أحد أهم مزارات الهند وأكثرها جلبا للسياح، والتي بنيت تخليدا لمقتل 90 ألف جندي هندي في الحرب العالمية الثانية هلكوا دفاعا عن "التاج البريطاني" ورجاله البيض الذين كانوا يسومون الهنود سوء العذاب فيذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم.

تسعون ألف جندي كانت كفيلة بطرد المستعمر الإنجليزي ولو لم تحمل سلاحا سوى العصي والطوب، لكنها الطبيعة الخانعة، لبعض الشعوب، التي تجعل الرجل المحتل الغريب يقود جيشا من المحليين تماما كما يقود الطفل الصغير الجمل الهائل بخيط من القماش.

غادرت البوابة باتجاه متحف" Chhatrapati Shivaji Maharaj Vastu Sangrahalaya" غير البعيد من البوابة والواقع أسفل شارع "الماهاتما غاندي"، إنه المتحف الذي صممه المعماري الإنجليزي الشهير "جورج ويت" وكان يعرف سابقًا باسم: "متحف الإمبراطور" أو "متحف أمير ويلز"، إنه مقصدٌ سياحي شهير تحف به أشجار النخيل من كل جانب، وجلّ معروضاته الداخليّة تنتمي إلى التاريخ الهندي مع استثناءات قليلة.

غادرت المتحف نحو "قلعة مومباي الملكية" وهي إحدى المزارات الشهيرة في المدينة، تلك القلعة التي تأسست كمحور اقتصادي لـ"مومباي" لتحل محل القلعة البريطانيّة القديمة،

ولتظل عمارتها الفكتورية دليلا تاريخيا واضحا على الجذور الأوروبية للمدينة.

كان الجو باردا وبدأت أشعر بالجوع فدخلت مطعم Kamats Super Snacks غير البعيد من القلعة وبدأت أتفحص قائمة الطعام.

أنا أعلم أن اللحوم في هذا البلد يندر ألا تكون ميتة أو دما أو لحم خنزير، فإن نجت من ذلك وذبحت فالغالب أن يُهلَّ بها لغير الله.

طلبت وجبة من البيض والخضار دون أن أعرف أن البهارات المضافة ستحولها إلى طبق من الديناميت الملتهب، فكرت – بعد أن أحسست بحرارتها من أول مضغة – أن أتركها وأغادر، لكني تذكرت قصة الشيخ الذي طلب منه الطبيب التوقف عن دواء كان قد اشتراه ليرفض الشيخ أمر الطبيب قائلا إنه ما دام قد صرف فيه نقوده فسيستعمله ولو كانت فيه مهلكته.

أنا أيضا قلت إنني سأستعمل ما صرفت فيه نقودي أو على الأقل بعضه، طلبت حليبا أو لبنا لإطفاء اللهيب المستعر في فمي.

أحضر النادل كأسا من اللبن فأحسست أن طعمه غريبا لأكتشف أنه مخمر بالملح والليمون.

خرجت من المطعم وأنا ألوم نفسي على إلقائي إياها في تهلكة تناول تلك الوجبة التي لم أوفق في اختيارها.

تمام الساعة الثامنة مساء كنت في المطار، سألت عن مكان للصلاة فأخبرني رجال الأمن أنه يقع بعد بوابات المغادرة، إذًا علي أن أكمل إجراءاتي أولا لأصل بعد ذلك إلى المصلى،

أكملت إجراءات السفر ولما وصلت قاعات الرحيل سألت عن المصلى فقيل لي إنه يوجد قبل بوابات الإجراءات وهو عكس ما أخبرت به مسبقا.

عرفت أن الأمر يرجع إلى عادة متأصلة في الهنود كنت أعرفها عنهم من قبل وهي أنهم لا يجيبون عن السؤال مطلقا بلا.

أرسلت أحدهم مرة وطلبت منه أن يأتيني بأوراق من سيارتي المتوقفة في "الباركينغ"، حاولت أن أتأكد من فهمه للمهمة إذ أنه لم يكن يفهم لا الإنجليزية ولا العربية، أشار بحركة الرأس المعروفة تأكيدا على أنه استوعب المطلوب منه، لما استبطأته بعثت من يستعجله فأخبرني الرسول الثاني بأن السيارة ليست في الموقف، أخذت الهاتف واتصلت: "أين أنت يا "بهادور"؟".. "أنا في المحطة".. "وماذا تفعل في المحطة؟"، أجاب "بهادور": "ألم تطلب مني أخذ السيارة لتنظيفها في المحطة؟"، كتمت غيظي وقلت له: "طيب لعلي نسيت".

لا بدَّ للهندي من أن يعطيك إجابة لكن لا تراهن على صحتها فهو إنما يتبع فطرته المجبولة على تقديم المساعدة حتى ولو لم تكن مفيدة.

قال لي بعدها أحدهم بأنه لم يعد هناك مصلى في المطار منذ مدة، وإن الشركة الخاصة القائمة على تسييره ارتأت الاستغناء عن مساحة المصلى ووضعت مكانه تمثالا من الشمع للمناضل الهندي المسالم ذي الجسد النحيل والملابس المهلهلة السيد "غاندي".

استدللت من خلال التطبيق الموجود في هاتفي على اتجاه القبلة واستخدمت أحد أعمدة المطار سترة وجمعت المغرب والعشاء تأخيرا.

كان علي الإقلاع بعد قليل نحو "مدينة أحمد أباد" في رحلة داخلية تستغرق ساعة وخمسة عشر دقيقة.

لا تسأل عن أجواء رحلة طيران هندية داخلية فهي أشبه بتجربة عبور منطقة "سوق السمك المجفف في مقاطعة السبخة" مرورا بـ"وقفة أفْ" سيرا على الأقدام.

نحن باتجاه "مدينة أحمد أباد" ذات التاريخ العريق والتي تأسست سنة 1412م على يد السلطان أحمد شاه الأول الغجراتي بن تترخان بن مظفر شاه الأول ثاني "ملوك الغجرات"، الذي حكم بين عامي 1411 و1441م خلفا لجده مظفر خان مؤسس "المملكة الغجراتية" بعد انفصالها عن "سلطنة دلهي التغلقية".

اختار السلطان أحمد شاه لعاصمة مملكته مكانا استراتيجيا على نهر "سابارماتي" حيث الماء العذب والأرض الخصبة والهواء البارد.

ظلت تلك المدينة حاضرة "المملكة الغوجراتية" حتى عام 1573م حيث سقطت بيد السلطان جلال الدين محمد أكبر، أحد أعظم سلاطين مغول الهند، ذلك السلطان الفاتح الذي توسعت في عهده رقعة حكم "الموغال" (مغول الهند) فسيطر على شمال الهند وباكستان ووصل إلى بلاد البنغال.

استمرت "مدينة أحمد أباد" تحت حكم "سلاطين الموغال" حتى دخول المحتل البريطاني عام 1818م.

ظلت "مدينة أحمد أباد" عاصمة ولاية "غوجرات" لقرون عديدة وحتى سنة 1970م حيث تم اعتماد مدينة "غاندناغار" عاصمة للولاية بدلا عنها، لكن "مدينة أحمد أباد" تشكل الآن

مركزا اقتصاديا وصناعيا هاما جعلها تحتل المركز السابع في ترتيب أهم المد الهندية رغم أن عدد سكانها لا يزيد عن 7 ملايين نسمة.

وصلنا "مطار أحمد أباد" على تمام الساعة العاشرة وأربعين دقيقة حيث كانت سيارة تابعة للفندق تنتظرني.

كان المطار مزدحما بالقادمين لحضور معرض تجاري دولي في مدينة "غاندي ناغار" المحاذية لـ"مدينة أحمد أباد".

خرجت من المطار بعد الزحف عبر طوابير طويلة تذكرك بطوابير الحجاج بالبوابة الشمالية من "مطار الملك عبد العزيز الدولي بجدة".

وصلنا قبيل منتصف الليل فتدق Nami Residency الواقع على شارع Ashram بقلب "مدينة أحمد أباد".

قبل الصعود إلى غرفتي سألت أحد موظفي الفندق واسمه أحمد عن مسجد كنت قد حددت مكانه – قبل السفر وأثناء الحجز– غير بعيد من الفندق، أجابني بأن ذلك المسجد أغلق منذ زمن لكن بدلا عنه هناك مسجد غير بعيد تقام فيه الصلوات الخمس.

صعدت إلى غرفتي وأخذت حماما دافئا وضبطت المنبه على الساعة الخامسة فجرا وحاولت الخلود إلى النوم.

قبيل الفجر باتجاه المسجد وعلى جنبات الطريق، ترى كل المتناقضات، البعض ما زالوا نياما متخذين من عربات النقل التي تجرها الأحصنة أسرة، والبعض مجتمعون حول نار موقدة يصطلون عليها اتقاءً للبرد، والبعض يحضر محله التجاري الصغير المتنقل، وذاك ينبعث البخار من أباريقه الممتلئة شايا وقهوة وزنجبيلا.

أما هذا فقد غطته غمامة من الدخان الناتج عن قلي البيض المخلوط بتوابل لا يعرفها إلا من عايش القوم ردحا من الزمن، الكل يعمل بجد وحماس استعدادا لتحضير وجبات الإفطار لذلك السيل الهادر من البشر الذي بدأ يتحرك.

لمحت شيخا سبعينيا ذا لحية كثة يلبس كندورة بيضاء وقلنسوة بنغالية فخمنت أنه متجه إلى المسجد فتبعته.

كان ظني في محله.. فبعد مسافة 400 متر تقريبا وصلنا إلى المسجد الذي كان عبارة عن قبو تحت الأرض مقتطع من أحد المنازل، تستقبلك عند الدخول منارة صغيرة لا ترتفع عن الأرض أكثر من متر ونصف وعن يسارك تقع ميضأة بأربع حنفيات وعلى اليمين هناك حمامان ورفوف خشبية لترتيب أحذية المصلين.

نزلت مع السلم الموصل إلى القبو الذي كان عبارة عن مخزن بمساحة تقدر بعشرة أمتار عرضا في ثمانية طولا لكنها كانت مفروشة بسجاد نظيف وتضم محرابا ومنبرا صغيرين ومكبر صوت داخلي لا يسمع من الخارج.

أقيمت الصلاة فأمنا شاب ثلاثيني ذو لحية سوداء كثيفة ووجه صبوح، كان معظم المصلين الذين تجاوزوا العشرين ذوي ملامح باكستانية وليست هندية.

قرأ الإمام من "سورة مريم" بلسان فصيح وقراءة خاشعة وصوت جميل، كان يبدو من تلاوته أنه على دراية تامة بأحكام التجويد وذو سيطرة فائقة على مخارج الحروف، لقد كان أعجميا بلسان عربي مبين.

بعد السلام رفع الإمام يديه كعادة معظم الأئمة الآسيويين ودعا بعربية فصحى أتبعها بدعاء أخر بـ"الأردو" كان ترجمة لما قال بالعربية.

في طريق العودة من المسجد – ورغم أن الوقت ما زال مبكرا – كان صخب الحياة على أشده وكانت الدراجات النارية المسيطرة على النقل تتدفق كالجراد من كل صوب وحدب لا ينافسها إلا "التُّكتُك" أبو العجلات الثلاث الذي يحل هناك – بنسبة 80% – محل سيارة الأجرة.

قطعت بصعوبة الشارع نحو الفندق وصعدت إلى غرفتي وأكملت نومي استعدادا للذهاب ضحى إلى مدينة "غانديناغار".

استيقظت ضحى فطلبت من الاستقبال استدعاء سيارة أجرة فحضرت خلال دقائق معدودة وربما كانت تقف أصلا خارج الفندق.

كان سائق السيارة شابا حدث السن يعمل على سيارته الخاصة من نوع "ماروتي 800"، والتي تمثل نسخة من سيارة "السوزوكي" بصناعة هندية.

الشاب – الذي سيكون سائقي خلال الأيام القادمة – كان طالبا جامعيا يتحدث إنجليزية مكسرة لكنها تفي بغرض التواصل.

نظام السياقة في الهند هو النظام الإنجليزي الذي يضع المقود في يمين السيارة مع ما يترتب على ذلك من مفهوم عكسي لكل قواعد السير التي ينتهجها العالم الآخر.

انتابني العجب من ذلك الكم الهائل من السيارات والدراجات والعربات الذي يتلاطم في شوارع ضيقة دون أن يصطدم بعضه ببعض.

لا يقتصر النقل الحضري في "مدينة أحمد أباد" وضواحيها على الناقلات الآلية بل إن العربات التي تجرها البغال والأحصنة لها حضورها في الساحة في مشهد يعيدك إلى النقل بين مقاطعتي "السبخة" و"الميناء" بداية ثمانينات القرن الماضي.

تذكرت – وأنا أشاهد تلك العربات التي تجرها الأحصنة – منظر ذلك الحصان الذي خر صريعا بضربة خاطفة من يسار "السالك مولى أهل مطار"، كنت شاهدا على تلك الواقعة – وأنا صبي– منتصف ثمانينات القرن الماضي، حدث ذلك في الساحة المقابلة للمدرسة الرابعة بـ"السبخة"، وهي الساحة التي سيتم احتلالها لاحقا بما صار يعرف "بسوق التبتابة"، السالك هو رجل أسمر قصير القامة مفتول العضلات ذو جسم رياضي نبت بشكل طبيعي يذكرك ببطل كمال الأجسام الأمريكي "روني كولمان".

كان السالك جالسا على طرف عربة حماره التي تحمل العديد من البضائع الثقيلة سيتم توزيعها على دكاكين متفرقة في مقاطعة السبخة، فجأة كان ذلك الحصان الضخم الذي يجر عربة ركاب مزينة يكاد لفرط قوته وسرعته أن يجرف السالك وحماره وعربته في طريقه، لم يجد السالك بدا من ردع ذلك الحصان الهائج حتى لا يدوسه وبضائعه فرد يده اليسرى – التي كانت تحمل عصى صغيرة – باتجاه عنق الحصان ليقع الأخير على رأسه دون حراك.

بادر المراهق – الذي صعقه سقوط حصانه المدلل مغشيا عليه – إلى سكب سطل من الماء على الحصان لعله يستفيق لكن هيهات، قال السالك للمراهق بهدوء عجيب: "لا تتعب نفسك بصب الماء على الحصان فلو سكبت عليه (الدهن الحر) أي السمن البلدي فلن يعود إلى الحياة".

أخذ سائقي مكانه على الشارع بين وسائل النقل المتدفقة تلك التي كان بعضها يمشي على عجلتين وبعضها على ثلاث وبعضها على أربع حسب ما تشاء الحاجة الهندية.. لكن القاسم المشترك بينها جميعا هو الصخب والدخان.

كنت أعلم أن المناضل الهندي رائد "الساتياغراها" المهاتما غاندي، سكن "مدينة أحمد أباد" ردحا من الزمن وأن له آثارا هناك، فطلبت من سائقي أن يقلني إلى حيث كان ذلك المقدس في الذاكرة الهندية يسكن.

كان المزار الواقع على ضفة "نهر سابارماتي" عبارة عن مجموعة بيوتات محدودبة السقوف مغطاة بالخشب والجريد يتوسطها بيت الزعيم وتحيط به بيوتات بعض رفاقه الذين شاركوه فلسفته النضالية ومقاومته السلمية.

يضم البيت المتواضع الذي أضحى – متحفا محليا – بعضا من أغراض "المهاتما" البسيطة كسريره الصغير وكوز شراب وجرة فخار لتبريد الماء ورحى ومغزلا كان يستخدمه في نسج ملابسه، لقد كان الرجل صوفيا زاهدا في الدنيا ورغم أنه قرأ عن كل الديانات وتأثر بجوهرها إلا أن عقله ظل يميل إلى الهندوسية فلم يتزحزح نحو اعتناق أي من الديانات السماوية.

أكملنا السير باتجاه مدينة "غاندياناغار"، التي تبعد عن "مدينة أحمد أباد" مسافة 25 كلم بالسيارة..

"غاندياناغار"، تلك المدينة النائمة على الضفة الشرقية لـ"نهر سابارماتي"، والتي تعتبر مسقط رأس الزعيم الروحي الهندي غاندي بل وتحمل اسمه تيامنا به.

إنها المدينة التي تسمى "عاصمة الأشجار الهندية"، نظرا لكثافة غلافها النباتي من الأشجار والغابات وخضرتها الدائمة، أما المناخ فهو استوائي تماما كمناخ "برويت" بولاية "الترارزة"، أقصى ولاية في الوطن العربي غربا، إذ تغلب عليه الحرارة في مراوحة بين الجفاف والرطوبة حسب فصول السنة.

وصلنا مدينة "غانديناغار" على تمام الساعة الحادية عشر صباحا، وتوجهت مباشرة إلى المعرض التجاري المقام في "مركز المهاتما مندير للمعارض الدولية".

على الغداء كنت معزوما من قبل صديق هندي مشارك في المعرض، كان الغداء عبارة عن وجبة هندية تسمى "الو بهرتا" تتكون من: البطاطس المسلوقة مع الثوم ومسحوق الكزبرة والفلفل الأحمر بالكمون مع زيت الزيتون والبصل والطماطم.

زودني صديقي – أثناء تناول الغداء – بنصيحة مفادها أن أتجنب أكل أي نوع من أنواع اللحوم طيلة مقامي في بلاد الهند باعتبارها غير مأمونة المصدر، التزمت بنصيحة صديقي وعشت حياة النباتيين عدة أيام رغما عني.

كان المعرض مقاما على مساحة مليون متر مربع وحشرت له الهند مئات الشركات المحلية من كل جهات الهند.

وحتى لا أكون مكابرا فقد كان من بين الحاضرين من أعاد إلى ذهني تلك الملامح القابعة في ركن قصي من الذاكرة الطويلة.

الأمر مفهوم جدا إذا علمنا أن الشركات تنتقي في العادة من يمثلها – في المحافل الدولية – بمعايير صارمة من ضمنها الشكل والمظهر الذين لا ينكر أحد دورهما في جذب المتفرج.

في المساء أقلني سائقي باتجاه الفندق في "مدينة أحمد أباد"، فوصلت قبيل صلاة المغرب.

بعد صلاة العشاء نزلت إلى مطعم الفندق وتفقدت الوجبات المعروضة، تذكرت نصيحة صديقي الهندي فاغترفت لنفسي من أنواع الخضروات ما مثل صلطة غير مرتبة المكونات.

عرض علي النادل شربة عدس فقبلتها بعد أن تأكدت من خلوها من أي مكون حيواني أو نباتي حار، ورغم تصنيفها ضمن "غير الحار"، حسب معايير الفندق، إلا أنها كانت حارة بالنسبة لأهل "الحموضة"، فوضعتها جانبا وكان في صحن الصلطة غير المرتب ما يغني عن تجربة المبيت على شربة حارة.

صعدت إلى غرفتي التي كانت في الطابق الرابع وضمن جناح غير المدخنين حسب الحجز المسبق، إلا أن رائحة سجائر رخيصة كانت قد تسللت إلى داخل الغرفة مانعة إياي من النوم.

اتصلت على الاستقبال محتجا وطالبا تغيير الغرفة فأكدوا لي أن الدخان ليس قادما من الجناح الذي أنزل فيه وإنما هو منبعث من جهة أخرى وأنهم سيقومون حالا بإفراغ الغرفة من الهواء الملوث طالبين مني الخروج ومنحهم خمس دقائق فقط وأن كل شيء سيكون على ما يرام.

نزلت إلى الاستقبال وبعد هنيهة أخبروني بأن الغرفة أصبحت خالية من الروائح المزعجة متمنين لي نوما هنيئا وأحلاما سيدة.

عدت إلى الغرفة لأكتشف أن دخانا غريب الرائحة حل محل رائحة دخان السجائر، حاولت التكيف مع الوضع لكن الدخان المنتشر والرائحة المنبعثة كانت قد حولت الغرفة إلى ما يشبه بيت دجال يستعد لإحضار الأرواح.

اتصلت مرة أخرى سائلا عما تم إحداثه في الغرفة، فأجابني المتكلم عبر الهاتف بكل فخر لقد أشعلنا لك في الغرفة عودا من "التولة" الفاخرة، إنه بخور ملكي هندي، فقلت له مع كل تقديري لمجهودكم لكن هذا البخور الملكي يمنعني من التنفس، أنا أريد غرفة محايدة بلا رائحة، لا دخان ولا بخور.

قرروا نقلي إلى الطابق الثامن هروبا من تلك الروائح المؤذية لأنام بعد أن أخذ التقلب على الجنبين وقته المستحق من ليلتي تلك.

في صلاة الفجر أمنا هذه المرة رجل ستيني مهيب ذو صوت شجي، لكن الشاب الأول كان أندى وأجمل منه صوتا.

الحياة في حركتها المستمرة من الفجر، وسائل النقل بأنواعها، الدخان المتصاعد من كل شيء، أزيز المحركات بكل الأحجام، المصطلون على جنبات الطريق، والقليل ممن ما زال شيطان الصبيحة جاثما على رأسه.

سوف أكرر اليوم نفس برنامج الأمس، الذهاب إلى المعرض الدولي بـ"غاندیناغار" والعودة منه مساء.

بعد صلاة المغرب في "مدينة أحمد أباد"، طلبت من السائق أن يوصلني إلى إحدى الحدائق العامة فوقع اختياره على حديقة (Prahlad Nagar) الجميلة، أخذ التسكع مني قرابة ساعة كاملة، كان الجو لطيفا ونسيم بارد قادم من المحيط الهندي يعبث بأغصان الأشجار المتناثرة هنا وهناك.

ترى كم من الخلق يتنفس هواء نظيفا بسبب تلك الحديقة المشحونة بالأشجار والنباتات الاستوائية وكم من عقار أخذت مادته من تلك الأشجار المعمرة..؟

بعد صلاة العشاء رجعت إلى الفندق وتناولت بعض الخضار.

في البهو كان أحمد "العامل بالفندق" كأنما ينتظرني، دخل المصعد معي وبدأ يسرد حكاية معاناته – كمسلم – من التمييز بين زملائه الهندوس على مستوى الراتب والعلاوات، خرجنا من المصعد وأحمد مسترسل في حديثه مع ظروف المعيشة الصعبة وأخواته الثلاثة غير المتزوجات ليصل – وهو يبتسم ابتسامة واضحة الدلالة إلى سؤالي ما إذا كنت متزوجا أم لا؟ وهل أرغب في زواج مسيار من فتاة هندية مسلمة وجميلة.

صدق "أبو نزار"، الستيني الأردني صاحب "مخبز الهدى" بالشارقة، كان قد حدثني قبل مغادرتي أنهم هناك في الهند عرضوا عليه الزواج من فتيات صغيرات ثيبات وأبكارا مقابل مبالغ زهيدة، لم أستطع وقتها تكذيب الستيني احتراما لشيبته لكني كنت مقتنعا في داخلي أنه يختلق قصصا من محض الخيال.

أمضيت أياما من السفر اليومي بين مدينتي "أحمد أباد" و"غانديناغار"، عشت خلالها تجربة معايشة ناس جدد، واكتشاف عادات وتقاليد جديدة، وأنعشت ذاكرتي القديمة حول الهند بأرضها وبشرها فعرفت أن السينما لا تعكس الواقع بشكله الحقيقي وإن كانت تأخذ منه ما تشاء وتظهره بالشكل الذي تريد.

على تمام الساعة 07:50 صباحا أقلعت الرحلة رقم 315 من "مدية أحمد أباد" لتهبط في مومباي على تمام الساعة 09:10 صباحا مستغرقة ساعة وعشرين دقيقة.

كانت لدي سبع ساعات قبل التوجه إلى دبي فوجدتها فرصة سانحة لأستكشف بعض معالم تلك المدينة الساحرة.

ركبت القطار باتجاه محطة " Chhatrapati Shivaji Terminus"، والمعروفة أكثر باسم "محطّة فكتوريا"، والتي تُعتبر صورة رائعة لعمارة قوطيّة فكتوريّة ممزوجة بعناصر معماريّة من الهندسة المعمارية الهندية التقليديّة، الأمر الذي يجعل منها مثالا استثنائيًا للقاء البديع بين تينك الثقافتين.

إنها الأيقونة المعمارية الفريدة التي تقاضى المهندس المعماري البريطاني الشهيرFrederick William Stevens مبلغ 22,000 دولار أمريكي كتعويض عن بنائها الذي أكمله عام 1888م، لتصبح منذ ذلك الوقت وحتى الآن أجمل وأعرق محطة قطارات في جنوب آسيا كلها.

وقد أعلنت المنظمة العالمية للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) اختيارها لهذه المحطّة كموقعٍ من التراث العالمي لفرط جمالها وعراقتها التي تنم عنها النقوش المدهشة على القباب والأبراج والزّوايا، إلى جانب الزجاج الملوّن والمنمنم، الأمر الذي يجعل المتفرج يقف حائرا أمام ذلك القدر من الإبداع والجمال والإتقان في مكان يعبره قرابة النصف مليون راكب يوميًا.

أخذت القطار من "محطة فكتوريا" متوجها إلى "حدائق فيروز المعلقة"، نزلت في محطة "Charni Road" أقرب محطة قطار إلى الحدائق، ومنها أخذت سيارة أجرة فأوصلتني إلى وجهتي.

"حدائق فيروز المعلقة" أو "حدائق مومباي المعلقة" هي عبارة عن معجزة جمالية تتربع على أعلى ربوة في التلال الغربية لمنطقة "مالابار" قبالة متنزه Kamala Nehru مباشرةً.

لقد تم تشييد تلك الجنان الغناء عام 1881م على يد Ulhas Ghapokar فوق خزان المياه الرئيسي لمدينة مومباي، حيث

يقول البعض إنها تضمن عدم تلوث المياه من النشاطات العمرانية الكثيفة بالمدينة.

عرفت، وأنا أتجول بين الزهور الموسمية والنباتات العجيبة المنتظمة كسجاد إيراني، أن المناظر الطبيعية الأخاذة التي كانت تحتفظ ذاكرتي ببعضها عن أفلام "بوليوود" القديمة كانت تصور بكل تأكيد في هذه الجنة العجيبة.

لا بد أن الشاعر صفي الدين الحلي كان يتمثل تلك الأزهار مختلفة الألوان حينما قال:

وتنوعتُ بسطُ الرياضِ، فزهرُها
متباينٌ الأشكالِ والألوانِ
مِن أبيَضٍ يَقَقٍ وأصفَرَ فاقِعٍ
وأزرَقٍ صافٍ وأحمَرَ قانِي.

كان منظر انعكاس ضوء الشمس على "بحر العرب" من على مدرج قوس قزح المشيد وسط الحديقة، وظلال تماثيل الحيوانات المنحوتة العجيبة، وآلاف الأنواع من الزهور والنباتات، والممشى الذي يتخلل جنبات الحديقة، كلها سمات تجعل من تلك الحدائق المعلقة مكانا لا وجود لمثله على هذا الكوكب.

بدأ الوقت يزاحمني فرجعت إلى محطة "Charni Road " ومنها إلى المطار استعدادا للإقلاع نحو دبي بعد وقت قصير.

تمام الخامسة مساء كنت على متن رحلة Jet Airways رقم 538 التي أقلعت من "مطار مومباي" باتجاه دبي في رحلة تستمر 3 ساعات و25 دقيقة.

في دولة بلا مساجد

أقلعت طائرة البوينغ 777–300 التابعة لطيران الإمارات من "مطار دبي" تمام العاشرة صباحا يوم 26 من سبتمبر 2013م معلنة انطلاق الرحلة رقم 105 المتجهة إلى أثينا مستغرقة خمس ساعات وعشر دقائق.

كان ذلك الجسم الهائل الذي يتسع لـ 550 راكبا يحلق عاليا عبر الغيوم، وكان محركا Trent 892 بقوة 92,000 رطل يئنان تحت حمولة فاقت 350 طنا، ومع أنRolls Royce لم تترك مجالا للصدفة أثناء تصنيع المحركات إلا أن المتبصر يعلم أن ذلك العملاق السابح في جو السماء لا يمسكه حقيقة إلا الله.

يخيل إلى الجالس على الكرسي المريح أنه موجود بإحدى قاعات العرض الثابتة وليس على ارتفاع يفوق 14,000 مترا, ولولا الرعشة التي تنتاب ذلك الكائن العظيم من حين لآخر بفعل عوامل المناخ، لما تنبه الراكب إلى أنه يسير– رغم السكون السائد – بسرعة قد تصل 1,000 كيلومتر في الساعة.

وصلتُ إلى "مطار أثينا" تمام الثانية وعشر دقائق ظهرا، كان طابور الجوازات طويلا ورب ضارة نافعة فالأزمة الاقتصادية المطبقة على القصبة الهوائية لليونان أدت إلى تدفق السياح من ذوي الدخل المحدود مغتنمين فرصة انخفاض أسعار الخدمات السياحية.

وقفت أمام أحد مكاتب الجوازات حيث كانت الشرطية الشابة توزع ابتساماتها العريضة على كل العابرين بمنتهي العدالة، التفت

يمنة ويسرة فإذا كل شرطيات الاستقبال منهمكات في توزيع نفس الابتسامة التي ينال كل مسافر منها نصيبه، عرفت حينها أن الأمر وإن كان تصنعا إلا أنه يتم بحرفية عالية، فرغم أن أولئك الفتيات يبتسمن بعدد من يعبر أمامهن من المسافرين يوميا، إلا أنهن استطعن– أو هكذا بدا لي– الحفاظ على ابتسامة غير نمطية وخالية من الابتذال، ما أجمل أن يبتسم لك أول شخص تكلمه بعد رحلة طويلة..

أعلم أن شرطيات "مطار أثينا" لم يسمعن قول نبي الذوق والخلق الرفيع (تبسمك في وجه أخيك صدقة)، لكن الفطرة البشرية السليمة لا تحتاج بالضرورة إلى الوازع الديني للقيام بالتصرف الصائب.

تذكرت شرطيا عبوسا في "مطار نواكشوط الدولي" كان وجهه "يقطع الخميرة من البيت" كما يقول المصريون، كان ذلك الشرطي يحمل ملامح عَزَمَ صاحبها على نشر الكآبة بين عباد الله القادمين والمغادرين، كان هدفه الأساسي أن يجعل القادم يقول "ليتني ما عدت" والمغادر يتمني ألا يرجع.

كان وجه ذلك المخلوق المصنوع من مزيج فحم "البيوتومين" وأحجار "البازلت" قد اكتسب لونا عجزت عملية ما يسمى في الرياضيات بتكامل الأجزاء عن تشكيله من بين الألوان الأساسية أو المتفرعة عنها, لكنه عموما لون لا حياة فيه ويتشكل بعد مرور عقود زمنية من عدم الرضى عن الذات أو الغير.

لم أرغب قط في سماع قهقهة ذلك المخلوق، لكنني تمنيت من كل قلبي أن يقتنع بأنني لن أسلبه ما خلف مصّ أعقاب السجائر من أسنانه الصفراء إن أظهرها مبتسما في وجهي، لو كان لي الأمر في

المطار لألبست كل من لا يبتسم في وجه خلق الله قناعا يخفي ملامحه الكئيبة.

كنت أعلم أن اليونان هي الدولة الوحيدة أوروبيا، وربما عالميا، التي لا يوجد بها مسجد رسمي، لقد أدى زحف الحضارة الغربية وانحسار المدّ الإسلامي أيام أفول نجم الإمبراطورية العثمانية إلى تحول اليونان من بلد يمثل المسلمون فيه نسبة 68% إلى بلد متعصب ضد المسلمين ولا ترتفع فيه مئذنة عن سقف قيد أنملة، ويشكل المسلمون فيه أقلية دينية محاصرة في عباداتها وعاداتها وتقاليدها، ولا تزيد نسبتهم بين السكان عن 1,3%.

إن تاريخ الإسلام في هذا البلد يرجع إلى مرحلة متقدمة من القرن الثالث الهجري – وبالتحديد عام 210هـ، في عهد المأمون بن هارون الرشيد – حين قامت طلائع المسلمين بغزو عدد من الجزر اليونانية، وكان ذلك الفتح إيذاناً بدخول الإسلام إلى البوابة الجنوبية لبلاد البلقان.

لكن اتفاقية تبادل السكان بين اليونان وتركيا، والمعروفة تاريخياً باسم "اتفاقية المقاصة"، والتي وُقّعت بينهما عام 1924م و"اتفاقية لوزان"، التي تلتها كان لهما أثرٌ حاسم في انحسار وجود المسلمين في اليونان، حيث أن الاتفاقية الأولى وحدها أفضت إلى هجرة 1,200,000 (مليون ومائتي ألف) مسلم من اليونان باتجاه تركيا، وتوالى النزيف بعد ذلك إلى أن انحسر عدد المسلمين اليوم في اليونان حسب الإحصائيات الرسمية إلى 250 ألف نسمة فقط.

في أثينا العاصمة، وكذلك في بعض الجزر اليونانية، تقتصر دور عبادة المسلمين على بعض المصليات المخبأة ضمن محلات تجارية أو غرف منزوية في أحد أدوار البنايات القديمة، وأحيانا

بضعة أمتار مقتطعة من مواقف السيارات الملحقة بالعمائر أو مجتزأة من مخازن في خواصر الضواحي النائية، وكلها مصليات لا تعفر فيها الجباه بالسجود إلا بعد تغليق الأبواب، ولا يذكر فيها اسم الله إلا على استحياء، ولعل القاسم المشترك بين كل تلك الأماكن هو الضيق والتخفي وعدم توفر التهوية في أغلب الأحيان.

وللأمانة استثني هنا المصلى التابع "للمركز العربي اليوناني للثقافة والحضارة" الواقع على شارع Kiprou بمنطقة Moscháto في قلب أثينا، والذي لو كان سمح بأن تعتليه مآذن لصار مسجدا بمعنى الكلمة، إنه المركز الذي افتتح قبل ثلاث عشرة سنة بتمويل من محسن سعودي ورفضت السلطات اليونانية حينها إضافة كلمة "إسلامي" إلى اسم المركز.

كنت قد وصلت قبل دقائق من "مطار أثينا الدولي" إلى فندقBEST WESTERN CANDIA الواقع على شارع Theodorou Diligianni والذي اخترت النزول فيه عن قصد قبل سفري باعتبار قربه من أحد المصليات المذكورة.

قبل الرابعة بعشرين دقيقة كنت خارج الفندق أتفحص واجهات المباني بحثا عن المصلى الوحيد بمنطقة Omonia القديمة، التي تشبه إلى حد كبير "الحي اللاتيني" في باريس من حيث الطراز المعماري، كنت أحث الخطى وأجول ببصري يمنة ويسرة بحثا عن النقطة التي إن صدق محرك بحث Google earth فستكون مني على مرمى حجر.

كان وقت صلاة العصر قد دخل حسب التوقيت المحلي وقد مضى على تجولي أكثر من عشر دقائق مسحت خلالها واجهات عشرات المباني المتشابهة واخترقت شوارع ضيقة عديدة.

قلت في نفسي "إذا كان العنوان الذي أدخلت في محرك البحث دقيقا فلا بدَّ أنني ابتعدت عن مكان المصلى".

حاولت رؤية الخريطة مجددا عن طريق الهاتف لكن الشبكة لم تسعف، فكررت راجعا إلى الفندق لأتحقق من معلوماتي عن طريق الكمبيوتر، وقبل أن أدلف إلى الفندق من بوابة فرعية مطلة على شارع ضيق وقع بصري على اللافتة المكتوبة بخط النسخ العربي الواضح (مسجد الرحمن تأسس سنة 1989).

لم أصدق عيني، لقد حجبه القرب كما يقال، كانت اللافتة واضحة وبخط عريض ومطلة على الشارع في تحد صريح لعنصرية وتعصب أنصار "حزب الفجر الذهبي اليوناني" ذي النزعة النازية.

وقفت مذهولا أبحث عن المدخل حيث كانت كل أبواب البناية مغلقة، وفجأة وقع بصري على قفل نحاسي مفتوح المزلاج خمنت أنه على باب المصلى، سحبت الباب جانبيا وترددت قليلا في الدخول إلى أن استحثني صوت قادم من الداخل يقول: "تفضل". دخلت وقبل إكمال دعاء دخول المسجد قال صاحب الصوت بلهجة مصرية: "اقفل الباب وراءك". أحكمت إغلاق الباب ودخلت.

كان المصلى عبارة عن غرفة مستطيلة الشكل بمساحة ستة أمتار في أربعة تقريبا تقع الميضأة الصغيرة ذات الحنفيتين على يسار الداخل في حين يتوسط مقدمة الغرفة محراب ومنبر صنعا من خشب الزان.

عرفت من تفاصيل لاحقة أن المصلى مستأجر بمبلغ ثمانمائة يورو شهريا، يتم جمعها عن طريق صندوق للتبرعات موجود داخل المصلى وتبرعات أفراد الجالية المسلمة في اليونان من خلال حساب خاص.

بعد تحية المسجد والسلام على الرجل الذي عرف من طريقة دخولي أنني غريب عن المنطقة سألني: "من أي بلد أنت؟"، فأجبته: "من موريتانيا"، فبدت على وجهه علامة توحي بأنه لم يتبيّن في أي قارة تقع، كان مخاطبي كهلا من صعيد مصر في الستينيات من عمره لم يحظى بكثير تعليم ويعمل منذ سنوات فراشا في المصلى.

سألني: "متى وصلت؟"، أجبت: "قبل ساعتين تقريبا".. قال: "وهل تنوي المقام في هذا البلد؟"، فأجبت بالنفي.

بعد لحظات دخل شاب مغربي تلاه آخر غيني ثم شاب مصري، أقام الغيني الصلاة وصلى، وبعدها تبادلنا التحيات وتعارفنا وتفرقنا كل إلى وجهته.

قمت بجولة مسائية في المدينة، زرت خلالها مبني البرلمان اليوناني أو ال Hellenic Parliament والذي انتهى من تصميمه المهندس Friedrich Gärtner سنة 1843م ليكون أحد القصور الملكية، إلا أن الثورة اليونانية منحته لممثلي الشعب.

وليس غريبا أن ينتصب البرلمان اليوناني فاتحا ذراعيه على ساحة Syntagma Square الجميلة، ليشكل المحطة الأخيرة في طريق قطار الديمقراطية اليونانية الذي انطلق ضحوة أحد أيام 550 قبل الميلاد، مؤسسا بذلك لإحدى أعرق الديمقراطيات التي عرفها العالم القديم.

قام ذلك النظام على منطقة Attica الإغريقية في اليونان القديمة، والتي شملت إضافة إلى أثينا كلا من جزيرتي Saronic و Cythera وأجزاء من جزيرة Troizinia.

أمام ضريح "الجندي المجهول" بمحاذاة البرلمان يقف حراس بزي عسكري يعود تصميمه إلى مائتي سنة خلت حاملين بنادق تقليدية من نوع Springfield تذكرك ببنادق1916 Carabine ذات الطلقات الثلاث أو بنادق MAS 36 التي كانت تستخدم من قبل بعض أفراد المقاومة الوطنية وفي الزعامات التقليدية الموريتانية.

الغريب في أمر هؤلاء الحراس أنهم يتناوبون على الوقوف في نقاط معينة حول الضريح بحيث يقف أحدهم مدة ستين دقيقة دون أن تتحرك منه شعرة وكأنه تمثال من الإسمنت.

ستون دقيقة بالتمام والكمال يمضيها ذلك الصنم مغروزا في مكانه كأنه جذع شجرة سنديان, لا يهتم لريح عاتية ولا أمطار جارفة أو حتى لعاصفة ثلجية، مع الثانية الأولى بعد انقضاء ساعته يمد رجله اليسرى إلى الأمام رافعا إياها حتى تصل قدمه إلى مستوى سرته ليحطها أرضا ويرفع اليمنى بنفس الطريقة في حركات تشبه مشية طائر اللقلق، إنه ينسحب من المداومة تاركا مكانه لحارس بدأ هو الآخر تحركه بنفس الخطوات ليحل محل زميله وهكذا.

عرجت قبيل الغروب على منطقة Exarcheia حيث يقع المتحف الأثري اليوناني الذي ابتسم للوجود عام 1829م على يد Ioannis Kapodistrias رئيس الوزراء اليوناني آن ذاك.

تتكدس في المتحف الغارق بين أشجار الصنوبر والصفصاف شواهد ومجسمات لا حصر لها من تاريخ من عمروا تلك الأرض أو عبروا منها خلال آلاف السنين.

يحدثك اليوناني بمرارة عما كان لأسلافه غابر الدهر من يد طولى في ميادين العمارة والسياسة والشعر والفلسفة، وما آلت إليه حال تلك اليد نفسها التي أصبحت تتكفف الجيران وتمتهن التسول على موائد الأثرياء منتظرة ما يجودون به من صدقات أو ما يقرضونها من ديون بشروط مجحفة ومذلة.

كان قرص الشمس القاني قد اختفى وراء جبل Lycabettus ذي القمة المسنمة المتلفع بوشاح نَسجت خيوطَه أشجار البلوط والكستناء والصنوبر والأرز مانحة إياه لونا أخضر داكنا يوهم الرائي أنه أمام هرم خوفو بالجيزة مرتديا حلة من اليَشب.

بدأت عتمة تلك الأمسية الأثينية تمتص ببطء ما تبقى في قاع الأفق من حمرة الشفق، فعدت من جولتي رأسا إلى المصلى هذه المرة بكل ثقة وكأني أدلف إلى أحد مساجد "مقاطعة السبخة"

الجدل الفقهي

كانت جماعة المسجد قد ازدادت برجلين تبين لاحقا أن أحدهما من الجزائر والآخر من جيبوتي, وقبل أن أعتدل في جلستي سمعت المصري يقول: "حي المسجد قبل جلوسك"، فقلت له: "نحن المالكية نكره النافلة بين العصر والمغرب"، فقال مستغربا: "يعني إيه, بتكرهو الصلا!"، فتسمت قائلا: "ليس بالضبط، ولكن نكره تأديتها في أوقات معينة"، فتدخل الجزائري الخمسيني قائلا:

"أنا أيضا مالكي لكنني أحيي المسجد قبل المغرب"، فقلت له: "لست مالكيا في هذه", كان الجزائري واسمه هشام هو الإمام الراتب للمصلى وينوبه الغيني (سعيد) في حال غيابه، انضم الغيني إلى صف جماعته مؤيدا قولهم بتأكيد تحية المسجد قبل المغرب في جميع المذاهب.

قلت لهم: "أذكر أن الحطاب أورد في كتاب مواهب الجليل نقلا عن ابن رشد في كتاب الجامع من البيان أنه لا خلاف بين أهل العلم في أن الصلاة تحِل بغروب الشمس إلا أن صلاة المغرب تجب بغروب الشمس أيضا، فعلة كراهة النافلة هي ضرورة تعجيل صلاة المغرب في أول وقتها لأن ذلك أفضل عند من رأى وقت الاختيار لها يتسع إلى مغيب الشفق وهو ظاهر قول مالك في موطئه، وقد قيل إنه ليس لها إلا وقت واحد فلا يجوز أن تؤخر عنه إلا لعذر", وأضفت "وحسب علمي المتواضع فإن المرة الوحيدة التي ركع فيها مالك قبل المغرب كانت حين ما ألجأه إلى ذلك غلام حدث سأله – وهو يراه داخلا المسجد - قائلا "ألا تركع يا إمام؟" فركع مالك كارها، ولما راجعه في ذلك أحد طلبته قائلا "كنت تكرهها قبل المغرب؟" فأجابه "لقد خشيت أن أكون من الذين إذا قيل لهم أركعوا لا يركعون"، في نهاية النقاش بدا أن كلا منا متمسك برأيه على عادة الفرقاء السياسيين في بلدان العالم الثالث.

أمنا في صلاة المغرب سعيد الغيني، ذلك الشاب قصير القامة ذو البشرة الفاحمة والوجه النيِّرِ، والذي أعطي مزمارا من مزامير داود، لقد حلق بنا في عوالم إيمانية بعيدة لا يدرك مداها إلا العارفون بمقامات التجلي حسب وصف المتصوفة.

بعد الصلاة اتسع النقاش ليتطرق إلى الهجرة وأسبابها، وحال الجالية المسلمة في اليونان وما تعانيه من تمييز عنصري ومضايقات من قبل المتعصبين اليونانيين والنازيين الجدد.

لاحظت طوال مدة نقاشنا أن الكهل المصري لم يكن يشارك في النقاش، فقلت ممازحا بلهجة مصرية "إنت رأيك إيه يا حاج؟"، فرد قائلا: "لا ينبغي تناول مواضيع السياسة في المساجد"، قلت له: "رأي من هذا؟"، قال: "كل العلماء يقولون ذلك"، فقلت له: "إن الخوض في السياسة الذي لا يؤدي إلى إثارة الشحناء ورفع الصوت عاليا لا بأس به في المسجد، ودليل ذلك ما رواه مسلم من حديث جابر بن سمرة أنهم كانوا يتحدثون في المسجد فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون والرسول صلى الله عليه وسلم ينظر إليهم ويبتسم", فقال الجزائري ضاحكا: "إن أخانا المصري يخاف أن يسمع صوته فيقبض عليه ويرحل, ولم نغادر المسجد إلا بعد صلاة العشاء التي أمنا فيها هشام الجزائري بصوته المغاربي الشجي الندي".

النبيذ الأحمر

كانت الساعة تقارب الثامنة والنصف مساء، وقد بدأ السكون يخيم على ذلك الحي من أثينا.

يبدو أن الليل في أثينا يختلف عن نظيره في باريس أو روما حيث قلب العاصمة لا ينام، ربما كان للأزمة الاقتصادية الخانقة لليونانيين دور في ذلك.

قبل الصعود إلى غرفتي رقم 514، عرجت على المطعم واخترت وجبة عشاء خفيفة من البوفيه المفتوح حرصت على أن تقتصر على ما تنبت الأرض من خيرات وتجنبت اللحوم لعلمي أن مضيفي قد يفضلون فخذ الخنزير على كتف الخروف، وعلى فرض المذبوح ليس خنزيرا فإن النقاش في ذلك الوقت حول طريقة التذكية وهل توفرت شروط "سورة المائدة" في المذكي.. كل ذلك قد لا يكون الوقت ولا المكان مناسبين له، ومن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وما هي إلا زفرة جوع ولا أبالي بأي شيء دفعتها.

جلست إلى طاولة منفردة وحولي مجموعة من السياح تدل عيونهم الضيقة وألوانهم الزعفرانية على أنهم من شرق آسيا.

أقبلت النادلة الشابة تدفع أمامها عربة الشراب التي اصطفت فوقها كاسات من فصيلة ال Cuvee Prestige المستخدمة حصرا للنبيذ الأحمر، نعم، إن الحضارة الغربية التقليدية المترفة والمهتمة بـ"الإتكيت" إلى حد الهوس تفرد لكل مشروب آنيته الخاصة.

كانت الكاسات نصف مترعة وقبل أن تضع النادلة إحداها على طاولتي سألتها: "ما هذا؟"، فأجابت: "إنه نبيذ", إنتابني ما يشبه الغثيان وشعرت بشيء من الغضب الذي لم يكن في محله.. فأنا لست في إحدى القرى المترامية على أديم صحرائنا الواسعة حتى أستهجن ضيافتي بكأس نبيذ أحمر، والنادلة إنما تحاول بأمر القائمين على الفندق إكرام النزلاء إلى أبعد حد ولا علاقة لها بالحلال والحرام، كتمت غيظي وقلت لها: "لا أريد أن تلامس الكأس طاولتي"، فأجابتني باستغراب: "ولكنه مشروب مجاني على

حساب الفندق", قلت: "ولو كان مجانيا", نظرت إلي باستغراب من لا يعلم أن الخمر أم الكبائر،

قلت لها وقد انسدت شهيتي "أريد كأسا من عصير الفواكه"، قالت: "ولكنها ستضاف إلى حسابك فهي ليست مجانية"، قلت: "لا بأس".

ذكرتني مجانية الخمر دون المشروبات الأخرى – ولو كانت مياها معدنية – برحلاتي فترة التسعينيات عبر الخطوط التونسية حيث كان المضيفون يقدمون علب البيرة التونسية (Seltia) للراغبين دون حد ولا حساب، كان المسافر يستطيع أن يطلب منها ما شاء. متى شاء مع ابتسامة تحمل معنى التشجيع من قبل المضيف، غير أن نفس المضيف لا يخفى امتعاضه من المسافر الذي يطلب كأس ماء خلال الرحلة أكثر من مرة واحدة حتى ولو كان غرضه ابتلاع قرص مهدئ.

لكنني كنت حقيقة غير عادل في استهجان تقديم النادلة لكأس النبيذ، فما الذي يجعل فتاة يونانية من جزيرة Santorini على الأرجح، وهي جزيرة مشهورة بإنتاج أجود أنواع النبيذ..، ما الذي يجعلها تتوقع رفض شاب مثلي لكأس نبيذ مجانية ومعتقة من الكروم النائمة في حضن جبل Filerimos بجزيرة Rhodes اليونانية.

اقتحام الغرفة

بعد العشاء. صعدت إلى غرفتي، أخذت جهاز تحكم التلفاز وتنقلت بين القنوات التي كان معظمها ناطقا باليونانية.

كان من عادتي، إن عزمت على زيارة أي بلد، أن أحفظ كلمات وجملا بسيطة من لغة أهله فقد يحدث أن تصادف أحيانا مواقف لا تمكنك فيها لغة شكسبير أو موليير من الحصول على شربة ماء على ظمأ، لذلك وجريا على تلك العادة أخذت – قبل سفري – أردد جملا من اليونانية بطريقة ببغائية لكن دلالاتها اختلطت في ذاكرتي لضيق الوقت.

كان من بين تلك الجمل مثلا Pasari sta Karvouna التي كنت طوال الرحلة وبكل ثقة أقذف بها في وجه كل من أقابله معتقدا أنها تفيد السؤال عن حال المخاطب ليتضح لي لاحقا أنها تعني طلب وجبة من السمك المشوي، أغلقت الجهاز وحاولت الخلود إلى النوم.

كان الطرق على الباب شديدا وقبل أن أستجمع تفكيري سمعت صوت انكسار المزلاج ليقتحم الغرفة رجال مدججون بالسلاح، كانت ملامحهم مبهمة ويحملون بنادق غير مصنفة كتلك التي نراها في "أفلام الآكشن".

أصدر إلي أحدهم أمرا حازما باللغة اليونانية لم أفهمه ليتدارك الآخر قائلا بلغة إنجليزية واضحة: "استسلم ولا تقاوم فالمنطقة محاصرة بالكامل"، وقبل أن أرد كانوا قد اقتادوني عبر السلالم الضيقة حتى وصلنا الاستقبال في الطابق الأرضي.

كنت مستغربا لمَ لمْ يستخدموا المصعد لكن ذهني انشغل بما أنا فيه من ورطة، فجأة وجدتني أقف أمام النادلة التي كانت تود إكرامي ليلة البارحة بكأس النبيذ، فتذكرت أن ردي عليها كان حادا نوعا ما، قالت النادلة: "نعم إنه الشاب الذي صاح في وجهي ليلة البارحة" لتأيدها أصوات طابور من السياح الآسيويين الذين كانوا

قد اصطفوا خلفها كما يصطف الكورال وراء المغني، أما مسؤول الفندق فقد شهد قائلا: "لقد رأيته دخل ذلك المكان الخاص بالمسلمين"، وبعد لحظة صمت انطلق صوت جهوري من مكان غير بعيد قائلا: "أقتلووووه".

وضع أحد المجندين فوهة البندقية على صدغي الأيمن وضغط على الزناد لكن صوت الرصاصة اختلط بصوت المنبه الذي كان يعلن تمام الخامسة فجرا..

لقد كان حلما مزعجا، استفقت منه وأنا أتصبب عرقا, مددت يدي نحو كأس ماء كانت قريبة مني وشربتها دفعة واحدة, دارت في ذهني لقطة من "مسلسل رأفت الهجان" ذات كابوس مرعب استيقظ منه موقنا بالتفاف حبل المشنقة حول عنقه بعد ما كشفت حقيقته لكنه أيضا كان حلما, قلت لنفسي "ولكنني لست جاسوسا ولا أدعي أنني في مهمة وطنية ولا أذكر أن عشائي البارحة كان دسما أو مالحا لقد اقتصر على بعض الخضار المسلوقة تماما كعشاء راهب من التبت, إنه الشيطان عليه اللعنة".

كنت قد علمت أن الصلاة تقام تمام الخامسة وعشرين دقيقة، نزلت إلى المصلى، كان سعيد الغيني جالسا ولم تزدد جماعتنا إلا بشاب مصري واحد، صلينا الفجر وكانت قراءة سعيد في منتهى الروعة والخشوع، الوقت والمكان وذاك الأعجمي الناطق بلسان عربي مبين كلها عوامل منحت صلاة فجرنا طابعا خاصا.

عدت إلى الفندق بعدما ودعت سعيدا، تناولت فطوري واستأنفت جولتي الاستكشافية لمعالم مدينة أثينا وشواهد حضارتها القديمة العريقة، حيث وقفت على أطلال

"لآكروبوليس" (Acropolis) لأضع يدي على أحد أهم الأسباب التي دفعت باليونان إلى كره المساجد عموما والمآذن خصوصا.....

لِمَ يكرهون المساجد؟

إنّ ال Acropolis الذي يعني "البناء العالي" باللغة اليونانية، والذي ينتصب على شاهق صخري يرتفع 450 قدما عن سطح البحر, يعتبر رمز الحضارة والعمران في اليونان القديمة، وكانت السيطرة عليه من قبل أي حاكم يوناني تعني فعليا سيطرته على اليونان كلها وتمثل بالتالي شرعية لحكمه.

وكان هذا المعبد في الغالب مكان إقامة أو قصر للملك الحاكم، كما كان يستخدم قلعة عسكرية وموقعا يلجأ إليه سكان المدينة في حالات الطوارئ، إضافة إلى أنه يضم أهم تماثيل الآلهة اليونانية.

ورغم أن تاريخ أول تشييد له ليس معروفا بالتحديد، إلا أنه يرجح أن يكون خلال الألف الثانية قبل الميلاد، ليتعاقب حكام أثينا بعد ذلك على تدعيم مبانيه والإضافة إليها, إلا أن أكبر عملية إعادة بناء له ، كانت على يد المهندس المعماري Pericles خلال القرن الخامس قبل الميلاد، حيث قام هذا العبقري بإعادة بناء ال Acropolis ليتشكل من أربعة مبان رئيسية وهي "معبد البارثنون", "بوابة بروبيليون", و"معبد أثينا", و"معبد أريخثيون"، ليصبح ذلك الصرح أحد أهم وأشهر المعالم المعمارية في التاريخ القديم والمعاصر.

لم يكن دوق أثينا "نيريو أكيابولي" يعلم حين اتخذ قراره سنة 1387م بالانتقال للإقامة في "الآكروبوليس" مخرجا بذلك منه

رئيس أساقفة أثينا الذي كان قد اتخذه سكنا في عهد الصليبيين.. لم يكن الدوق المسكين يعلم أن عيشه الرغيد فوق الصخرة المقدسة لن يدوم طويلا وأن ذلك سيكون على يد الأتراك أعداء اليونان التقليديين.

كان فتيل مدفع "الدولة العثمانية" الذي اشتعل مطلع القرن الثاني عشر قد وصل بيت النار وانطلقت قذيفة الجهاد والفتوحات الإسلامية التي ما كان لشيء أن يقف في وجهها خلال القرون الأربعة التي أعقبت ذلك.

وكان "بايزيد الأول" وهو رابع السلاطين قد أقسم لتوه – أثناء مراسيم توليه السلطة عام 1389م– على أنه لن يتراجع عن غزو أوروبا قبل أن يطعم فرسه الشعير في مذبح القديس بطرس في الفاتيكان، ولولا غدر الخسيس علاء الدين أمير القرمان – وحظ السلطان العاثر الذي أوقعه في طريق النسر الجارح تيمور لنك – لأبر بقسمه.

لقد استطاع السلطان "بايزيد" – الذي كان يلقب "يلدرم" أي "الصاعقة" باللغة التركية – أن يوجه طعنة نافذة في صميم الكبرياء الصليبي عموما واليوناني خصوصا وذلك باستيلائه سنة 1394م على "الآكروبوليس" كجزء من الأراضي التي اكتسحها عقب نصره المبين على الصليبين في "معركة نيكوبوليس".

فر دوق أثينا المنحوس جهارا نهارا، وقام السلطان الذي كان مغرما ببناء المساجد – في خطوة لها أكثر من دلالة – بإحاطة صرح "الآكروبوليس" الشامخ بالمآذن وحول "معبد بارثينون" إلى مسجد كان الأذان من خلاله يشق سماء أثينا خمس مرات في اليوم لتسمع جملة "حي على الصلاة" مدوية في كافة أرجائها.

لقد ارتبطت المآذن والمساجد – حسب اعتقادي– منذ ذلك الحين عند اليونانيين نفسيا بالهزيمة المدوية التي لحقت بهم، وأعتقد أن ذلك الشعور المتوارث عبر الأجيال ولد ردة فعل تمثلت في معاداة كل ما يتعلق بالمساجد وأهلها.

لكن استعادة "الآكروبوليس" ظلت هدفا حيا في نفوس اليونانيين بدأت ملامح تحقيقه تلوح في الأفق مع انطلاق أول شرارة في الثورة اليونانية عام 1821م، وقد تم لهم ما أرادوا على يد القائد الثائر "أوديسيس أندروتسوس"، الذي بسط نفوذه على حدود الصخرة المقدسة بالكامل عام 1833م ليستعيد اليونانيون بذلك سيطرتهم على رمز حضارتهم الأول بعد قرون من احتلاله من قبل الأتراك، وليبدأ المسلمون اليونانيون رحلة معاناة لم تنته حتى يوم الناس هذا.

في الطريق إلى المطار عبر شاطئ Glyfada حيث تترامى الفنادق الفخمة، كان المصطافون يزدحمون على الشاطئ الفيروزي كازدحام النمل على فتات السكر.

وصلت إلى المطار تمام الواحدة ظهرا، ودون الدخول في أي طابور استلمت بطاقة صعودي من إحدى ماكينات إجراءات الصعود الذاتية المنتشرة في المطار، ودعتني إحدى شرطيات مراقبة الجوازات بابتسامة تشبه إلى حد بعيد تلك التي استقبلتني بها زميلتها يوم دخولي، الفرق الوحيد الذي خيّل إلي هو أن الأولى حملت مغزى ترحيبيا في حين انطوت الثانية على ملمح توديعي، المهم في الحالتين أن ملامح الشرطية تترك لديك انطباعا بأنك شخص مرغوب فيه عكس ملامح (صاحبنا) التي توحي بأنك واتره الذي كان يبحث عنه لينال منه ثأره.

أقلعت الطائرة عند تمام الثانية ظهرا، ألقيت نظرة وداع من النافذة حيث بدت البيوت المغطاة بالقرميد الأحمر، والتي ترتمي بين أحضان غابات البلوط والسنديان، كأنها حبات كرز بري في شجرة قطلب.

من الطائرة، وعلى ارتفاع 9,000 متر، تبدو الجزر اليونانية الغاربة المتناثرة في البحر اللازوردي كقطع من الزمرد على منديل من الياقوت.

بعد أقل من ساعتين كان قائد الطائرة يعلن عن ضرورة شد الأحزمة استعدادا للنزول نحو "مطار أتاتورك الدولي" في مدينة إسطنبول.

الطريق إلى عاصمة الضباب

بعد أيام في تونس العاصمة استعدت من خلالها شريط الذاكرة لفترة أمضيتها في نفس المدينة قبل عشرين حجة خَلتْ، كانت الساعة تقارب الثامنة مساء عشية الرابع عشر من شهر مارس في "مطار تونس قرطاج"، الجو ممطر وبارد كأن الشتاء أراد أن تظل ذكراه ماثلة في أذهان ساكنة تونس العاصمة والعابرين خلالها حتى وهو يودع مفسحا المجال أمام دخول فصل الربيع.

في طابور الإجراءات غير الطويل، حيتني فتاة طويلة، محجبة، نحيفة، قمحية اللون، ذات ملامح هادئة ووجه مدور، سألتني إن كنت متجها إلى باريس قلت: "نعم"، قالت: "حسنا لدي عرض لك، ستدفع ثمانية دنانير تونسية وعند الوصول ستجد شخصا في استقبالك يحمل لافتة كتب عليها اسمك سيوصلك إلى أي عنوان في باريس وبعد الوصول تدفع له خمسة وعشرين يورو".. وجدت العرض مناسبا – رغم ارتفاع التكلفة مقارنة بسعر القطار – لأنني سأصل باريس عند منتصف الليل تقريبا وسيكون الجو باردا إلى أبعد الحدود, فقبلت العرض دون تردد وقامت الفتاة بالإجراءات اللازمة.

بُعيْد التاسعة مساء كانت الطائرة تمخر عباب الجو الغارق في السحب الكثيفة متجهة إلى "عاصمة النور" (باريس) لتصل "مطار أورلي" بعد ساعتين ونصف من السباحة جوا.

في المطار، وأنا أتفحص اللافتات المرفوعة، وقعت عيني على اسمي مكتوب على لافتة يرفعها شاب خلاسي ينحدر– على ما

يبدو – من إحدى جزر ما وراء البحار الفرنسية، بادرني قائلا: "هل أنت السيد أمون؟"، قلت: "أجل"، قال: "مرحبا بك في باريس تفضل معي"، وأخذ الحقيبة من يدي.

بعد دقائق كان الباص الصغير يشق طرقات باريس وشوارعها ليوصلني قبيل منتصف الليل إلى فندق Timhotel Jardin des Plantes الواقع في قلب "الحي اللاتيني" والمحاذي لمسجد باريس الكبير، سلمت رقم حجزي المسبق لموظف الاستقبال ثم صعدت إلى غرفتي وخلدت إلى النوم.

صليت الفجر في "مسجد باريس الكبير"، وانتابني شعور عارم بالألفة بعد ما قرأ إمامه الشيخ "دليل أبو بكر الجزائري" الفاتحة برواية ورش عن نافع وقنت في الركعة الأخيرة، أحسست حينها كأن زمان غربتي ينحسر لتطل من ورائه مساجد أدمن عُمَّارُها قراءة نافع وإتباع مذهب مالك أبا عن جد.

العاشرة صباحا كنت في الطريق إلى "مطار شارل ديغول" لاستقل رحلة الخطوط الجوية الفرنسية المتوجهة إلى "مطار هيثرو" بلندن.

في مطار هيثرو

يقع مطار London Heathrow الذي يعتبر أكبر المطارات البريطانية، وثالث أكثر مطارات العالم ازدحاما من ناحية حركة المسافرين – يقع غرب العاصمة البريطانية لندن وقد استمد اسمه من قرية Heath Row التي بني على أنقاضها.

ومع أن حركة الطيران فيه بدأت عقب الحرب العالمية الأولى إلا أنه تحول إلى مطار مدني بمعني الكلمة في الأول من يناير 1946م وأقلعت منه أول رحلة طيران مدني في 25 مارس 1946م متوجهةً إلى بوينس آيرس.

بعد سفر آخر، عبر ردهات المطار الضخم، وصلت إلى أحد شبابيك ختم الجوازات حيث تجلس شرطية إنجليزية في منتصف الأربعينات, بدا من خلال سحنتها السمراء أنها من أصل هندي, استلمت الجواز من يدي وقد ارتسمت على محياها ابتسامة لا علاقة لها بالإغراء وقالت وهي تتفحص الجواز والتأشيرة: "موريتانيا!", كانت نبرتها تحمل مزيجا من الاستغراب والاستفهام, قلت: "نعم, موريتانيا"، محددا مكاننا الجغرافي على الخريطة.

قالت: "لا أذكر متى مرَّ خلال شباكي أحد مواطني دولتكم"، فقلت: "وأنا أحاول كبح موجة من الحمية الوطنية كانت تجتاحني لحظتها: "نحن بلد لا يزيد عدد سكانه عن ثلاثة ملايين نسمة وبحكم ارتباطنا بالثقافة الفرانكفونية فإننا غالبا ما نتوقف فور وصولنا إلى الشاطئ الجنوبي لبحر المانش", كررت نفس الابتسامة وسلمتني الجواز.

على عتبة إحدى بوابات الخروج اعترض طريقي رجل خمسيني وسلم على قائلا: "أنت مغربي؟"، قلت: "بل موريتاني"، فقال ضاحكا: "كلنا عرب، أنا من الجزائر"، ودون أن يستأذن أخذ الحقيبة من يدي وقال: "أين وجهتك؟"، قلت: "لدي حجز في فندق Danubius hotel regents park"، قال: "تفضل"، قلت: "كم أجرتك؟"، قال: "مبلغ بسيط 55 باوندا فقط"، قلت، ونحن نسير نحو السيارة: "وهل هذا مبلغ بسيط؟"، قال: "نعم"،

وبدأ يتحدث عن صعوبة العيش والظروف الاقتصادية للعرب المهاجرين. قلت له على سبيل الممازحة: "ولكنك لن تحل كل تلك المشاكل من خلال ما سأدفعه لك، وعلى كل حال سأدفع لك 50 باوندا", قال وهو يضع حقيبة سفري في السيارة: "لا مشكلة، تفضل".

يقع الفندق في منطقة Regents park وهي واحدة من الحدائق الملكية العريقة حيث يتكئ جزء منها على مدينة Westminster شمال غربي لندن، في حين يتكئ الجزء الآخر على ما يعرف بـ London Borough of Camden وهي تضم العديد من معالم لندن المشهورة.

كان الطريق من المطار سالكا لكن الشوارع كانت تضيق وتتحول إلى أزقة كلما اقتربنا من قلب المنطقة، وبعد قرابة الساعة توقفت سيارة المرسيدس أمام الفندق حوالي الثالثة والنصف عصرا.

كنت أعلم أن "مسجد لندن المركزي" (London Central Mosque) يبعد عن الفندق حوالي ثلاث مائة متر تقريبا وكانت صلاة العصر قد اقتربت.

مسجد لندن المركزي

شهدت الفترة الممتدة ما بين 1900م و1931م محاولات حثيثة من أطراف عديدة بهدف السماح ببناء مسجد في لندن، وكان أبرز من تحرك في ذلك الشأن هو اللورد Rowland George

Headley، الذي كان قد اعتنق الإسلام عام 1914م وأدى فريضة الحج وغير اسمه إلى "الشيخ رحمة الله الفاروق".

لكن حجر الأساس لما سيعرف فيما بعد بـ"المركز الإسلامي بلندن" لم يتم وضعه إلا يوم 4 يونيو 1937م من قبل سمو الأمير AZAM JAH الابن الأكبر للسيدOSMAN ALI KHAN آخر حكام "دولة حيدر أباد".

وافقت الحكومة البريطانية مطلع 1940م على مبدأ تخصيص مكان لمركز إسلامي ومسجد يمارس من خلالهما المسلمون شعائرهم الدينية، واعتمد ديوان حرب رئيس الوزراء البريطاني Churchill في 4 أكتوبر 1940م مبلغ 100,000 جنيه إسترليني كمساعدة في بناء المركز وذلك – حسب البيان – اعترافا بحق المسلمين في ممارسة عبادتهم وتكريما لأرواح آلاف الجنود المسلمين الذين ماتوا دفاعا عن علم أبريطانيا العظمى.

قرر سفراء الدول الإسلامية قبول الهدية، وتم اعتماد مقر المركز الإسلامي المشتمل على المسجد، والذي تم افتتاحه في أكتوبر عام 1944م من قبل جلالة الملك جورج السادس، الذي يقال إنه وافق على منح مقر المجمع مقابل حصوله على قطعة أرض بالقاهرة لبناء "الكاتدرائية الأنغليكانية".

ظل موضوع تصميم البناء النهائي للمركز والمسجد يراوح عبر أروقة القرار البريطاني حتى سنة 1969م، حيث أعلن عن مسابقة دولية لتصميم مخطط المركز والمسجد، شارك فيها أكثر من مائة متسابق من المهندسين المعماريين المسلمين وغير المسلمين ليقع الاختيار سنة 1972م على تصميم للمهندس المعماري البريطاني السير Frederick Gibberd ويعلن فائزا بالمسابقة.

صمّمَ المهندس العبقري "مسجد لندن المركزي" جاعلا منه – بعد أن انتهى بناؤه سنة 1978م – تحفة معمارية تمثل أحد أبرز مزارات منطقة Regents park، حيث تميز بمنارته التي تمثل مزجا بين الطراز المعماري المشرقي والتركي، كما صمم له قبة ذهبية تجعل الرائي دون تفكير يربط صلة قرابة بينها مع قبة الصخرة في القدس الشريف.

بدأ البنَّاء في تنفيذ المخطط عام 1974م بعد أن تكفل كل من الراحلان الملك فيصل بن عبد العزيز والشيخ زايد بن سلطان آل انهيان (رحمة الله عليهما) بتوفير ميزانية تنفيذ المخطط، الذي شمل ملحقات المسجد من قاعة للصلاة خاصة بالنساء ومكتبة إسلامية ومجمعا سكنيا ومحلات خاصة ببيع المنتجات الإسلامية من ملابس وغيرها، كما اشتمل المجمع على مقهى ومطعم يقدم الوجبات المرغوبة من قبل أفراد الجاليات المسلمة.

وفي سنة 1994م تمت توسعة المجمع من خلال إضافة مركز تعليمي ومبان إدارية وذلك بتمويل من الراحل فهد بن عبد العزيز رحمه الله.

مدينة الضباب... أصل التسمية

كان سكان مدينة لندن يستخدمون قديماً الخشب للإنارة وتوليد الطاقة وذلك قبل الثورة الصناعية وقبل استخدام الفحم، ولطبيعة احتراق الخشب التي تنتج دخانا كثيفا، ومع انتشار وكثافة الضباب الطبيعي في الشتاء، كان دخان الخشب يمتزج بالضباب الطبيعي مما ينتج عنه دخان كثيف يغطي سماء المدينة ويحجب

الرؤية بشكل كامل، ومن هذا الوضع اكتسبت لندن تسمية "مدينة الضباب".

لندن قطعة من الماضي تعيش في الحاضر، إنها مدينة لم يتغير فيها منذ قرون متعاقبة سوى البشر، وبعض المباني.. لكن معظم الأحياء القديمة والشوارع التي وطأتها أقدام من رحلوا قبل قرون، كل ذلك ما زال قائما ولم يطرأ عليه من تغيير سوى ما فرضته الطفرات التكنولوجية المتعاقبة.

ورغم الدمار الهائل الذي أحدثه الحريق الكبير الذي فغر فاه وأقبل جائعا يوم الأحد الثاني من سبتمبر سنة 1666م ولم يشبع حتى يوم الأربعاء الخامس من الشهر نفسه، إلا أن أجزاء كبيرة من المدينة ظلت عصية عليه وانتفضت أجزاء أخرى منها فور هلاك التنين لتنهض من تحت الرماد كطائر العنقاء الأسطوري,

ورغم أن ذلك التنين الهائج أتى على سبعين ألف منزل وابتلع كنائس وقصورا إلا أن قصر الملك "Charles II"، المعروف بـ The Whitehall Palace، والذي ما يزال منتصبا حتى الآن على شارع البرلمان في قلب لندن، وقف في وجهه مانعا إياه من التحلية بحي "ويستمن ستر" الأرستقراطي.

لم يكن هتلر أرأف بمدينة لندن من الحريق الكبير، فقد أمطرها بملايين الأطنان من القنابل خلال الحرب العالمية الثانية، لكن لندن عادت ولبست فستان الزفاف ورقصت في موكب المنتصرين على جثمان القائد النازي.

خلال تسكعي بعد صلاة العشاء – وكان البرد قارسا – تذكرت قول الطيب صالح في روايته "موسم الهجرة إلى الشمال" واصفا

مدينة لندن: "هي بلاد تموت من البرد حيتانها", لقد كانت فعلا كذلك.

ورغم أنني لم أدخن طيلة حياتي إلا أنني ودون شعور وجدتني أتتبع مصدر خيط دخان نرجيلة شامية زكم أنفي وأشعرني بشيء من الدفء، لأكتشف انبعاثه من مطعم غير بعيد فدخلت دون تفكير، وقبل أن أجلس تقدم إلي النادل الذي كان شابا مصريا عارضا خدماته، وبعد أن ملأت "التي لا تحمل الزاد" قفلت راجعا إلى الفندق ونمت.

بعد صلاة الفجر عدت إلى الفندق وأعددت فنجان قهوة ولم أغادر الغرفة إلا ضحى..

خرجت من الفندق أتجول في شوارع وأزقة تلك المدينة المحنطة، التي ما زالت تحتفظ بكثير مما وصفها به Thomas Dekkar عام 1606م في كتيبه الذي عنونه بـ"الخطايا السبع القاتلة في لندن" (The Seven Deadly Sins of London).. لقد شاهدت معظم ما تحدث عنه من صخب المدينة وازدحامها، وانتشار الفنادق الصغيرة والحانات والأكشاك وورش العمل والتجار والمتسوقين والبياعين وبعض الكلاب والقطط والمتسولين، هذا عن الوجه الظاهر للمدينة، أما ما خفي عن الأعين – والذي تحدث عنه الكاتب من فجور وبيوت دعارة وصفقات مشبوهة ومرابين وقوادين ولصوص ومجرمين – فلم أهتم كثيرا بالبحث عنه رغم تأكدي من وجوده، ربما اختفت من لائحة الكاتب التي ذكر الخنازير والأغنام والأبقار التي كانت في زمنه تزاحم المارة في أزقة المدينة.

الملفت في الأمر أن معظم البيوت لم تتغير وما زالت تحتفظ بكينونتها بكل تفاصيلها وجزئياتها فكأن مئات السنين التي مرت كانت تعبر مسرعة فتنزلق عبر ظهورها الحدباء الملساء دون أن تخلف أثرا يذكر.

واصلت السير على الأقدام عبر ال Regents street باتجاه حديقة الHyde Park، كنت أتأمل بتعجب تلك المباني المعمرة، التي ظلت تحتفظ بملامحها رغم عوادي الزمن وتعاقب الجديدين، ورغم ما اختزنت ذاكرة جدرانها من أفراح وأتراح أجيال تعاقبت على العيش فيها.

دخلت الحديقة من بوابة ال Marble arch الشهيرة، والتي يتخذها اللاجئون في بريطانيا منبرا لعرض قضاياهم السياسية على الرأي العام العالمي حيث لا تخلو من مخاصم بحق أو باطل عن قضية معينة.

صادف مروري وجودَ تجمع من البحرينيين المعارضين للنظام القائم وقد بدا من خطاباتهم أنهم ينتمون إلى الأقلية الشيعية، ولأن السياسة لا تستهويني فقد أكملت طريقي نحو The Serpentine Lake (البحيرة الأفعوانية) الواقعة في قلب الحديقة.

على ضفاف البحيرة كنت أرقب طيور البجع السابحة على صفحة الماء في سكون وخشوع كأنها تستسقي بعض خيوط الشمس حتى تتمكن من نفض ريشها, كأن تشايكوفسكي كان جالسا هناك يصور المشهد حينما حكى قصة "الأمير سيغفرايد" من

خلال رائعته الاستعراضية الخالدة "بحيرة البجع"، التي جسدت على مسرح البولشوي بموسكو في 4 مارس 1887م.

تشعرك روائح الشواء المنبعثة من أفران مطعم Serpentine – المتربع غير بعيد من البحيرة – بالجوع رغما عنك فلا تملك إلا أن تطلب قطعة "بيتزا" مشوية على الفحم ومعدة بطريقة مميزة.

غادرت الحديقة متجها نحو محطة Piccadilly حيث تنطلق معظم الحافلات في جولات سياحية تحمل الركاب إلى أبرز المعالم والمزارات في مدينة لندن.

توفر حافلات ال Hop On Hop Off خدمة مميزة للركاب وذلك بتمكينهم من الهبوط في أي محطة أو معلم سياحي شاؤوا ومن ثم الصعود مجددا في حافلة تابعة لنفس الشبكة بعد أن يكون السائح قد اكتفى من مشاهدة الموقع الذي هبط فيه, وتمر حافلة تابعة لنفس الشبكة كل خمس عشرة دقيقة من نفس المحطة فإن شاء السائح استقلها وإن شاء انتظر ربع ساعة آخر.

تتوفر الحافلات السياحية على محطات للبث ناطقة باثنتي عشرة لغة تلعب دور الدليل السياحي للراكب من خلال السماعة التي يستلمها فور صعوده ويأخذها معه عند الهبوط لأنها ببساطة لا تستعمل مرتين.

يتمكن الراكب من خلال تلك السماعة من سرد تفصيلي تزامني لتاريخ كل ما يقع على مسار الحافلة من بيوت وشوارع وأزقة وبنايات وقصور وجسور إلى آخره، وعندما تتوقف الحافلة بفعل الزحمة مثلا يتوقف الشريط وتبث مكانه مقطوعة موسيقية لينطلق البث فور تحرك الحافلة ويطل صوت الدليل متزامنا مع المعالم التي يتحدث عنها دون تقدم أو تأخر، وإن حدث وغيرت

الحافلة مسارها مثلا فإن البث ينتقل إلى وصف المعالم الجديدة التي تغيرت بتغير المسار الأصلي للحافلة.

هنا في وسط المدينة وتحديدا في منطقة –Stratford–upon Avon، البيت ذاته الذي ولد فيه وترعرع وتزوج الكاتب الشهير وليام شكسبير سنة 1582م.

وهناك البيت الآخر الذي استأجره سنة 1604م من السيد Christopher وزوجته السيدة Mary ابنة اللاجئ الفرنسي Mount joy، قبل أن يمتلك شكسبير المال ويشتري بيته الخاص سنة 1613م بمبلغ 140 جنيها قرب مسرح Black friars.

بعد أن تكمل بك الحافلة دورة كاملة حول مثلث الحدائق (Green Park وJames Park وHyde Park) تصل إلى مبني البرلمان على ضفة "نهر التايمز" حيث مركز التاريخ اللندني.

لقد ظل "نهر التايمز" عبر قرون علامة مميزة وكتلة من التاريخ المتحرك حيث وصفه السياسي وأستاذ التاريخ البريطاني "جون بيرنز" في كتابه الشهير "التايمز" بـ"التاريخ السائل".

عبر مدخل النهر يستقبلك "جسر وستمن يستر"، الذي صممه المعماري الشهير "توماس بيج" عام 1862م، وهنا يتربع "قصر ويستمن ستر"، وساعة Big Ben التي تعتبر أشهر ساعات العالم وأقدمها حيث بدأت عقاربها في الدوران يوم 3 يونيو عام 1859م.

تواصل الحافلة سفرها عبر الزمن مرورا بمعالم يبلغ متوسط أعمارها ثلاثة قرون.. فهنا "قصر باكنغهام" (Buckingham Palace) المشيد سنة 1705م بغرفه 19 والذي يعتبر المقر الرسمي لملكة بريطانيا, وهناك "ميدان ترفلجار" (Trafalgar Square) حيث يوجد أقدم نصب تذكاري في لندن ويرجع تاريخه

إلى 1600م, وهنالك قصر Kensigton Palace المشيد قبل 300 سنة والذي كان مقر إقامة أميرة ويلز سيئة الحظ "ديانا".

حقيقة الأمر أن مدينة لندن هي قطعة من التاريخ بكل عبقه وعراقته، تعيش في الحاضر بكل تناقضاته وصخبه وتستشرف المستقبل من خلال اقتصاد دولة قوية بما يفتح لها الأبواب على مصراعيها لتعيش عبقا من الماضي يقاوم كل عاديات الزمن.

أيام... في بلاد سام

من التاريخ.....

"العالم الجديد"، "بلاد الأحلام"، "أرض الهنود الحمر"، "بلاد ما وراء بحر الظلمات"، أسماء كثيرة لما يعرف بالولايات المتحدة الأمريكية، تلك الأرض التي لطالما أغرت المستكشفين والمغامرين والمستعمرين بالوصول إليها.

ترجع بداية استيطان تلك الأرض – حسب أغلب المؤرخين – إلى 10 آلاف سنة خلت حينما نزح أوائل المهاجرين متخذين سبيلا عبر ممرٍّ أرضيٍّ كان بمضيق "Bering" بشمال شرق سيبيريا متصل بغرب قارة أمريكا الشمالية وذلك قبل انحسار ما يعرف بالعصر الجليدي الأخير.

استقرت تلك الشعوب وتكاثرت منذ آلاف السنين في ذلك العالم المعزول عن كثير من صراعات وحروب العالم القديم، لكنها لم تكن لتظل كذلك بعد أن بدأت وفود القادمين الجدد تكتشف الطريق نحو ذلك العالم الواسع والمسالم والآمن.

ورغم أن هناك من ركبوا البحر ووصلوا إلى العالم الجديد منذ ألف سنة تقريبا إلا أن الاستكشاف الرسمي لتلك الأراضي البكر ثم تسجيله للرحالة البرتغالي "كريستوف كولومبس" الذي وضع قدميه عام 1492م على "جزر البهاما" ليشعل من هناك الضوء الذي قاد – عبر "بحر الظلمات" – أفرادا وجماعات تقاطرت بحثا عن وطن جديد يوفر لها الأمن والاستقرار والثراء.

لكن الأكلة الجدد لم يأتوا ليتقاسموا القصعة مع ملاك المائدة، بل كانوا يريدون الاستفراد عليها وتسخير أصحاب الدار لخدمتهم، وهو ما فعلوه مستعينين بالأسلحة والخطط المستجلبة من "العالم القديم" فاستعبدوا بسهولة سكان "العالم الجديد" ذوي المعارف والأسلحة البدائية.

انتشرت أخبار ما وصل إليه المستعمرون الصغار من سلطة وثراء وسيادة على الأرض والبشر في "العالم الجديد"، فسال لعاب "القوى العظمى"، التي سيرت الجيوش لتبدأ مرحلة الاستعمار الكبير الذي كان أول ضحاياه الوافدون الجدد الذين هربوا من ظلم الأنظمة في "العالم القديم".

كانت "بريطانيا العظمى" حاملة لواء الاستعمار الجديد بلا منازع من خلال أساطيلها البحرية وجيوشها التي لا تقهر، فأقامت مستعمرات وبنت مدنا وجيشت خلقا، لكن المهاجرين الذين ذاقوا طعم الثروة والحرية ما كانوا ليقبلوا الخضوع للاستعمار من جديد، فبدأت إرهاصات الثورة التي قمعها البريطانيون بجيوشهم فقتلوا الكثير من البشر في مدينتي بوسطن ونيويورك، ما أشعل الحرب رسميا بين الطرفين عام 1775م من خلال معارك "Saratoga" الشهيرة، التي أعطت دفعا معنويا كبيرا للأمريكيين ليعلنوا عام 1776م من خلال "المجلس القاري الرابع" الاستقلال عن بريطانيا مكونين "الولايات المتحدة الأمريكية".

ظلت الحرب الضروس مستعرة حتى انتصر "المحليون" في 1781م في معركة "Yorktown" الشهيرة بفرجينيا ووقع المندوبون من جميع الولايات المتحدة على اتفاقية دستور البلاد التي تم التصديق عليها في سنة 1788م.

لكن الولايات المتحدة كانت على موعد مع خمس سنوات أخرى من الحرب الأهلية بين عامي 1861 و1865م أزهقت فيها أرواح 620,000 من أبنائها، لتنطلق بعدها من دولة ذات اقتصاد زراعي مهلهل تعتمد على استيراد المصنوعات، إلى أعظم وأغنى دولة صناعية وأضخم قوة حضارية حديثة تقود العالم في كل مجالات الإنتاج وتحتكر الأولوية والصدارة في أغلب المجالات العلمية وتضاعف عدد سكانها - خلال قرن ونصف - أكثر من خمسين مرة.

الولايات المتحدة – ومنذ ما يقارب القرن – كانت وما تزال وجهة للباحثين عن الفرص والمهتمين بالاستكشاف والمغرمين بالسفر والسياحة مثلي، لذلك كان لا بدَّ من ترتيب زيارة لذلك الجانب من العالم.

التحضير للسفر..

لعل أكبر عائق يواجه الراغب في دخول الولايات المتحدة الأمريكية هو دون شك الحصول على التأشيرة.

التأشيرة الأمريكية من أكثر تأشيرات العالم صعوبة لكثرة الشروط المطلوب توفرها في الشخص الذي يقدم لها واشتراط المقابلة الشخصية قبل منحها.

التقديم للتأشيرة..

لا أبغض في حياتي شيئا قدر بغضي للامتحانات ربما لأنني لا أتحمل أو أتصور الرسوب، لذلك ترددت كثيرا في التقدم لطلب التأشيرة الأمريكية كما لو كانت امتحانا أخاف من الرسوب فيه.

لكن، وبعد امتلاء صفحات جوازات سفري بتآشر الكثير من دول العالم قررت أن أواجه الأمر وأضع حدا للتردد الذي دام سنوات عديدة.

بدأت التحضير بقراءة الكثير عن تجارب من قدموا للتأشيرة الأمريكية، وقد وجدت في المنتديات "Forums" الهندية ضالتي، لقد كانت التجارب المنشورة بالآلاف وتجد من قدم للتأشيرة بشكل منظم على مدى سنوات ولم يحصل عليها بعد إلا أنه يظل يحاول ويحاول فالموضوع بالنسبة إليه مسألة مصيرية.

لقد بلغ الوضع في الهند حدا أن هناك "آلهة" تزار وتقدم إليها القرابين تحديدا للحصول على التأشيرة الأمريكية.

لقد قرأت الكثير من التجارب وعرفت ما الذي يجب فعله وما الذي يجب الابتعاد عنه، ما هي الأوراق الضرورية والتكميلية، ماذا يجب أن يقال في المقابلة الشخصية، كيف يتم إقناع موظف السفارة بقوة الحجة، متى يجب الاستطراد في الرد ومتى يجب الاختصار، إلى غير ذلك من المسائل المتعلقة من بداية تعبئة الشكلية الإلكترونية وتحضير الوثائق وانتهاء بإجراء المقابلة.

كانت بداية الإجراءات بتعبئة الطلب الإلكتروني " DS-160 Form"، بما يتطلبه ذلك من أجوبة على أسئلة تتعلق بالمعلومات الشخصية والعائلية والحديث عن المستوى الدراسي واللغات

المُتَحدَّثَة، ثم معلومات أخرى تتعلق بالأسفار السابقة لطالب التأشيرة، ثم عناوينه في بلد الجنسية وفي بلد الإقامة وعنوانه في الولايات المتحدة وأسباب الزيارة ومعلومات عن الذين سيلتقي بهم وعنوانه والأماكن التي سيزورها.

هذا طبعا بالإضافة إلى أسئلة كثيرة يتم الجواب عنها بالنفي أو الإثبات وتشكل نوعا من الإقرار أو التعهد المسبق من طالب التأشيرة على عدم مخالفة القوانين الأمريكية في الماضي أو في المستقبل.

إن كل ما يهم موظف السفارة الذي سيجري المقابلة هو أمر واحد، إنه يريد أن يتأكد من أن الشخص المتقدم للتأشيرة سيقضي المدة المحددة له ثم يعود.

ولأنني كنت أعتبر الحصول على التأشيرة كدخول امتحان يجب النجاح فيه فقد حضرت لذلك جيدا من حيث إعداد وترجمة الوثائق التي تؤكد ارتباطي القوي ببلد الإقامة وبلد الجنسية بحيث لا أترك مجالا للشك في أنني لست مهاجرا وإنما أنا مسافر لمدة محدودة سأعود بعدها بحكم قوة ارتباطي بما خلفت ورائي.

قمت بإجراءات التأشيرة بشكل شخصي ودون اللجوء للمكاتب التي ينخدع الكثيرون بخدمتها ويدفعون لها مصاريف مقابل خدمات لا يستغرق إنجازها أكثر من نصف ساعة.

حجزت موعدا للمقابلة ولا أنكر أن التفكير في أمرها شغلني الليلة التي سبقتها، عم سيسألون؟ كيف سيكون مزاج الموظف؟ هل ما حضرت من وثائق كفيل بإقناعه؟ .....

أوقفت سيارتي في موقف على شاطئ "خور دبي" غير بعيد من السفارة الأميركية وتقدمت حاملا شنطة يد مليئة بالوثائق استعدادا لمعركة المقابلة.

بعد التفتيش عند مدخل السفارة دخلت واستلمت رقما فنودي علي بعد مدة لأخذ بصمتي وانتظرت دوري لإجراء المقابلة.

لم يطل انتظاري طويلا فقد نودي على رقمي للتقدم نحو أحد الشبابيك، تقدمت بكل ثقة وسلمت للموظف جواز سفري ووصل الدفع وورقة التسجيل الإلكتروني وانتظرت أن يطلب مني الوثائق الداعمة لمناقشتها.

لم يستغرق الأمر أكثر من دقيقتين، كان الموظف خلالها منكبا على جهاز كمبيوتره ويسأل أسئلة شكلية من قبيل منذ متى وأنا مقيم في الإمارات؟ وكم عدد أبنائي؟...، ليسلمني بعدها قصاصة ورق حمراء ويقول: "لقد تم قبول طلبك وسيتم إرسال الجواز إليك – بعد وضع التأشيرة عليه – عن طريق البريد خلال يومين أو ثلاثة".

أحسست بفرحة مشوبة ببعض الغضب، لقد تعبت في تحضير كثير من الوثائق التي لم يكلف الموظف نفسه عناء إلقاء نظرة عليها، هل ستعود شنطة المحامي هذه مغلقة كما جاءت؟

استلمت الورقة وشكرت الموظف وغادرت باتجاه سيارتي.

بداية الرحلة...

صبيحة يوم الثلاثاء الحادي عشر من نوفمبر سنة 2014، كنت على متن الرحلة رقم: EK201 التي أقلعت من دبي على تمام

الساعة 8:30 دقيقة صباحا باتجاه نيويورك في رحلة مباشرة تستغرق (14 ساعة و30 دقيقة).

كانت تلك أطول رحلة جوية مرت علي، كنت على متن طائرة تابعة ل "طيران الإمارات" من نوع A380-800 التي تعتبر أضخم طائرة نقل ركاب عبر التاريخ، إنها "السوبر جامبو" ذات الطابقين التي يصل طولها 73 مترا، ووزنها 276 طنا، ومعدل سرعتها 1,050 كلم في الساعة بنطاق مسافة يقارب 16 ألف كلم، وقد يصل عدد ركابها إلى 855 راكبا.

كانت تلك العمارة الطائرة تحاول الانفكاك من قيد الجاذبية حاملة على متنها أكثر من 500 راكبا.

كانت الرحلة طويلة دون شك فنحن نتحدث عن أكثر من نصف يوم في الجو، تبدأ بدعاء السفر وتقرأ ما تيسر من القرآن وتشاهد الكثير من الأفلام والبرامج الوثائقية، وحتى نشرات الأخبار يكون لها نصيب من وقتك.

لقد ساهم توفير خدمة الإنترنت على "طيران الإمارات" كثيرا في التقليل من الشعور بالملل ذلك أن السباحة في مواقع التواصل الاجتماعي تأخذ من كل منا يوميا وقتا معلوما – رغم المشاغل – فما بالك بمن لا هم له إلا التقليل من ملل ساعات السفر الطويلة.

أجمل ما في "طيران الإمارات" أنهم يُعْلِمونك من خلال الشاشات بأوقات الصلاة واتجاه القبلة، كما أن هناك مكانا واسعا للصلاة بكل راحة واطمئنان.

تأكل وتشرب ثم تأكل وتشرب، تطلب الشاي فالقهوة ثم تعكس فتطلب القهوة فالشاي والمسافة لا تنحسر، قرابة ال 15 ساعة ليست بالوقت اليسير.

فكرت – وأنا على ذلك الارتفاع – ماذا سيحدث لو توقفت محركات هذا الحوت الأبيض الهائل؟ ولكن هذا شبه مستحيل، فهذه الطائرة مزودة بأربع محركات وهي تستطيع التحرك والهبوط بسلام مستخدمة محركا واحدا منها في حال اضطر الملاحون لذلك.

لكن الصدفة لا تعرف المستحيل، قد تتوقف كل تلك المحركات صدفة، فتحت "النت" وطرحت نفس السؤال فكان الجواب أن الطائرة في تلك الوضعية تستمر محلقة في حالة انزلاق لفترة طويلة جداً وتكون بسرعة 6 أميال بحرية لكل 5 آلاف قدم، ويكون التصرف أثناء ذلك الوقت متروكا للطيارين لإيجاد حل أو ترتيب هبوط اضطراري، لكن نجاة الركاب في حالة كتلك قد لا تحدث إلا في أفلام هوليود.

استعذت من الشيطان الرجيم واتصلت على بعض الأهل والأحباب عبر هاتفي فالشبكة الخلوية متوفرة، لكن شاشة الرحلة التزامنية أمامي أخبرتني بأنه ما زالت أربع ساعات على الوصول.

نمت واستيقظت ثم نمت فأيقظني صوت دافئ وناعم يطلب من الركاب ضرورة العودة إلى المقاعد وربط الأحزمة وإعادة المقاعد إلى الوضع الطبيعي استعدادا للنزول.

نظرت من النافذة فلم أرَ سوى الغيوم، إنه فقط مجرد استعداد للهبوط، هذه الطائرة العملاقة التي تحلق على ارتفاع 40,000 قدم، تحتاج إلى وقت لتستعد للهبوط.

لكن لمَ يصرون على إرجاع مساند المقاعد إلى الوضع العمودي؟ ألم يكن بإمكان الطائرة أن تهبط وأنا نائم ومتكئ على الكرسي فأكسب المزيد من الراحة؟ يقول الفيزيائيون إن الهدف

من ذلك هو محاولة توفير أي مجهود إضافي على الطائرة حيث أن وضع المقاعد في الوضع العمودي وتثبيتها وشكل الطائرة الدائري، كل ذلك يساعد على توحيد مركز الثقل في الطائرة لينتقل بدون أي مجهود يذكر إلى منتصفها، الأمر الذي يساعد في اتزان الطائرة، وبالتالي عدم الحاجة لأي طاقة إضافية لضبط توازنها.

شخصيا لست من أهل الفيزياء ولم تكن قط تستهويني وكل ما أعرفه أن الاستلقاء في رحلة طويلة كتلك أريح من الجلوس بشكل عمودي.

خلال ربع ساعة بدأت مياه المحيط الأطلسي تلمع تحت أشعة الشمس وبدأ الشاطئ الغربي لـ"بحر الظلمات" يلوح من بعيد، سفن مترامية على صفحة المياه الواسعة كأنها علب مشروبات فارغة في بركة مياه.

تمام الثانية بعد الظهر حطت الطائرة في مطار "جون كيندي" بنيويورك

في مطار "جون كيندي"...

يعتبر "مطار JFK" الواقع على "خليج جاميكا" بالجزء الجنوبي الشرقي من مقاطعة "Queens"، بمدينة نيويورك، أكبر مطار في الولايات المتحدة وأحد أهم المطارات الدولية في العالم وأكثرها حركية حيث يمر من خلال بواباته سنويا قرابة 22 مليون مسافر.

أنشئ المطار سنة 1943م وانطلقت منه أول رحلة تجارية في الأول من يوليو عام 1948م وكان اسمه حين ذاك "مطار نيويورك

الدولي"، ليحمل اسمه الجديد ابتداء من عام 1963م على اسم الرئيس الأمريكي جون كيندي.

يضم "مطار JFK" 8 أجنحة أو محطات (Terminals) وتستخدم "طيران الإمارات" "رقم 4" منها، والتي تضم لوحدها 38 بوابة.

تستقبل فور الخروج من السرداب الرابط بين الطائرة والمحطة Satellite terminal بالجنود الأمريكيين المسلحين، فرادى ومثنى، هنا وهناك، كما أنك قد تقابل مفتشي الجمارك في أي نقطة من المطار.

كنت قبل سفري من متابعي قناة "National Geographic أبو ظبي"، وكان برنامج "القبض على المهربين"، الذي تجري أحداثه في مطار "جون كيندي"، من أكثر البرامج التي تستهويني.

أذكر أني تابعت حلقة منه قبل سفري بليلة وكنت أقول: أرجو أن لا تستبدل حقيبتي أو توضع فيها ممنوعات دون علمي فيقبض علي وأظهر أمام العالم بالجرم المشهود.

دفعني الخوف من الوقوع في فخ الاشتباه في حقيبتي إلى الاعتذار – مُحرجا – لخالتي عن حمل كمية من دقيق السمك المجفف رغم عشقي لتناولها على الإفطار خاصة في فصل الشتاء.

دخلت ضمن أحد طوابير الداخلين وبدأت أتقدم شيئا فشيئا باتجاه شرطة الجوازات، قفزت إلى ذهني ملاحظة كنت قرأتها ذات مرة تقول إن مجرد منح التأشيرة لا يوجب استحقاق الدخول إلى الأراضي الأمريكية، وهو ما يعني منح سلطة تقديرية أخرى لشرطة الجوازات في منع الشخص من الدخول إن رأوا ما يستدعي ذلك،

وأذكر أنني قرأت عن حالات أشخاص تم إرجاعهم من المطار إلى دولهم قبل أن تطأ أقدامهم "أرض الأحلام".

مددت جواز سفري إلى الضابط وانتظرت أن يوجه إلي أسئلة من قبيل: "إلى أين أنت ذاهب؟ أين ستنزل؟ كم ستمكث في الأراضي الأمريكية؟".. لكن الضابط قطع علي سيل الأسئلة الذي كان يتدفق في ذهني فمد إلي الجواز بعد أن ختم مقابل التأشيرة محددا مدة الإقامة المسموح لي بها بستة أشهر، وهي أطول مدة تمنح للزائر غير المقيم، استلمت جوازي وواصلت السير باتجاه منطقة استلام الحقائب.

هروبا من الحيرة في أنواع الحقائب، كنت دائما أشتري حقيبة بلون مميز أو أضع عليها علامة خاصة حتى يسهل علي التعرف عليها ضمن مئات الحقائب العابرة.

استلمت حقيبتي وتوجهت إلى قطار من العربات كان غير بعيد مني، حاولت جذب إحدى العربات لكنها تمنعت، كانت تلك أول مرة أصادف فيها عربات تدفع النقود مقابل فكها، أعرف – في بعض مراكز التسوق– عربات يطلق سراحها مقابل قطعة نقدية صغيرة ويتم استرجاعها حال الانتهاء من العربة أو تركها باعتبار المبلغ المدفوع زهيدا ولا يستحق الاسترداد، أما هنا فإن العربة لا يفك أسرها إلا بمبلغ من الدولار ولا يمكن استرجاعه.

إنها "نيويورك" بوابة العالم الرأسمالي حيث كل شيء يباع ولا مجال للمجانية مطلقا، من الجيد أن الهواء هنا لم يخضع بعد للتعليب والبيع.

سددت المبلغ ودفعت العربة أمامي، على مسافة غير بعيدة كان ينتظرني ابن خالتي المقيم هناك والذي سيكون رفيقي في جميع تنقلاتي في بلاد سام.

هنا نيويورك...

مدينة نيويورك، العاصمة الثقافية والاقتصادية للولايات المتحدة، ترجع القصة إلى بداية القرن السادس عشر وتحديدا عام 1524م حينما وصل مستكشف إيطالي يسمى " Giovanni da Verrazzano" إلى طرف "منهاتن" الجنوبي فاتحا الباب أمام شراذم من المستكشفين الهولنديين الذين بدأوا في التقاطر بعد ذلك على المنطقة ليؤسسوا سنة 1614م مستعمرة أسموها "New Amsterdam" كنوع من الحنين إلى الجذور الهولندية.

لكن "الإمبراطورية البريطانية" لم تكن لتسمح لتلك المدينة بالعيش خارج ظلال التاج الذي لا تغيب الشمس عن أرضه، فغزو المدينة واستولوا عليها في 24 يونيو 1664م، ليقدمها "تشارلز الثاني" ملك إنكلترا هدية لأخيه دوق يورك، هذا الأخير الذي لم يتردد في التكرم بإطلاق لقبه على المدينة فصارت منذ ذلك الحين تسمي: "New York"" أي: "يورك الجديدة".

تعتبر نيويورك مركز المال والأعمال والثقافة والإعلام في الولايات المتحدة الأمريكية كلها وهي المدينة التي تستقطب أكبر عدد من السواح يتجاوز أحيانا خمسين مليونا في السنة.

تمثل المدينة مزيجا عمرانيا عجيبا يجمع بين ناطحات السحاب الحديثة تحديدا في "منهاتن" (Manhattan)، وبين

المباني الخشبية القديمة المعمرة – في منطقة "Brooklyn" مثلا – التي يتجاوز عمر بعضها 400 مائة سنة وما تزال حتى اليوم واقفة في وجه عاديات الزمن.

في قلب "منهاتن"...

توجهنا رأسا إلى الفندق الذي كنت قد حجزته قبل سفري بناء على معايير تشمل وجود مسجد قريب، والوصول إلى قلب المدينة دون الحاجة إلى وسيلة نقل.

وصلنا بعيد العصر إلى "Broadway Plaza Hotel" الواقع في 1155 شارع Broadway"" على مسافة لا تزيد عن 500 متر من Times Square بقلب "Manhattan".

استلمنا المفاتيح وصعدنا، كنت مرهقا من طول الرحلة، صليت العصر وتمددت على السرير لأخذ قسط من الراحة.

خرجنا قبيل المغرب للصلاة في المسجد غير البعيد واستكشاف بعض معالم المدينة القريبة.

مسجد الرحمن...

يضم وسط "منهاتن" جالية كبيرة من المسلمين الذين يتزايدون يوما بعد يوم ولم يكن لديهم مكان مخصص للصلاة يفدون إليه فقرروا عام 1990م استئجار مكان صغير على شارع "Madison" وبدأوا يقيمون الصلاة هناك، لكن المالك أخرجهم بعد سنوات من الإيجار، فقاموا باستئجار طابق من طوابق أحد الفنادق الصغيرة

لتطلب منهم إدارته إخلاء المكان بعد سنتين من تجهيزه والصلاة فيه.

حينها قرر ناشطون في الجالية المسلمة شراء أرض وبناء منشأة إسلامية عليها تتألف من مسجد ومدرسة ومطعم ومحلات تجارية.

تطلب المشروع توفير مبلغ 2.9 مليون دولار وهو ما تم بالفعل سنة 2003م ليكتمل المشروع ويصبح وجهة المسلمين المتواجدين في تلك المنطقة حيث تقام فيه الصلوات الخمس وصلاة الجمعة.

وصلنا المسجد الذي كان يقع على "15 W 29th Street NY" على مسافة 200 متر من الفندق، كان المصلون قد وفدوا استعدادا لصلاة المغرب، وكان هناك ما يقارب مائة مصل على الأقل معظمهم أفارقة.

كان إمام المسجد – المؤقت حينها – رجلا مصريا ذا صوت جميل، كان يحرص على تقديم نصائح ومواعظ – بعد كل صلاة باللغة العربية الفصحى – تتعلق بضرورة التكافل بين أفراد الجالية المسلمة وأن يساعد قادرهم المحتاج، وكان أحد الحضور يتطوع بالترجمة.

بين صلاة المغرب والعشاء كان تجار أفارقة يعرضون بضائعهم من ملابس مستعملة وعطورات مخلوطة وحلويات منزلية الصنع، كانوا يستخدمون طاولات خشبية للعرض وأحيانا يتم العرض – غير المرخص – باستخدام السيارات والباصات الصغيرة.

قصدت أحد الباعة الذي تبينت من دندنته الشجية أنه سينغالي فبادرته بالتحية بلغة "ولفية" متقنة النطق، فصاح قائلا

بلكنته "الولفية: "لا إله إلا الله" ورد بـ"الولفية": "أنت موريتاني بالتأكيد؟"، قلت: "نعم وجرى بيننا حديث.

كان لتلك الكلمات – على الضفة الأخرى من المحيط – تأثير غريب على الذاكرة، فكأن سردابا زمنيا انفتح فجأة فعبرت منه لأجد نفسي في أزقة "المقاطعة الخامسة" بين حفنة من الأطفال من مختلف الأوان يلعبون الغميضة، أطفال لا يلفت لون أحدهم انتباه الآخر، يلعبون معا، ويجمعهم قاسم مشترك أساسي هو ازدواجية اللغة، لا طفل في "المقاطعة الخامسة" – قبل أحداث التسفير – لا يتحدث الحسانية و"الولفية" معا.

اختزلت تلك الكلمات أمامي عقودا من الزمن فتذكرت جارنا السينغالي الطيب "ببكر انجاي" الذي كان يعمل صيادا بحريا، كان رجلا طويل القامة نحيف الجسم، أشيب، لا تفارق الضحكة محياه، تذكرت زوجته الكبرى "هاوا انجاي" التي كانت بارعة في تحضير الفول السوداني المشوي "شَافْ" والمثلجات التقليدية – "بَلْبَصْتِيكْ" – كان لدي حساب مفتوح عندها وقد يصل حجم مديونيتي إلى 100 أوقية وهو مبلغ ليس بالبسيط بداية الثمانينات.

تذكرت الرعب الذي رأيت في عيون تلك الأسرة المسالمة إبان أحداث 1989م وكيف تحولت ملامح "ببكر" الضاحكة دوما إلى ملامح من حكم عليه بالإعدام وينتظر التنفيذ في أي لحظة.

لا أنسى منظر الرجل وهو يرمي بصغاره إلينا من وراء الجدار الذي يفصل بين منزلينا، كان يريد تهريبهم من الحصار المفروض على باب منزله فلم يجد وسيلة غير تلك، ليلحق بهم هو وزوجاته،

في حين قام والدي رحمه الله بتأمين وصولهم إلى مدينة "لكوارب".

اشتريت من ذلك السينغالي – المغترب طلبا للقمة العيش – لفافات من الفول السوداني المشوي الملبس بمادة سكرية الطعم عنابية اللون، أصر على عدم استلام الثمن وأصررت على دفع المبلغ مع القيمة المضافة الناشئة عن التعاطف مع أخ في الدين رمته الظروف في مجاهل الغربة.

كان الجو باردا فرجعنا إلى الفندق وبعد صلاة العشاء قصدنا المطعم الملحق بالمسجد فتناولنا وجبة عشاء معدة بأياد مسلمة وعدنا إلى الفندق مرة أخرى حيث أمضيت وقتا أغازل النوم الذي لم يستجب إلا بعد الكثير من المراودة.

كانت درجة الحرارة – وقت صلاة الفجر – تحت الصفر ومع ذلك حضرها في المسجد ما لا يقل عن 60 رجلا، عدت بعد الصلاة فدفنت نفسي تحت اللحاف وبقيت متدثرا حتى الضحى.

أرسلت الشمس أشعتها الدافئة ناشرة ضوء يوم جديد من أيام مدينة "نيويورك"، أو "التفاحة الكبرى" كما يحلو لسكانها أن يسموها.

تناولنا الفطور وخرجنا، كانت درجة الحرارة ما تزال أقل من 5 درجات مئوية، عرجنا على مقهى Starbucks فأخذنا قهوتي Expresso وخرجنا نرتشفهما حريصين على أن نقطع بها أطول مسافة ممكنة.

غير بعيد على اليمين يخترق السحاب برج (The Empire State Building) الشهير ذي ال 102 طابقا، إنه مفخرة مدينة

نيويورك ورمز ازدهارها المبكر، إنه البرج الذي اكتمل بناؤه عام 1931م ولم يستغرق أكثر من سنة واحدة.

نحن نتمشى على شارع ""Broadway" باتجاه ميدان "Times Square" بقلب "منهاتن".

ندخل الميدان حيث تشتعل جهاته الأربع بصور اللوحات المضيئة مروجة لأكبر وأعرق الأسماء التجارية الأمريكية والعالمية التي تخطر على البال، هنا عند تقاطع شارع "Broadway" والجادة السابعة تتجرد "التفاحة الكبرى" في مشهد إغراء أمام عيون العالم، إنه: مفترق طرق العالم، مركز الكون، قلب الطريق الأبيض العظيم، وقلب العالم.. كلها أسماء يطلقها الأمريكيون على ذلك الميدان الذي يختزل الحياة الرأسمالية الأمريكية المتحررة.

كان هذا المكان – قبل الثورة إقطاعا للسيد " John Morin Scott" أحد جنرالات مليشيا نيويورك في عهد جورج واشنطن، لكنه باعه ليدخل – مع بداية القرن التاسع عشر - ضمن ممتلكات رجل الأعمال "John Jacob Astor" الثمينة، وبحلول عام 1872م، أصبحت المنطقة مركزًا لتجارة الخيول والعربات، لتتحول منذ عام 1910م إلى ما يعرف بمسرح حديقة الشتاء.

عرف الميدان باسمه الحالي بدءً من عام 1904م حينما نقلت إليه صحيفة "التايمز" الأمريكية مكاتبها، وهو المكان الأكثر جذبا للسواح والزوار في العالم حيث يزوره سنويا ما يقارب ال 130 مليون زائر وهو ما يعادل يوميا ما بين 350 و400 ألف عابر.

بدأ الجو يميل إلى الاعتدال مع اقتراب الحادية عشرة، الخلق هنا لا يتوقف عن الحركة والنشاط، هناك يتجمع ناس حول مهرج بهلواني يقدم حركات مضحكة، وغير بعيد يتجمع آخرون على

مسرح للعرائس في الهواء الطلق، سواح ومقيمون وأجناس مختلطة استطاع ذووا الأجسام الضئيلة والعيون الضيقة أن يبرزوا من خلالها لكونهم في الغالب يتحركون على شكل أفواج.

أخذ التسكع في جنبات الميدان ساعتين أو ثلاثة من وقتنا لنعود قبيل الظهر إلى الفندق ومنه إلى المسجد ثم المطعم الملحق به.

تمثال الحرية...

ولأن تمثال الحرية – المشيد على جزيرة الحرية – يعد أشهر معالم نيويورك فقد قررنا تخصيص اليوم الموالي لزيارته.

كانت الطريقة الوحيدة للوصول إلى التمثال هي من خلال العبارات البحرية فتوجهنا مباشرة إلى محطة العبارات في "منهاتن السفلى".

بالنسبة للمقيمين قريبا من قلب "منهاتن" كما هو حالنا وقتها فإن أفضل خيار للوصول إلى العبارة في محطة "South Ferry" هو ركوب القطار رقم 2 أو 3 من محطة "Wall" Street..

من منطلق العبارة في محطة "South Ferry" قطعنا التذاكر وخضعنا للتفتيش الدقيق كما لو كنا سنصعد طائرة وانطلقنا باتجاه الجزيرة.

هناك ثلاثة أنواع من التذاكر تختلف حسب ما يريد الزائر أن يرى، فهناك التذكرة العادية التي تمكن من الوصول إلى محيط التمثال، وهناك أخرى تمكن من الدخول إلى الركيزة الإسمنتية التي ينتصب عليها التمثال، وهناك تذكرة ثالثة تسمح باعتلاء التمثال والتجول داخل التاج المنصوب على رأسه.

يمنحك ركوب العبارة فرصة فريدة لإلقاء نظرة شاملة على مدينتي نيويورك ونيوجيرزي، كما يجعلك تعيش شعور أوائل المستكشفين وهم يمخرون البحر باتجاه ذلك العالم الجديد الغامض.

تذكرت – وأنا على تلك العبارة ذات الطوابق الثلاثة – عبارتنا الوطنية المسماة تقليديا "تَمُنانتْ أو تمْبَرْبُرَّ" ذات ضحوة من عام 1998م وقد أعتليها باتجاه الضفة الجنوبية من نهر السنغال، راكبا البحر لأول مرة في حياتي، لقد كانت نموذجا مصغرا لسفينة نوح حيث كانت تحمل البشر والحيوان والنبات وحتى الجماد، كل ذلك على سطح واحد ودون حواجز.

كانت الساعة تشير إلى الثالثة مساء حين وضعنا أقدامنا على اليابسة من جزيرة الحرية "Liberty island".. هنا ينتصب "تمثال الحرية" (Statue of Liberty) على ارتفاع 93 مترا، بعد أن اعتذر حاكم مصر "الخديوي باشا" عن فكرة بنائه على شبه جزيرة سيناء بسبب ارتفاع التكلفة المتوقعة.

يجسد ذلك التمثال النحاسي الذي صممه الفرنسي Frédéric Auguste Bartholdi "آلهة الحرية" عند الرومان، وهو يمثل هدية صداقة من الشعب الفرنسي لشعب الولايات المتحدة الأمريكية.

يحمل مجسم "الآلهة" مشعلا مضيئا في يمينه ولوحا في يساره نقش عليه تاريخ إعلان استقلال الولايات المتحدة، كما تتكسر عند قدميه سلسلة حديدية للدلالة على التخلص من قيود العبودية.

ورغم أن بناء التمثال بدأ منذ عام 1865م في فرنسا إلا أن صعوبات ماليه حالت دون إكماله ليتم جمع التبرعات لتلك العملية ويشحن التمثال بحرا إلى وجهته النهائية لينتصب واقفا في 28 من أكتوبر عام 1886م وليتم اعتماده كنصب تذكاري وطني في عام 1924م.

لكن عن أي حرية يتحدثون حينها، أي حرية تلك التي كانت تحرم على السود الجلوس على مقاعد وسائل النقل العمومية أو حتى مقاعد محطات الانتظار لأن الجلوس يعني الراحة، والحق في الراحة حكر على البيض، أية حرية تلك التي كانت تحرم على السود الدراسة في الجامعات الحكومية لأن ذلك الامتياز لم يكن ليمنح إلا للبيض؟

لقد كان "تمثال الحرية" حينها ذا دلالة جوفاء، لقد كان كوردة في حقل من الشوك، لم يكن يعبر عن الواقع الذي كانت رائحة الاستعباد العفنة تفوح منه، لذلك قال الكاتب الساخر "برنارد شو": "إن "تمثال الحرية" موجود في الولايات المتحدة بالذات، ودون أي مكان آخر في العالم؛ لأن الناس عادة لا يقيمون التماثيل إلا للموتى".

لقد عبر بطل العالم في الملاكمة حينها – الموريتاني "أحمدو ولد امبارك فال" أو "Battling Siki" وهو الاسم الذي عرف به عالميا – عن ذلك المعني بطريقته الخاصة، فهناك، وعلى قمة ذلك التاج وقف – ذات يوم بارد من عام 1924م – ذلك "الحرطاني" وبال على رأس "تمثال الحرية" تعبيرا منه عن الاحتجاج على التمييز الممارس ضد السود.

كان دم ذلك "الحرطاني" البدوي الحر يصرخ رافضا تقديس ذلك التمثال النحاسي في بلد تعرض هو نفسه فيه للتمييز العنصري بسبب لون بشرته رغم ما كان قد وصل إليه من مجد وشهرة.

كان ذلك تصرفا عفويا من بدوي لم يحظ بكثير تعليم لكنه عبر عن رأيه بطريقة تغني عن الكثير من المجلدات، كان قبلها – وفي فرنسا – قد تصرف بطريقة تحمل ذات الدلالة تجاه القانون الفرنسي الذي رأى فيه تكريسا سافرا للعنصرية، لقد قام حينها بتحدي القانون من خلال الزواج من ثلاث فرنسيات وفى ليلة واحدة، معتمدا على الشرع الذي يبيح له التعدد وإن جرمه المشرع الفرنسي.

لقد كانت تلك التصرفات – المتهورة وغير الموجهة رغم عمق دلالتها وما حملته من طابع تحرري – سببا وضع حدا لحياة ذلك النمر المتمرد من خلال رصاصتين غادرتين أصابتاه في الظهر ليخر صريعا يوم 15 ديسمبر 1925م بأحد شوارع "Brooklyn" بنيويورك.

عدنا إلى العبارة لننطلق إلى جزيرة "Ellis" العالمية، وذلك لزيارة "متحف الهجرة" وجدار الشرف الأمريكي المنصوب هناك للمهاجرين القدامى، هنا في جزيرة "Ellis" يوجد مركز تاريخ الهجرة العائلي في أمريكا حيث يقدر أن نصف الأمريكيين تقريبًا يمكنهم تتبع تاريخ عائلاتهم عبر المعلومات المتوفرة في ذلك المتحف من خلال سجلات الوصول إلى ميناء نيويورك.

ربما كانت جزيرة "Ellis" توأما لجزيرة "Gorée" السينغالية، هذه ترسل العبيد وتلك تستقبلهم، في الحالتين هناك خيط رابط رغم آلاف الأميال من المياه الزرقاء.

كانت الساعة تقارب الرابعة مساء، صلينا العصر في الجزيرة وعدنا إلى العبارة التي أرجعتنا إلى الشاطئ.

أمضينا أياما في نيويورك زرنا خلالها معظم المعالم التي كان من بينها المسجد التابع لـ"لمركز الثقافي الإسلامي بنيويورك" حيث لفت انتباهي اسم "موريتانيا " منقوشا على جدارية تضم لائحة دول إسلامية قليلة كانت وراء دفع تكاليف تأسيس ذلك المركز في ستينيات القرن الماضي، أيام كان الحضور الدبلوماسي يقاس بالرجال والمواقف لا بالإمكانيات.

صبيحة يوم 14 من نوفمبر كنا في محطة "بنسلفانيا" بنيويورك آخذين القطار باتجاه العاصمة الأمريكية واشنطن.

365 كلم هي المسافة التي يقطعها القطار من نيويورك ليصل إلى واشنطن، إنها المسافة التي تديرها مؤسسة سكة حديد بنسلفانيا على طول المسارات القديمة بالتوازي مع الطريق السريع 95 الجديد.

انطلق القطار من محطة بنسلفانيا الجديدة بنيويورك أسفل ميدان "حديقة مادسون" (Madison Square Garden) والتي تختلف كل الاختلاف عن المحطة المركزية الكبرى " the Grand central terminal" التي تمثل نوعا ما متحفا فنيا والتي احتفلت سنة 2013م بمرور 100 عام عليها من الخدمة.

في تلك المحطة الجديدة يجب أن تغلق عينيك لتتخيل الشكل الذي كانت عليه حينما بنيت عام 1910م من الجرانيت الوردي،

لقد كانت فخمة بمعنى الكلمة قبل أن يتم تدميرها وبناؤها تحت الأرض بالشكل الحالي، حينما هدمها المهندسون المعماريون في عام 1963م كان من بينهم المهندس "Vincent Scully"، الذي كتب متأسفا على المحطة القديمة وساخرا من المحطة الجديدة "كان أحدنا يدخل مثل الآلهه وهو الآن يندفع مثل الفأر".

يخرج القطار من حدود ولاية نيويورك داخلا نيوجيرزي من شمالها، نعبر من مصب نهري Hackensack وPassaic متمتعين بمشاهدة القنوات المائية المتدفقة التي تعودت أن تزورها أسماك البلشون الثلجية وصقور ال "Peregrine" وهي مؤشرات على أن العجائب الطبيعية في المنطقة قد تحصل على فرصة ثانية.

لا يتوقف القطار في "Trenton" عاصمة "New Jersey" ولكنك ستعرف أنك هناك عندما ترى علامة النيون الكبيرة على جسر نهر "Delaware" ذي الإطار الفولاذي تقول: "ترينتون تصنع والعالم يأخذ" تعبيرا عن شعار المدينة التي كانت منذ عام 1911م مركزًا صناعيًا كبيرًا لإنتاج الفولاذ والمطاط والشمع.

هنا تعرض جورج واشنطن سنة 1776م – أثناء عبوره لنهر "Delaware" – لهجوم مفاجئ من الجنود الإنجليز العاملين في حامية Trenton لكنه نجا من الفخ الذي نصب له.

نصل مشارف ولاية "Philadelphia" فننبهر من منظر الأفق الرائع حيث يقترب القطار من محطة شارع 30 فيلادلفيا. إذا فتحت النوافذ فقد تسمع ثرثرة القردة وأحاديث الفيلة لأن السكة تمر عبر بوابة "حديقة حيوان فيلادلفيا" التي تم افتتاحها عام 1874م.

في طريقك إلى خارج المدينة تشاهد "Victorian Boathouse Row" وهو معلم تاريخي وطني على الضفة الشرقية لنهر Schuylkill والذي يعتبر مركز للرياضات المائية حيث تنظم فيه السباقات المائية الكبرى في الرابع من يوليو من كل سنة.

عند وصولنا إلى Wilmington كان القطار يمر بالقرب من كنيسة Swedes القديمة، التي بنيت في عام 1698م من قبل المهاجرين الإسكندنافيين الذين جاءوا إلى دلتا نهر "Delaware" قبل أن يسكن الإنجليز فيلادلفيا، وغير بعيد من الكنيسة تقع مقبرة قديمة يقال إنها مسكونة بالعفاريت، إلى حدّ الآن ما تزال كنيسة Swedes وفية للتقاليد الإسكندنافية حيث تحتفل باليوم السويدي "Saint Lucia" في أوائل ديسمبر من كل سنة.

تمنيت لو كان لدي الوقت حتى أمارس هوايتي في الصيد، حيث عبر بنا القطار منطقة مفتوحة لصيد البط في جنوب Wilmington، تذكرت قصة الصياد واسع الخيال "امخيطرات" عن البطة التي لمح بين الغيوم فأرسل إليها زخة من رصاص بندقيته وانتظرها وهي تهوي في عملية سقوط حر بعد إصابتها المميتة، لتسقط بين يديه مستغرقة من الوقت ما مكنه من إعداد إبريق شاي على الجمر... هنا تحصل على أول نظرة حقيقية لخليج Chesapeake حيث يعبر القطار نهر Susquehanna عند مدينة Havre de grace الرائعة.

نحن الآن ندخل مدينة "Baltimore" التي تعتبر أكبر مدن ولاية "Maryland" الأمريكية، ورابع أكبر مدن الساحل الشرقي للولايات المتحدة، حيث لا ترى سوى الجدران الجرانيتية

السميكة لنفق "Baltimore" الذي يبلغ طوله 7000 قدم وتم بناؤه عام 1873م.

تشير الساعة إلى الثانية ظهرا وقد بدأت معالم العاصمة واشنطن دي سي تلوح في الأفق البعيد، هناك تبدو قمة النصب التذكاري للرئيس الأمريكي الأول جورج واشنطن.

كان علينا الاستعداد للنزول بعد قليل، فتقدمنا عبر الجزء الخلفي من ذلك القطار المتدفق نحو "Union Station"، تقدمنا إلى الباب الأمامي الذي ينفتح مباشرة على مبنى "الكابيتول".

هنا واشنطن...

واشنطن دي سي، أكثر مدينة تتردد في وسائل الإعلام، إنها العاصمة الفيدرالية للولايات المتحدة حسب قرار الكونجرس الصادر بتاريخ 16 يوليو 1790م ومنذ ذلك التاريخ أصبحت تلك المدينة الصغيرة عاصمة السياسية الأمريكية ولاحقا عاصمة القرار السياسي العالمي.

تقع المدينة على الضفة الشمالية الشرقية من نهر "Potomac" وهي عبارة عن منطقة فيدرالية لا تتبع أي ولاية أميركية، وقد تم تشكيلها من الأراضي التي تبرعت بها ولايات ميريلاند وفيرجينيا، ولكن جزء فرجينيا أعيد من قبل الكونغرس في عام 1846م

نحن الآن في مبنى "The Capitol" الذي يقع تقريبا في قلب المدينة على الطرف الشرقي لمنتزه الساحة القومية أو " The Mall"، إنه المكان الذي تجتمع فيه السلطة التشريعية الأمريكية

"الكونجرس" والذي شيد عام 1792م وتم تعديل تصميمه عدة مرات، حتى أخذ شكله الحالي عام 1865م.

إن أكثر ما يميز ال "Capitol" هو القبة المصنوعة من الحديد والمنتصبة على قمته بارتفاع يبلغ 180 قدمًا والمعروفة ب The Great Rotunda، وبالإضافة إلى القيمة التاريخية للمبنى فهو أيضا يمثل كنزا فنيا ضخما حيث يتم – على جدرانه – عرض أعمال لفنانين مشهورين من أمثال Gilbert Stuart و Peale Rembrandt وJohn Trumbull .

تم تزيين قبة "الكابتول "The Great Rotunda" بجدارية ضخمة تلخص مشاهد التاريخ الأمريكي بدء من مجيء كريستوف كولومبوس، كان الرسامConstantino" "Brumidi هو من بدأ في تنفيذ الجدارية من سنة 1859م حتى سنه 1877م، لكنه توفي سنة 1880م قبل إكمالها فتولي الرسام "Filippo Costaggini" رسم المشاهد الثمانية المتبقية منها حتى عام 1889م، وظلت مساحة 31 قدما من الجدارية غير مكتملة حتى عام 1953م حين أكملها الرسام "Allyn Cox" بمشاهد من الحرب الأهلية وميلاد الطيران الأمريكي.

لفت انتباهي وأنا في طرف الحديقة المحاذية لمبنى "الكابتول" الإنتشار الكثيف للسناجب التي تسرح وتمرح على العشب بين الأشجار دون أن يزعجها مرور العابرين فبدت كما لو كانت حيوانات أليفة لا ينقصها إلا تناول الطعام من أيادي المارة.

نتقدم عبر منتزه الساحة القومية "The Mall "، الممتدة من مبنى "الكابتول" على مساحة 146 فدان من العشب حتى نهر "Potomac" والتي يحفها يمينا شارع الدستور وشمالا شارع

الاستقلال، إنها قلب التاريخ الأمريكي في واشنطن ومركز استضافة التجمعات السياسية والمهرجانات والمناسبات الأخرى، إنه المكان الذي تتمركز حوله أغلب المعالم التاريخية في واشنطن من نصب تذكارية و أضرحة ومتاحف ومعارض وبنايات تاريخية.

على اليمين يقع "المتحف الوطني للفنون" وحديقة النحت المرفقة به، إنه المتحف الذي تم إنشاؤه عام 1937م كمركز للفنون الوطنية، حيث يضم كنوزا من المقتنيات الفنية التي تبرع بها أمريكيون لصالحه وهو مفتوح مجانا أمام الجمهور.

بعد ذلك مباشرة وعلى اليمين أيضا يقع "المتحف الوطني للتاريخ الأمريكي" المكلف بتجميع وحفظ وعرض تراث الولايات المتحدة في مجالات التاريخ الاجتماعي والسياسي والثقافي والعلمي والعسكري، لقد تم افتتاحه رسميا عام 1964م باسم "متحف التاريخ والتكنولوجيا" وتم تغيير اسمه لاحقا إلى "المتحف الوطني للتاريخ الأمريكي" الذي تتمثل رسالته في جمع ورعاية ودراسة وتفسير كل ما يعكس تجربة الشعب الأمريكي.

أما على اليسار فيقع "المتحف الوطني للهنود الأمريكيين" ويليه على نفس المسار "المتحف الوطني للطيران والفضاء" ثم "متحف الفن الحديث".

ما زلنا نسير خلال "المول" وعلى اليسار تقع قلعة "Smithsonian " التي شيدت عام 1855م لتكون مركز استعلامات لزوار معالم الساحة القومية "المول" ويليها "Arthur M" وهو أيضا معرض تديره "Smithsonian" يعرض الأعمال الفنية الآسيوية من لوحات ومنتوجات فخارية.

أما في الزاوية على اليمين فيقع "المتحف الوطني لتاريخ وثقافة الأميركيين الأفارقة"، الذي تأسس شهر ديسمبر 2003م، وقد قام بتصميم مخططه المهندس المعماري ذو الأصل الغاني " David Frank Adjaye".

هذا الكم الهائل من المتاحف وفي مساحة صغيرة بقلب العاصمة السياسية للعالم يجعل المرء يتساءل كيف اهتم هؤلاء بتاريخهم وتراثهم الذي لا يزيد عمره عن 400 سنة في حين أهمل بناة الحضارة والتاريخ تراثهم وحضارتهم واهتموا بدلا عنهما ببناء المحلات التجارية ومراكز التسوق.

لم لمْ يفعل الأمريكيون نفس الشيء؟ الجواب عن ذلك يكمن في أن أمريكا – رغم طغيان الفكر الرأسمالي على ثقافتها – إلا أنها تولي اهتماما كبيرا للثقافة والفن، إن مراجعة بسيطة للمناهج التعليمية الأمريكية تكشف بوضوح عن مدى اهتمام الأمريكيين بالتاريخ والثقافة والحضارة والفن، إن الإنسان الطبيعي لا يعيش لبطنه فقط، ولا تقتصر حاجاته على السلع الاستهلاكية، بل إن للروح والقلب والعين احتياجات أخرى قد لا تتوفر في الأسواق والبقالات.

وصلنا الآن إلى قلب الساحة القومية حيث يقف النصب التذكاري لجورج واشنطن على شكل مسلة فرعونية، لقد استغرق إكمال هذا الشاهق حوالي قرن من التخطيط والبناء، بدأ مع وفاة جورج واشنطن عام 1797م لكن العمل لم يبدأ فيه إلا عام 1848م لينتهي بناؤه عام 1884 ويفتح أمام الجمهور عام 1888م.

ويتكون العمود المدبب أو المسلة من الحجر المغطى بالرخام الأبيض ويصل ارتفاعه أكثر من 555 قدم، استجلبت الحجارة التي بني بها من 50 ولاية أمريكية ومن دول أجنبية أخرى، ويوفر أعلى النصب التذكاري – الذي يمكنك الوصول إليه فقط عن طريق المصعد – يوفر إطلالة بانورامية على جميع زوايا العاصمة واشنطن.

نعرِّجُ يمينا باتجاه مطبخ السياسة العالمية "البيت الأبيض" مسكن الرئيس الأمريكي والمقر الرسمي والمركزي لأعلى سلطة تنفيذية في الولايات المتحدة.

كان الرئيس الأمريكي الأول جورج واشنطن هو من احتار موقع البيت الأبيض في عام 1791م. ووضع حجر الأساس له عام 1792م وتم اختيار التصميم الذي تقدم به المهندس المعماري الايرلندي "James Hoban"، أُحضرت الأحجار من اسكتلندا، وأشرف على بنائه الرئيس جورج واشنطن نفسه لكنه لم يعش فيه، بل كان أول من انتقل إليه هو الرئيس "جون آدامز" وذلك عام 1800م.

قام الإنجليز خلال حرب عام 1812م بإحراق البيت الأبيض حيث لم يبق منه سوى جدرانه الخارجية فتم تعيين نفس المهندس "James Hoban" لإعادة بناء المنزل الذي اكتمل عام 1817م وهي السنة التي انتقل إليه فيها الرئيس "جيمس مونرو"، الذي أنشأ به بحيرة جنوبية عام 1824م، في حين أضاف إليه الرئيس الموالي "أندرو جاكسون" بحيرة أخرى في الناحية الشمالية عام 1829م وتحيط الحدائق بالبحيرتين من كل الجوانب.

أضيفت تحسينات وترميمات أخرى على المنزل في مراحل بعد ذلك، إلا أن آخر تعديل يجرى عليه كان في عهد الرئيس " Harry S. Truman" الذي قام بترميم شامل للمنزل بإشراف المهندس المعماري "Lorenzo Winslow"، لتعود عائلة "ترومان" إلى البيت الأبيض في عام 1952م.

يتكون البيت الأبيض من 6 أدوار ويضم 132 غرفة و35 حماما ويحتوي 412 بابًا و147 نافذة و28 موقدًا و8 سلالم و3 مصاعد.

فكرت في الدخول إلى البيت البيض واحتساء قهوة مع الرئيس أوباما حينها، كانت لدي أفكار عديدة أنوي طرحها عليه، لكن دخول البيت الأبيض لم يكن بتلك السهولة وأقل ما يحتاجه بالنسبة لأجنبي مثلي هو التنسيق مع السفارة بحيث يكون الطلب مقدما من جانبها.

صرفت النظر عن الفكرة واكتفيت بالوقوف متأملا خلف السور الذي يفصل المنزل البيضاوي عن العابرين، ترى كم من مصائر أنظمة وشعوب تم التخطيط لها من هنا، كم من أرواح أزهقت بمقتضى قرار نضج في مطبخ هذا المنزل.

غادرنا البيت الأبيض عائدين إلى منتزه الساحة القومية "المول" لاستكمال الطواف في تلك المعالم.

هنا وبمحاذاة النصب التذكاري لجورج واشنطن يقع النصب التذكاري الوطني للحرب العالمية الثانية وهو نصب ذو أهمية وطنية في المخيال الأمريكي حيث أنشئ تخليدا لذكرى الأمريكيين من عسكريين ومدنيين ممن خدموا في القوات المسلحة خلال الحرب العالمية الثانية، يتألف النصب من 56 ركيزة وزوجا من أقواس النصر الصغيرة تتوسطها نافورة.

بعد النصب مباشرة وسط جزيرة العشب تلك وصلنا إلى بداية ما يعرف بالبركة العاكسة لنصب "لينكولن (The Lincoln Memorial Reflecting Pool)، تلك البحيرة الممتدة على شكل شريط مائي يصل طوله إلى 618 مترا وعرضه 51 مترا، والتي تم تصميمها من قبل "Henry Bacon "، وتم تشييدها في عامي 1922 و1923م كنوع من الامتداد الطبيعي لنصب Lincoln التذكاري.

وصلنا الآن إلى نهاية منتزه "المول" حيث يتربع النصب التذكاري لمحرر العبيد "Abraham Lincoln" على ضفة نهر "Potomac".

بدأ تشييد النصب التذكاري للرئيس السادس عشر للولايات المتحدة "Lincoln" في عام 1914م واكتمل في عام 1922م. وذلك في نهاية الطرف الغربي من منتزه "المول"، قام المهندس المعماري "Henry Bacon" بتصميم النصب على غرار ال "Parthenon" اليوناني، وتم تشييده من الرخام والجرانيت والحجر الجيري.

ينقسم الجزء الداخلي من النصب التذكاري إلى ثلاث غرف، وسطى وشمالية ثم جنوبية يتوسطها تمثال من الرخام الأبيض للرئيس "لينكولن" يجلس في الغرفة المركزية، أما الغرفة الجنوبية فيوجد بها خطاب ال "Gettysburg" الذي ألقاه الرئيس أثناء الحرب الأهلية الأمريكية، ظهر يوم الثلاثاء التاسع عشر من نوفمبر عام 1863م، في بنسلفانيا، في حين تحتفظ الغرفة الشمالية بخطابه الافتتاحي الثاني، أما الأعمدة ال 36 الموجودة في الجزء

الخارجي من النصب التذكاري فترمز إلى عدد الولايات في الاتحاد وقت وفاة "Lincoln" عام 1865م.

إنها الساعة الرابعة عصرا وأرجو أن تكون شروط القصر متوفرة في تلك السفرة، وحيث جاز القصر جاز الجمع على الراجح، كنت متوضئا فانتحيت جانبا وصليت الظهر والعصر.

نعبر نهر "Potomac" عبر جسر نصب "Arligton" التذكاري فتستقبلنا معالم تاريخية أخرى من قبيل "مقبرة ارلينغتون الوطنية"، ومدفن الرئيس "جون كيندي"، وضريح الجندي المجهول.

لم يكن من اللائق أن أكون في واشنطن ولا أزور سفارتنا في عاصمة السياسة العالمية، تقع السفارة في "2129 " Leroy Pl NW وهي منطقة من واشنطن تمثل امتدادا لحي السفارات حيث تقع بجانبنا سفارة دولة نيبال وعلى الشارع الخلفي سفارة دولة غينيا.

المكان مناسب للسكن، جميل وهادئ، لكننا لم نقابل أحدا في السفارة للأسف، ربما لأننا وصلنا متأخرين، وعلى كل حال قمنا بواجب تحية العلم والتقطنا صورا تذكارية من الموقع.

كانت الساعة تقارب الخامسة مساء وأمامنا سفر طويل لكي نعود إلى نيويورك، فقفلنا راجعين إلى محطة الاتحاد " Union Station" بواشنطن التي تعتبر محطة قطارات رئيسية ومركز نقل ومقصدا ترفيهيا في واشنطن العاصمة، إنها المحطة التي أسست عام 1907م، وهي تربط ما بين واشنطن ومدن الشمال حتى بوسطن مرورا بمدينة بالتمور وفيلاديلفيا ثم نيويورك.

تناولنا وجبة أمريكية دسمة للتغلب على لفح البرد القارس وأخذنا أماكننا في إحدى المقطورات سالكين نفس الطريق الذي جئنا منه أول النهار حيث دخلنا مدينة نيويورك بعيد العشاء.

كانت تلك أولى زياراتي لبلاد ما وراء "بحر الظلمات"، زرتها بعد ذلك عدة مرات كان مقامي فيها لا يطيب إلا في "Richmond" عاصمة ولاية "Virginia" حيث الجو النقي الهادئ الجميل، وحيث تبتلع الغابات معظم تراب الولاية، وحيث يغلب على المساكن الطابع الأمريكي الريفي الجميل، ولعلي أتعرض لتلك الرحلات في مناسبة قادمة.

إلى بيت الله الحرام

الزمان: منتصف ديسمبر 2005م، في مكان ما من العاصمة نواكشوط.

تجتاحني حالة من عدم الراحة أو الطمأنينة أعقبت وفاة شخصين عزيزين علي بشكل متقارب قبل شهور من نفس العام.

تحتل شعوري لحظات من تلك اللحظات التي تمر على بعضنا فيجد نفسه محتاجا إلى تغيير المسار مائة وثمانين درجة لإعادة توجيه وضبط البوصلة.

كان الوقت متأخرا على البدء في إجراءات الحج، لكنني قررت أن أؤدي الفريضة تلك السنة مهما كلف الثمن.

أخبرت صديقا لي بنيتي تلك وعرضت عليه الصحبة فقبل بترحيب كبير.

اتصلت بصديق آخر يعمل في مجال السفريات وسلمته جوازي سفرنا وقلت له أريد أن أحجَّ هذا الموسم أنا وصديقي، لم يكن هناك وقت ليتم تضييعه، استلم الجوازين وبدأ إجراءات استخراج التأشيرة.

بعد أسبوع تم الحصول على التأشيرة ولم يبق إلا حجز التذاكر التي قال صديقنا بأن أمرها هيّن وأنه يستطيع قطعها في أي وقت لكنه يتحيّن أحسن الخطوط وأفضل الأسعار.

كنا في أواخر شهر نوفمبر، وقد غادر الكثير من الحجاج باتجاه الأراضي المقدسة، بل إن موعد إغلاق الأجواء السعودية أمام الطيران قد اقترب وصاحبنا لم يجد بعد الحجز المناسب.

قلت في نفسي إن الأمر ربما خرج عن نطاق سيطرة صديقي، فتوجهت إلى مكتب الخطوط الجوية الفرنسية وطلبت منهم حجز تذاكر إلى السعودية بأي ثمن، وبعد الكثير من النقر على الأزرار قال موظف الخطوط: "أنا آسف، لم أجد مقعدا شاغرا على أي رحلة إلى السعودية".

انتابني شعور يمزج بين بالقلق والغضب من صديقي وحمّلته بيني ونفسي مسألة التقصير في عدم العثور على حجز في الوقت المناسب، لكن صديقي استمر في التأكيد لي بأنه كفيل بإيصالي إلى الديار المقدسة قبل إغلاق الأجواء ولو كلف الأمر أن يحملنا على كتفيه.

تذكرت تحذير بعض الموسوسين لي من مغبة التعامل مع صديقي، قال لي أحدهم "فلان سيظل يماطل حتى ينتهي الزمن ومن ثم يقدم لك أي عذر يتخلص به من المسؤولية عن فعلته"، قال شخص أخر "أنت لا تعرف فلان، أنت مخدوع فيه، هل تعلم أن ضحاياه موجودون حتى في الصين، نعم، إن ضحاياه من المسلمين الإيغور هناك يجتمعون في مساجدهم يوميا ويدعون عليه أدبار الصلوات الخمس بما يستحق ويؤمن على دعائهم كل من يسمعه عبر الشوارع المحيطة، لقد حدثني بذلك بعض من صلى معهم وأمن على دعائهم من تجارنا الموثوقين".

قلت لهم "أنا شخصيا لم يسبق أن خذلني وليس لدي مأخذ على خدماته، كل ما أعرفه أنه ماهر في اقتناص مقاعد الطائرات حين يعجز الآخرون عن ذلك".

كنت أتوجه إلى مكتب صديقي يوميا بدل التوجه إلى عملي، لم يكن يشغلني شيء قدر انشغالي بالمغادرة وكنت أسأله من حين

لآخر – وهو منكب على ذلك الجهاز الهرم – "هل جد جديد؟"، فيقول وهو ينتش من قطعة خبز "سأحملك إلى هناك فلا تقلق".

طلب منا في أحد الأيام – من باب الاحتياط كما قال – أن نستصدر تآشر لكل من المغرب ومصر وتركيا حتى تظل كل الخيارات مفتوحة أمامنا.

كان يطمئنني قائلا بأن خبرته في مجال النقل البري منحته قدرة على التلاعب بالحجوزات في النقل الجوي، كنت أتظاهر بتصديقه لعدم وجود بديل عن ذلك لكني كنت قلقا وغاضبا في داخلي.

قبل إغلاق الحدود السعودية بثلاثة أيام قال لي صديقي خبير النقل البري والجوي "إن التذاكر أصبحت جاهزة"، كدت أطير فرحا فقلبي لم يعد في غرب إفريقيا وإنما كان منشطرا إلى قطع وأجزاء تتوزع بين الروضة الشريفة والكعبة وزمزم والصفا والمروة.

لم أسأل عن خط الرحلة ولا عن أي تفاصيل كل ما كان يهمني هو ألا أحرم الوصل بعد أن منيت النفس به لأسابيع.

سلمني التذاكر قائلا "عليكم المغادرة فجر الغد"، أخبرت رفيقي الذي كان جاهزا ومستعجلا أكثر مني.

في المنزل ألقيت نظرة على التذكرة فأصابني الذهول من طول الطريق وكثرة المحطات..

كانت الرحلة تغادر فجرا عبر الخطوط الجوية المغربية لتصل الدار البيضاء على تمام العاشرة صباحا.

بعد الظهر تغادر باتجاه القاهرة حيث سنبيت هناك ونغادر بعد الظهر باتجاه "مطار لارنكا" بجزيرة قبرص الذي سنصله قبيل المغرب.

من "مطار لارنكا" سنتوجه إلى "مطار بيروت" ومنه – بعد ساعتين – سننطلق إلى مطار مدينة جدة.

لقد استخدم صديقنا فعلا خبرته في مجال النقل البري الذي لا يهتم أصحابه بعدد محطات التوقف بل حيثما طلب أحد الركاب التوقف فإن السائق يتوقف بكل سرور.

قال لي رفيقي في الرحلة: "كان الأولى أن نأخذ زادنا ونسافر على ظهور العيس أو الحمير كما كان يفعل أجدادنا بدل هذا الطريق الغريب والعجيب".

فجر الغد كنا في المطار قاصدين الدار البيضاء حيث وصلناها قرابة 11 صباحا، وبعد مقيل في الفندق شددنا الرحال مساء باتجاه القاهرة التي وصلناها بعيد المغرب.

في أم الـدنـيا

هبطت الطائرة في "ميناء القاهرة الجوي" فكان أول ما وقعت عليه عيني وأنا أدخل المطار هو ذلك الجزء من الآية رقم (99) من "سورة يوسف"، الذي كأنما نزل ليستقبل زوار "المحروسة" إلى آخر الدهر، قال الله تعالى: {ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ}. صدق الله العظيم.

كان الجو شتويا وسماء القاهرة محملة برذاذ النيل ملبدة بالغيوم وترى من حين لآخر وميض برق تعقبه فرقعة رعد.

دخلنا مطار القاهرة الذي يعد ثاني أكبر مطار في إفريقيا من حيث عدد المسافرين، والذي يرجع إنشاؤه إلى سنة 1942م كنتيجة لتحالف القوات الأمريكية والبريطانية المشاركة في الحرب

العالمية الثانية، وكان حينها يحمل اسم "مطار باين فيلد" نسبة إلى اسم أول طيار أمريكي يلقى حتفه في تلك الحرب.

عام 1946م أجريت توسيعات على المطار وسمي بـ"مطار فاروق الأول"، ليتم تغيير اسمه مرة أخرى بعد الثورة فيحمل اسمه الحالي.

بعد عبور منطقة الجوازات اعترض طريقي شرطي من أمن المطار على ما أعتقد وطلب مني جواز سفري الذي كان يحمل عديد التآشر من بلدان مختلفة، تفحص الشرطي الجواز وأخذ يقلب في صفحاته في حركة كنت قد رأيتها في عشرات الأفلام والمسلسلات المصرية.

قال بلهجة مصرية: "هو انت مقيم في الإمارات ولا في أوروبا والا احكايتك إيه)؟"، قالها وهو ينادي على أحد زملائه "يا امحمد تعا شوف الواد داه"، وسلم الجواز لزميله الذي أخذني جانبا وبدأ يسأل أسئلة روتينية من قبيل: "إنتَ رايح فين؟ بِتِشْتغلْ إيه؟ بِتْسافر كِتِير ليه؟".

كان واضحا أن الهدف من تلك الحركات ليس الحصول على أجوبة لا تعني له شيئا، لكنني كنت – والفضل للتلفزيون – كمن عايش القوم منذ ولادته، بعد ربع ساعة من تلك الحركات المفتعلة سلمني "مَحَمَّدْ" الجواز قائلا "نورت مصر يا باشه"، فقلت ضاحكا وبلهجة مصرية متقنة "ما كان مِلْأَوِلْ" أي: "أما كان من الممكن أن تفعلها من البداية"، نظر إلي كأنما لم يعجبه ردي لكنه لم ينبس ببنت شفة.

كان علي أن أبيت في الفندق على حسابي ولم أجدها سفها أن أدفع من جيبي ليله أبيتها في قاهرة المعز.

كان بهو المطار ممتلئا بالمكاتب السياحة المستعدة لخدمة زوار "أم الدنيا"، بل إن هناك سماسرة يتلقونك عارضين خدماتهم ويعمل كل منهم لصالح مكتب معين، اخترت اعتباطيا أول من قابلني وذهبت معه إلى مكتبه وطلبت منه خدمة متكاملة تشمل التوصيل إلى المدينة والمبيت في الفندق والقيام بجولة صباحية في المدينة تم التوصيل ظهرا إلى المطار.

كان المبلغ في الحقيقة رمزيا لا أتذكره ولم أفاوض بشأنه، أخذنا حقائبنا وركبنا سيارة الأجرة إلى "فندق رويال" الواقع على شارع "علوي" المتفرع من شارع قصر النيل، وصلنا الفندق وكل شيء تفتقده في مصر سوى عبارات الترحيب والحفاوة والتعظيم.

كانت موظفة الاستقبال بالفندق فتاة في العشرينات على ما يبدو طويلة القامة محجبة، ألقت نظرة سريعة على جوازات السفر وسلمتني المفاتيح مرحبة بنا وطالبة من شاب أبيض البشرة نحيفا أن يسبقنا بالحقائب.

أخذ الشاب الحقائب وطار بها إلى الغرفة معبرا عن غبطته وسروره بخدمتنا وشاكرا لكرم أصلنا ومثنيا على دولتنا التي لم يعرف بعد ما هي ولا أين تقع.

وهو يسلمني المفتاح ودون أن أنتظر سؤالا منه سكعته بورقة نقدية من فئة 20 جنيها، أستلمها وهو يغادر سيرا إلى الوراء منحنيا ومحييا بيده ومكررا الكثير من عبارات الشكر والدعاء.

دخلنا الغرفة فأعدَّ رفيقي الذي كان مدمن شاي كأسا معتقة وأضاف عليها من نعناع مجفف كان يحمله معه، كنا متعبين فخلدنا إلى النوم على اتفاق من السائق أن يرجع إلينا صباحا لنقوم بجولة في معالم المدينة.

على تمام الساعة العاشرة صباحا كان سائق سيارة الأجرة متوقفا أما الفندق وسيارته غير الجديدة تلمع من شدة النظافة الخارجية لكنها من الداخل كانت أشبه بغرفة شاب عازب.

كان سائق التاكسي رجلا في الأربعينات من عمره حليق الوجه حنطي البشرة مائلا إلى البدانة قد اشتعل ما لم تغطي القبعة من رأسه شيبا.

نفس الشاب النحيل الذي أوصلنا البارحة إلى الغرفة كان هو من تولى إنزال الحقائب صباحا، هذه المرة لم يستحي من السؤال المباشر فقال مخاطبا إياي: "مافيش حاجة ليا يا باشة؟" فأجبته قائلا: "هو آن مش لسَّ مِدِّيك امبارح 20 جنيه حِتَّة وحده"، لكن الرجل يعرف أننا قد لا نلتقي قبل البعث ولا مجال للبس ثوب القناعة الزائف، إما أن يظفر مني بشيء الآن وإلا فلا، فرد على قائلا: "طب هات أي حاجة".

كانت أصغر ورقة نقدية لدي هي 20 يورو ولست مستعدا لإعطائه إياها لكن إلحافه في السؤال لم يترك لي مهربا من إعطاءه أي شيء، تذكرت أن بجيبي ورقة من فئة ألفي أوقية فدفعتها له فسألني عن قيمتها التقريبية فقلت إنها تعادل 50 جنيها، التقطها واندفع نحو الاستقبال يريد صرفها لكنها على ما يبدو لم تكن ضمن العملات القابلة للصرف دوليا.

عاد إلي مسرعا بعد أن عرف أنه لن يستفيد منها، ويبدو أنه ليس من هواة جمع العملات، فسألني بخبث قائلا: "هو انت مش قُلتِ إن البِتاعَ دي تِعْمِلْ خمسين جنيه؟"، فقلت "نعم"، فقال: "طَبْ إيه رأيك لو أرجعهالك وتديني خمسة جنيه؟"، لم أتمالك نفسي فانفجرت من الضحك.

انطلقنا عبر الشارع الذي كانت الحياة فيه قد بدأت بكل صخبها، لا فرق في مصر بين الحياة العادية ومشاهدتها في التلفزيون، أنت في مصر تحس كأنك تشارك في لقطات من مسلسل قيد التصوير، نفس الأحداث، نفس الحركات، نفس العبارات ونفس الأداء، أنت فقط من يحدد الدور الذي تريد أن تلعبه، كن بطلا أو كومبارسا فالأمر راجع إليك.

الشعب المصري شعب طيب وبشوش، وهو قبل كل ذلك شعب فكاهة بامتياز، المصري يطلق النكات على كل شيء، يضحك لسبب ومن غير سبب، يسخر من الواقع ومن الحاكم وحتى من نفسه، المهم أن يضحك ويضحك من حوله، المصري قنوع ويرضى بأقل القليل مقبلا ظاهر يده وباطنها.

لم تستطع الفاقة ولا قلة ذات اليد أن تذل المصريين للعابرين، فالمصري - رغم قساوة الظروف وإكراهات الواقع التي تفرض أحيانا سكب ماء الوجه للحصول على لقمة العيش – يظل معتزا بنفسه وفخورا بوطنه.

تشعر أن المصري، أي مصري، تطول قامته بمجرد ما يرِدُ اسم "مصر" على لسانه، تلك مسألة يتفق عليها الجميع.

لقد استطاع "نابليون بونابرت" – بقذيفة مدفع ثقيل – أن يهشم أنف تمثال أبي الهول، لكنه عجز عن قهر كبرياء المصري أو تمريغ أنفه في التراب.

الشعب المصري شعب اجتماعي ولا يطيق الاحتفاظ بالأسرار، تجلس مع أحدهم لأول مرة فيحدثك بتفاصيل حياته بأخص جزئياتها دون أن تسأله ودون أن ينتظر منك تعليقا.

من هنا، من قلب الوطن العربي وواسطة عقده معرفيا وجغرافيا، عبر الشناقطة الأوائل، ومن هنا بزغت أنجمهم وطبقت شهرتهم الآفاق، فمصر كانت ولا تزال تحترف صقل الدرر الثمينة وتنقية الجواهر المطمورة، تماما كالصائغ الماهر الذي يستلم الجوهرة النفيسة الخام فيعمل على معالجتها وتنقيتها من الشوائب فتخرج من تحت يده لامعة تخطف الأبصار.

من هنا عبر العلامة سيدي عبد الله ولد الحاج إبراهيم فلفت الأنظار واحتفى به الأمير محمد على باشا وأهداه فرسا من عتاق خيل أرض الكنانة.

وهنا بهر العلامة لمجيدري ولد حبيب الله علماء مصر بذاكرته التي سجلت في جلسة واحدة مائة اسم من أسماء جدود العلماء المصريين وتحداهم مجتمعين أن يأتوا بأسماء جدوده العشرة الذين سردهم أمامهم في أمْسِه.

وهنا أقام العلامة اللغوي محمد محمود ولد التلاميد، فملأ دنيا مصر وشغل علماءها، فرفض منع "عمر" من الصرف، وحقق دواوين الشعر الجاهلي والقاموس المحيط وأساس البلاغة للزمخشري ووضع فهرست المخطوطات العربية في مكتبة الاسكوريا، إنه الشيخ الشنقيطي الذي اعترف الدكتور طه حسين بأن درس اللغة العربية بالأزهر لم يكن مهما قبل مجيئه.

وهنا استقر أحمد بن الأمين الشنقيطي الذي بلغ من ولعه بالعلم والكتب أن أقيم له مسكن داخل مطبعة "الجمالية" المشهورة وفيها ألف العديد من الكتب كان أشهرها كتاب "الوسيط في تراجم أدباء شنقيط" الذي اعتمد في تأليفه على ذاكرته فقط.

سألني السائق – بعد أن سرد قصة طويلة لا أتذكر موضوعها– (إنتو رايحين فين يا باشا؟)، فأجبته بأننا نودُّ إجراء جولة في بعض الأماكن المشهورة في القاهرة وغير البعيدة لأننا متعبون وأمامنا سفر طويل.

خلال ربع ساعة كنا نعبر "ميدان طلعت حرب" وسنصل بعد قليل "ميدان التحرير" الذي يعتبر أكبر ميادين القاهرة ومنه، عبر "شارع التحرير"، عبرنا النيل من خلال جسر "كبري قصر النيل" حيث كان تمثال سعد زغلول وافقا لاستقبالنا عند نهاية الجسر مباشرة.

انحرفنا شمالا عبر "شارع الجزيرة"، نحن الآن نعبر بمحاذاة حديقة "روض الفرج" الشهيرة لنصل بعد دقائق إلى "شارع البرج" الذي أخذنا غربا فتوقفنا لالتقاط صور عند "برج القاهرة" أو "برج الجزيرة"، الذي يعتبر أبرز معالم القاهرة الحديثة والذي تم بناؤه بين السنوات 1956 و1961م بارتفاع 187 مترا.

كان هناك مصور خمسيني أصلع حليق اللحية وذو شارب كثيف أشيب، توجهت نحوه وطلبت منه أن يلتقط لي صورة مع البرج فقال لي ستكلفك خمسين جنيها، عندها صاح سائق التاكسي بالمصور قائلا: "خمسين جنيه إيه يا ضلالي، "إنت فاكرهم جايين من اليابان؟"، ودون أن يترك لي فرصة التحدث قال لي "هو انت مش معاك موبايل بكاميرا؟" فأجبته "طبعا معي"، فقال وهو يلتقطه من يدي: "خلاص، أنا هصورك أحلى صورة من غير ما تدفع ولا مليم"، حاولت إقناعه بأن الأمر بسيط وأنني أرغب في دفع المبلغ للمصور فرد حالفا بالطلاق ألا أدفع للمصور جنيها

واصفا إياه بالانتهازي الجشع ومحملا إياه مسؤولية تراجع السياحة في مصر.

انسحبت مكرها خوفا من أن تخرج زوجة المسكين من عصمته بسبب خمسين جنيها وصورة مع عمود من الخرسانة.

أما المصور المسكين هو الآخر فقد ظل يدور حولنا نادما – ربما – على السعر المبالغ فيه الذي حرمه من التقاط أول صورة في يومه ذاك.

عدنا إلى "شارع البرج" ومنه إلى "شارع الجزيرة"، هناك مقر "نادي ضباط شرطة القاهرة"، ونحن باتجاه "كوبري 6 أكتوبر"، كل الأماكن هنا أعرفها بأسمائها وبعض ملامحها من خلال التلفزيون.

بعد عبور النيل مرة أخرى، عبر "كوبري 6 أكتوبر"، عرجنا جنوبا عبر شارع "خيرت باشا" ومنه إلى شارع "البستان" فشارع "التحرير" وصولا إلى "ميدان الجمهورية".

لم يكن الوقت يسمح بدخول "قصر عابدين" المنتصب هناك على بعد خطوات منا، ذلك القصر المبني عام 1872م، والذي ظل مركز الحكم والسلطة طوال عهد حكم أسرة محمد علي باشا.

لقد كانت تلك الفترة – حسب بعض الباحثين المصريين – عصرا ذهبيا عرفت فيه مصر كثيرا من الرقي والازدهار، حيث كانت البطالة لا تتعدى نسبة 2% فقط، وكانت القاهرة الأولى في مسابقة أجمل مدن العالم، وكان الإيطاليون واليونانيون يعملون في مصر كحلاقين ونادلين في المطاعم والمقاهي، وكانت سيارات الكادلاك الأمريكية الفاخرة تجوب القاهرة كسيارات أجرة.

إنها الحقبة التي كانت فيها مصر تسلف "بريطانيا العظمي" حتى وصلت قيمة القروض التي منحتها لها في عهد الملك فاروق ما يعادل مجموعه 29 مليار دولار في الوقت الحالي، ويقال إن مصر لم تسترد تلك الأموال حتى يومنا هذا.

ما زلنا في اتجاه الجنوب الشرقي عبر شارع "جوهر القائد" الذي قادنا إلى مسجد سيدنا الحسين رضي الله عنه، تمنيت لو نزلت وصليت ركعتين هناك ودعوت على قاتليه بما يستحقون.

طول الطريق والسائق لم يسكت، لقد سرد قصة حياته بالتفصيل مرتين، تحدث عن أناس من كل جنس ولون حملهم عبر سيارته التي لا تقل أهمية في نظره عن أهمية سفينة نوح.

كنت أرمي إليه بجملة من حين لآخر حتى لا يشعر بأنه يكلم نفسه، لكنه لاحظ أن صديقي لم يشترك معه في كلمة واحدة، هو لا يعلم أن صديقي لم يكن قط ثرثارا حتى بلغته الأم أحرى باللهجة المصرية التي لا يفهم منها أكثر مما يفهم من اللغة السنسكريتية.

سألني السائق "هل صديقك غاضب مني؟"، فأجبت بالنفي فقال "لم لا يكلمني إذا؟"، وقبل أن أبرر له صمت صديقي وجه هو نفسه له الكلام قائلا: "الزايك يا عبد الصمد؟"، طبعا لم يكن ذلك اسم صديقي ولم يكن السائق يعرف اسمه لكن دلالة اسم "عبد الصمد" عند العامة في مصر ترمز إلى الرجل الصامت الخشبي الذي لا ينطق.

ضحك صديقي من التسمية التي لا يعرف قطعا دلالتها وأجاب السائق قائلا "لباس اعلي الحمد لله"، وكانت فرصة سانحة للسائق أن سمع صوته فقال ضاحكا: "الله، ما انت بتكلم زينا

أهوه، أمال ساكت كل دا الوقت ليه؟"، أجاب صديقي الذي ظن أن السائق ما زال يسلم "لباس الحمد لله".

جبنا العديد من مناطق القاهرة ومزاراتها على مستوى قلب المدينة، كان من بينها – إضافة إلى ما سبق – ذلك الصرح العمراني الضخم الذي عرفته بمجرد وقوع عيني عليه، إنه مجمع الوزارات الذي مثل فيه الزعيم عادل إمام فلمه الشهير "الإرهاب والكباب".

قاربت الساعة الواحدة ظهرا فطلبت من السائق التوجه إلى المطار حيث كان علينا الحضور تمام الثالثة مساء.

وصلنا المطار وكانت أمامنا ساعة قبل بدء الإجراءات فأصر مرافقي على تحضير كأس من الشاي تفاديا لصداع لسنا بحاجة إليه خاصة أننا بعد مغادرة القاهرة لن نستلم أمتعتنا – بما فيها عدة الشاي – إلا فجر الغد.

فتح صديقي تلك "المِخْلاة الكبيرة"، أخرج عدة الشاي ولم يعد ينقصه إلى الماء المغلي، اعتذرت له عن طلب الماء المغلي من نادل المقهى الذي كنا نجلس فيه بحجة أنني أرى الموضوع (غير متحضر)، لكن "عبد الصمد" لا يهتم بتلك الاعتبارات بقدر ما يهتم شيخ محظرة ريفية بآخر خطوط الموضة الباريسية.

أخذ إبريقه وتوجه بنفسه إلى النادل، لكنه وبعد حوار شبيه بحوار الطُّرْشانْ رجع بالإبريق فارغا وقال وهو يضحك كعادته: "لم يفهم الرجل ما أريد، أرجو أن تذهب معي إليه"، انتابتني موجة من الحمية لصديقي غطت على حرجي من طلب جرعة من الماء المغلي.

أخذت بيده نحو النادل وخاطبته بلهجة مصرية لا لبس فيها: "عايزين شويت مية سخنه بعد إذنك"، فقال ضاحكا: "هو دا ال

كان عاوزو صاحبك؟ دا قالى إنه عايز مية (طالعة) فأنا سألتُ: "طالعة على فين يا فندم؟"، بقيت أضحك من جواب النادل طيلة الباقي من الرحلة، لقد كان جوابا مصريا بامتياز.

الخامسة مساء كنا في الطائرة التابعة لخطوط مصر للطيران المتوجهة إلى "مطار لارنكا" بجزيرة قبرص في رحلة تستغرق ساعة و20 دقيقة.

على تمام الساعة السادسة وعشرين دقيقة هبطت الطائرة المصرية من طراز بوينغ 737 على مدرج المطار بعد أن أخذت الإذن من برج المراقبة، نفس المطار الذي هبطت فيه طائرة مصرية أخرى لكنها عسكرية تلك المرة ولم تحصل على إذن بالهبوط من سلطات المطار.

كان ذلك يوم 18 فبراير من 1978م، لقد هبطت تلك الطائرة العسكرية من طراز130 C حاملة على متنها 70 فردا من القوات المصرية الخاصة في مهمة إنقاذ فاشلة لرهائن عرب كانت نتيجتها تدمير الطائرة ومقتل 12 فردا من الفرقة وجرح 15 منهم ثم أسر الباقي، و لاحقا قطع العلاقات المصرية القبرصية.

بالطبع لم أكن شاهدا على الحادثة لأني كنت وقتها – وأنا ابن ست سنين – أسير قافلة جمال من بعر الإبل وأشواك الطلح على كثيب أبيض غير بعيد من "أكجاريت" شمال شرق "تكند الجديدة".

حوالي الثامنة مساء، كنا على متن طائرة تابعة لـ"طيران الشرق الأوسط" تحلق باتجاه بيروت في رحلة تستغرق 50 دقيقة حيث وصلنا مطار بيروت بعد العشاء ولم ننزل من الطائرة بل أقلعت بنا باتجاه جدة بعد توقف دام قرابة ال 60 دقيقة.

هبطنا بعيد منتصف الليل في مطار جدة لنضع بذلك أقدامنا لأول مرة على أرض الحجاز الطيبة المباركة وحيث لا يفصلنا عن البيت الحرام أكثر من 80 كلم.

هنا "حيث بنيت جدة" ومن على سيف البحر في هذا المكان قام ذو النورين عثمان بن عفان – بطلب من أهل مكة – باعتماد هذا المكان ساحلا لمكة بدلا من منطقة الشعيبة، وفي مياه هذا البحر دخل ذو النورين واغتسل وقال "إنه ماء مبارك".

إنها ليلة الثاني من يناير 2006م الموافق حينها للثاني من ذي الحجة، لن يسمح لأي طائرة بدءً من يوم الغد بالهبوط في مطار جدة.

كنا متعبين وما يزال أمامنا سفر طويل لأكثر من أربعمائة كلم باتجاه المدينة المنورة حيث قررنا البدء بزيارتها قبل الدخول في مناسك الحج.

كان المطار عبارة عن محشر للأمم من كل جهات الأرض، طوابير لا تنتهي وخلق من الأجناس والألوان، رجال ونساء، شباب وكهول، لا تجد مكانا تضع فيه قدمك.

كان التفكير في الذهاب إلى المدينة عبر البر مجرد جنون لما فيه من المشقة والعناء وبعد الشقة فقررنا البحث عن رحلة جوية داخلية وهو ما تمكنا من الحصول عليه بعد الزحف أكثر من ساعة في طابور ينتهي بنافذة تابعة لمكتب طيران "الخطوط الجوية السعودية".

كان سعر التذكرة لا يتجاوز 210 ريالات سعودية، لكن الرحلة لن تنطلق إلا صباح الغد.

مددنا ظهورنا على ما توفر من كراسي وحقائب وما هي إلا دقائق حتى انخرط رفيقي في سبات عميق عازفا من خلال شخيره المتقطع سيمفونية مات "موزارت" قبل أن يلحنها.

أما أنا فلم يغمض لي جفن رغم التعب والإرهاق الشديدين واكتفيت بعدَ المارين جيأة وذهابا.

صباحا، وعلى تمام الساعة الثامنة والنصف كنا على متن إحدى الطائرات السعودية العتيقة المستخدمة حصرا في النقل الداخلي بين المدن السعودية، لقد ذكرني كل شيء فيها برحلتي الأولى عبر "الخطوط الجوية الموريتانية".

الفوضى والصخب والكراسي التي تتم حيازتها بمجرد الجلوس ولا علاقة لها برقم بطاقة المسافر.

كانت المضيفات ذوات الملامح الأوروبية الشرقية محجبات بالكامل، كانت أول مرة أرى فيها مضيفة محجبة، لقد كنَّ بالضبط كدمى عرض الملابس في محلات التوحيد والنور المصرية ذات الطابع السلفي.

هبطنا في "مطار الأمير محمد بن عبد العزيز" بالمدينة المنورة، نحن الآن في طيبة الطيبة، مهاجَرِ خير البرية وعاصمة الدولة النبوية والخلافة الراشدة، هنا دار الإيمان ودار السلام ودار السلامة ودار السُّنَّة ودار الفتح.

لا تستغرب أن تشعر بالشوق إلى المدينة بعد أن نظر أكرم الخلق على الله من على منبره ودعا – ملتفتا إلى كل جهة – قائلا: (اللهم أقبِلْ بقلوبهم).

إنها المدينة التي تقف الملائكة صافين على أنقابها وشعابها يحرسونها فلا يدخلها الطاعون ولا الدجال.

هنا دعا الرسول (صلى الله عليه وسلم) لأهل المدينة بضعف ما دعا به أبو الأنبياء لمكة المكرمة ليحببهم في العيش فيها، وهنا حببهم في الموت فيها حين وعد بالشفاعة لمن دفن بها.

كانت زحمة المطار في المدينة لا تختلف كثيرا عن زحمة مطار جدة، تمكنا من عبور منطقة الجوازات بعيد الساعة العاشرة صباحا.

أخذنا سيارة أجرة إلى حيث السكن المستأجر من قبل الوكالة التي سافرنا من خلالها، كنا نريد التخلص من الحقائب قبل الذهاب إلى المسجد النبوي.

كان الفندق متواضعا جدا وبعيدا جدا من المسجد وهو تقصير ليس مستغربا من معظم وكالات الحج للأسف.

وصلنا المكان بعد طويل بحث فتخلصنا من تلك الأحمال، اغتسلت وتطيبت ولبست أحسن ما لدي من ثياب استعدادا للسلام على أفضل خلق الله وأعرفهم بالله وأكرمهم على الله محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم).

ورغم التعب والسهر فقد كنا نقطع المسافة – التي تزيد عن 1000 متر نحو المسجد – ونكاد من فرط الشوق نطير، كنا كأطفال موعودين عند الوصول بجوائز قيمة لا يعلمون طبيعتها بالضبط.

دخلنا الحرم المدني من البوابة رقم 15، خلعت نعلي كما كان مالك ابن أنس يفعل، فمن يدري، لعل حصاة رمل أو ذرة غبار مست يوما قدمي الحبيب أو طرف ثوبه تمس مكانا من جسدي.

انتابني – وأنا أحث الخطى نحو المسجد – شعور يمزج بين حب المكان والرهبة منه، كيف لمثلي من الخطائين غير التوابين أن

يقف في حضرة سيد البشر وصاحبيه، لكن الشوق غلب الرهبة فدلفت من باب السلام الذي كان قد فتح توا للمسلمين على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قبل صلاة الظهر.

رميت بنفسي بين تلك الأمواج الدافقة التي يحدوها الشوق نحو ذلك الأمل الذي لا يتاح للكثيرين من المؤمنين في بلاد المسلمين، أحقا سأقف بعد لحظات تحت القبة الخضراء وأمام خاتم الأنبياء.

تسربت من ذلك الشلال الهادر وانزويت إلى اليسار قليلا لأحيي المسجد ثم التحمت بالناس مرة أخرى ليحملني التيار نحو مُنية الروح.

كانت عناصر الأمن المكلفة بتنظيم المواجهة والسلام تحاول جهدها توزيع المكان الطاهر والوقت الثمين بين عباد الله الزائرين، لكنهم لم يكونوا يعلمون أن من بين القادمين من لم يكن ليكتفي في ذلك الموقف بإلقاء التحية والسلام والتلويح باليد ثم يغادر مودعا.

كان هناك من يحتاج إلى وقت أطول ليروي عطش السنين ويطفئ نار الشوق الملتهبة في الشرايين ويعبر عما في النفس من حب دفين، كان هناك من يزعم أنه أتى – بعد غياب قرون – ليزور بيت جده ويصل رحمه.

عن يساري الآن تقع روضة من رياض الجنة وما زلت أتقدم نحو الضريح الطاهر خطوة فخطوة، الخلق أمامي بكل الملامح والألوان واللغات، تختلط الممارسات بينما هو سنة وما هو بدعة، ما هو خطأ وما هو صواب، لكنها تتفق كلها في المقصد المتعلق بالتعبير عن الغبطة والحب والشوق.

هنا قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم... واللغة تقف عاجزة عن توفير العبارات المناسبة التي تصف كنه المكان والمقام.

أشعار كثيرة نظمت في ذلك المقام وعبارات جميلة خلد بها أصحابها لحظات المواجهة تلك، لكن الصمت في حرم تلك المهابة والإجلال يبقى أبلغ تعبير، إن أقوى أنواع الشوق هو ذلك الذي لا يستطيع صاحبه التعبير عنه بالكلام فينسكب عبر المآقي دمعا سخينا بعد ما عجز اللسان عن النطق به.

إن من أعذب ما قيل شعرا في ذلك المقام ما رواه ابن عساكر من أن أحمد ابن عبد العزيز ابن محمد المقدسي لما قرأ البيتين المشهورين المكتوبين على أحد أعمدة الروضة الشريفة:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه
فطاب من طيبهنّ القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه
فيه العفاف وفيه الجود والكرم.

نظم – وهو في المواجهة – قصيدة رائعة ضمنها البيتين يقول فيها:

أقول والدمع من عينيّ منسجم
لمّا رأيت جدار القبر يستلم
والناس يغشونه باك ومنقطع
من المهابة أو داع فملتزم
فما تمالكت أن ناديت من حرق
في الصدر كادت لها الأحشاء تضطرم
يا خير من دفنت بالقاع أعظمه
فطاب من طيبهنّ القاع والأكم

نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه

فيه العـفاف وفيه الجـود والكرم

وفيه شمس التّقى والدين قد غربت

من بعد ما أشرقت من نورها الظلم.

لقد وجدت في تلك الأبيات أصدق تعبير عما كان يعتلج في نفسي، نفسي التي تجرأت رغم ما أعرف في قرارتها مما يستدعي الخجل والإحجام عن الإقدام في ذلك المقام.

نعم تجرأت ووقفت أمام ضريح الرسول (صلى الله عليه وسلم) لا يحول بيني وبينه إلا ذلك الشباك الذهبي، وقفت بكل ما أحمل على كتفي من الخطايا والذنوب، لكنه مكان حط الأوزار وغسل الأدران، ألم يَرِدْ - في الآية (64) من "سورة النساء" - في حق من أقف بحضرته: {وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا}، أليست هذه الآية موجهة لي ولأمثالي؟

ألم يروي الدار قطني والبيهقي من طريق موسى ابن هلال العبيدي عن عبد الله ابن عمر عن نافع عن ابن عمر أنه – بأبي هو وأمي – قال: (من زار قبري وجبت له شفاعتي). هل هناك بشارة أو جائزة أعظم من هذه؟ تدفع المحجم عن الإقدام إلى الخطو نحو الأمام؟

السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، السلام عليك يا خير خلق الله، أشهد أنك بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة وكشف الله بك الغمة فجزاك الله عنا أفضل ما جزى نبيا ورسولا عن أمته.

كانت موجة الخلائق تدفع الواقف أمام الروضة لكني لست بالمغادر ولما أكد أصل، دفعني الزحام إلى اليمين قليلا فسلمت على صاحبي رسول الله، وتأخرت رغم الزحام والتدافع خطوات إلى الوراء بدل التقدم نحو باب البقيع، اقتربت من الجدار المقابل لقبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) فجذب أحدهم ثوبي وأجلسني في فراغ بجانبه لم يكن يتسع لرضيع هزيل، لكني جلست غير مصدق.

هنا تستريح النفس ويطيب لها المقام أمتارا من ثرى ضمَّ خير من وطئ الثرى، هنا يُتمثل قول معقر بن أوس البارقي:

فألقَت عَصاها وَاستقرَّت بِها النَوى

كما قَرَّ عَيناً بالإيابِ المُسافِرُ.

أسندت طهري إلى الجدار مستقبلا قبر الحبيب متوسلا به ومستشفعا، حمدت الله وأثنيت عليه وصليت على سيدي وقرة عيني وبلّغتُ سلام من أوصاني ودعوت بما أحببت.

بعد ذلك استقبلت القبلة وصليت ما تيسر لي وعفرت جبيني من ذلك الأديم الطيب الطاهر العاطر.

صليت الظهر عند رأس من فرضت عليه الصلوات من فوق سبع سماوات، ومكثت في مكاني مستشعرا نعمة الله علي.

بعد صلاة العصر خرجت مكرها فقابلت صديقي الذي كان قد سلك نفس الطريق وخرج توا من المواجهة، ما زلت أتذكر عينيه المغرورقتين بالدموع تأثرا من موقف المواجهة.

عدنا إلى الفندق حيث كانت مسافة الإياب أطول كثيرا من طريق الذهاب والسير في ذلك لا يخفى على عاقل.

بعد غداء متأخر وكاسات من الشاي، قررنا العودة لزيارة البقيع والاستعداد لدخول الروضة الشريفة التي لم يتمكن أي منا من دخولها أول النهار انشغالا بالمواجهة الشريفة.

دخلنا البقيع قبيل المغرب والشمس تأبى الغروب عن أرض المحبوب فتنشب أظفارها في مئزر الأفق كما تتشبث الصغيرة بثوب أمها خشية الفراق.

"السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية".

هنا تحت هذه التربة دفن أكثر من عشرة آلاف صحابي وصحابية، هنا دفن ذو النورين أمير المؤمنين عثمان بن عفان، هنا دفنت حبيبة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بل دفنت كل أمهات المؤمنين ما عدا خديجة وميمونة.

"السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وأتاكم ما توعدون، غداً مؤجلون، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد".

هنا يرقد بسلام الكثير من أهل بيت النبوة من بنين وبناة وحفدة وأقارب، هنا دفنت أم ريحانتي الرسول ابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنها، كما دفنت هنا ابنته رقية وابنه إبراهيم، وعمه العباس، وعمته صفية، وحفيده الحسن بن علي، وكذلك علي بن الحسين ومحمد الباقر وجعفر الصادق.

"السلام عليكم ديار قوم مؤمنين، وإنا بكم لاحقون، أنتم لنا فرط، اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم".

يا لهذا المكان الذي تشكل حصاه من رفات الصحابة، وتشبع أديمه من عطر أجساد آل البيت.

إنه المكان الذي وعد من لا ينطق عن الهوى بالشفاعة لمن دفن فيه، فيا لها من جائزة، إنه المكان الذي حدث سيد البشر في شأنه قائلا: (أنا أول من تنشق عنه الأرض، ثم أبو بكر، ثم عمر، ثم آتي أهل البقيع فيحشرون معي، ثم أنتظر أهل مكة حتى أحشر بين الحرمين).

اللهم إني أتوسل إليك وأتشفع بنبيك (صلى الله عليه وسلم) أن تجعل قبري في البقيع بعد طول عمر وصالح عمل.

عدنا إلى المسجد ودخلنا مرة أخرى من باب السلام وافترقنا.. كل منا يبحث عن موطئ قدم في الروضة الشريفة، رزقني الله مكانا قبل إقامة صلاة المغرب وبعد السلام بدأت أزحف نحو محراب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأصلي ركعتين وأدعو، كان الزحام شديدا ورجال الأمن يقفون على المحراب يمنحون كل واصل فرصة لصلاة ركعتين لا أكثر ليترك مكانه لغيره.

وصلت بعد تدافع لا يناسب هيبة وقدسية المكان، لكن الناس معذورون فليس السجود حيث كان الرسول يضع جبينه الأزهر بالأمر المتاح للرجل كل يوم، الناس تزدحم على مطاعم الوجبات السريعة ومنافذ بيع تذاكر السينما، أفلا يلتمس العذر للمزدحمين على الصلاة في روضة من رياض الجنة.

عن يميني منبر رسول الله، الذي كان يخطب عليه فيُسمِع صوته المجلجل المهيب أربعين دارا من دور المدينة المنورة.

وصلت المحراب وكبرت محاولا أخذ كل ما جاد به الحراس والمزدحمون من ثانية لا تقدر بثمن، أنا الآن في محراب رسول

الله، الواقع على حوضه كما أخبر في الحديث الشريف، أنا إذا أسجدُ على الكوثر هذه اللحظات، أطلت السجود قدر ما سُمح لي ودعوت قدر ما استطعت، لكن لغيري حقا في المكان، رفعت رأسي مكرها لا راغبا.

في الروضة – بسجادها الأخضر المختلف عن بقية سجاد المسجد – تشعر بنوع من الحميمية الإيمانية، تشعر بالانتماء مكانا وزمانا إلى المحيط النبوي، تشعر أنه يستضيفك وأنك فعلا تعيش في بيته، حتى الأسماء، هذه أسطوانة التهجد وتلك أسطوانة الوفود وهناك أسطوانة السيدة عائشة وتليها أسطوانة السرير.

انحرفت إلى اليسار قليلا حيث حظيت بمكان غير بعيد من جدار القبر الشريف، كانت فرصة أخرى لمناجاة الحبيب وبث لواعج الشوق.

صليت العشاء وغادرت المسجد حيث كنت متعبا واحتاج إلى بعض النوم قبل الفجر خاصة أن الفندق ليس قريبا من المسجد.

لم ألتق رفيقي إلا في الفندق حيث تناولنا العشاء وشربنا الشاي، بعدها أخرج صديقي من "مخُلاته" بعض الصمغ العربي المشوي والتمر الهندي و"القونقليز" أو"تيفنكران" وخلط الجميع بالحليب ليخرج مزيجا لا يمل طعمه تناولنا منه كاسات كان لها مفعول المنوم على أجسادنا المتعبة.

استيقظنا قبيل الفجر فتوجهنا إلى المسجد حيث صلينا فيه الصبح وعدنا إلى الفندق لننطلق ضحى إلى مزارات المدينة المنورة.

تعاملنا مع أحد السائقين على أن يلف بنا المزارات المتناثرة في طيبة وضواحيها، كانت محطتنا الأولى هي مسجد قباء الواقع جنوب المدينة على مسافة خمسة كيلومترات فقط.

إنه أول مسجد بني في المدينة بعد ما دخلها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مهاجرا من مكة وكان الرسول يحرص على زيارته حتى بعد أن بنى المسجد النبوي حيث روى ابن عمر في صحيح البخاري أنه كان يأتي مسجد قباء كل سبت ماشيا وراكبا، ويكفي في فضله وفضل الصلاة فيه ما رواه ابن ماجه من حديث سهل بن حنيف أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: (من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه صلاة، كان له كأجر عمرة).

صلينا الضحى في مسجد قباء ومنه اتجهنا إلى مسجد القبلتين الواقع على مسافة خمسة كيلومترات أخرى شمال غربي المسجد النبوي.

في الطريق إلى مسجد القبلتين مررنا على مزار "المساجد السبعة" التي هي في الحقيقة ستة وسابعها هو مسجد القبلتين الذي سمي بذلك الاسم لأن المصلين توجهوا فيه إلى قبلتين في صلاة واحدة، فبعد أن نزلت الآيات من "سورة البقرة" التي حولت القبلة من اتجاه بيت المقدس إلى الكعبة أرسل الرسول (صلى الله عليه وسلم) من ينشر الخبر، وقد وصل أحد رسله إلى مسجد القبلتين والناس يصلون فأسمعهم الخبر فتحولوا إلى القبلة الجديدة أثناء صلاتهم تلك.

من مسجد القبلتين توجهنا إلى الشمال غير بعيد حيث شهداء أحد، لا يسمح للزوار باجتياز السياج الحديدي المسور على المدفن، لكن الكل يعلم أن سبعين من خيرة صحابة رسول الله

(صلى الله عليه وسلم) قد ووروا الثرى في ذلك السفح من منطقة جبل أحد.

هنا استقرت رفات كل من عم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ويستريح سفير الإسلام شبيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مصعب بن عمير، هنا دفن عبد الله ابن جحش وحنظلة ابن أبي عامر الصحابي الذي غسلته الملائكة.

هنا في سفح هذا الجبل الذي قال عنه الرسول (صلى الله عليه وسلم): (إن أحد جبل يحبنا ونحبه)، هنا مر أمامي شريط مصور يمزج بين أحداث المعركة كما وصفها البدوي في نظم الغزوات وكما أخرجها العقاد في فيلم الرسالة، تخيلت بداية المبارزة وأحداثها وانهزام المشركين في الجولة الأولى وخلفهم فيالق من أسود الله يضربون ظهورهم بعد أن ولى المشركون الأدبار، كدت أسمع أصوات التكبير وصليل السيوف وحمحمة خيل الله مثيرة بسنابكها النقع.

مر المشهد الآخر من نزول الرماة نحو الغنيمة رغم التحذير الصريح لهم وما أعقب ذلك من درس لن ينساه المسلمون كنتيجة طبيعية لعدم الامتثال لأوامر الرسول المعصوم.

خالد بن الوليد ينقض على ظهور المسلمين المكشوفة فيستعيد الهاربون من المشركين توازنهم بعدما انهزموا وسقطت راية حربهم ولم تجد من يحملها سوى امرأة مكلومة، وقع المسلمون بين كماشة المشركين ليقضي الله أمرا كان مفعولا فينقلب النصر إلى ما يشبه الهزيمة.

هنا تجسدت – كأروع ما يكون – ملحمة الشهادة والفداء وبذل الصحابة أرواحهم دفاعا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

عدنا إلى المسجد النبوي حيث صلينا الظهر ومنه إلى الفندق حيث كان صداع إدمان الشاي قد بدأ يطلق إشارات تحذيرية غير ودية.

أمضينا أياما على نفس البرنامج اليومي تقريبا تخللتها زيارات لبعض الأرحام من المقيمين في تلك البقاع الطاهرة.

ضحى يوم الخامس من يناير غادرنا المدينة كما تغادر الروح جسدها، كان وداعا مرا.. فمن ذا الذي تطاوعه نفسه في ترك جوار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعد أن ذاق حلاوة القرب ونعم أياما بالوصال.

خرجنا من طيبة باتجاه مكة حيث سيكون مسجد ذي الحليفة بمنطقة أبار علي أول محطاتنا في رحلة الحج المباركة.

وصلنا المسجد الذي تفصله مسافة 14 كلم عن المسجد النبوي، اغتسلنا وتطيبنا ولبسنا ملابس الإحرام، صلينا ركعتين في المسجد وأحرمنا بعمرة متمتعين بها إلى الحج وبدأنا التلبية.

علينا قطع مسافة تزيد عن 400 كلم، إنها طريق الأنبياء التي سلكها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والأنبياء من قبله، إنها رحلة الإيمان الخالدة التي قطعها في حجة الوداع وفي فتح مكة وقطعها قبله – كما أخبر بذلك – موسى ابن عمران ويونس ابن متى وأبو الأنبياء خليل الرحمن عليهم الصلاة السلام.

إنه فج الروحاء الذي أخبر الرسول (صلى الله عليه وسلم): (أن سبعين نبيا حجاجا – في عصور مختلفة – سلكوه عليهم ثياب من صوف).

سنعيش خلال تلك الرحلة التي تستغرق 6 ساعات بالسيارة تجربة الهجرة النبوية بمعاناة أقل بالتأكيد.

لقد كان الأوائل من الأنبياء والصحابة والصالحين يقطعون هذا الطريق بمعدل عشرة مراحل تستغرق كل مرحلة يوما كاملا للراكب أو الراجل في حر الصيف وبرد الشتاء، تبدأ من جهة المدينة بذي الحليفة ثم السيالة مرورا بسقيا بني غفار فالأبواء ثم الجحفة فعسفان انتهاء ببطن بني مر المحاذي للتنعيم الذي هو حدود الحرم المكي.

كان هذا الطريق مألوفا مسلوكا ممن قبلنا، ليأتي جيل الاستدراج بالنعم الذي نعيش نحن فيه فنقطع المسافة في سيارات مكيفة خلال ربع يوم بل ونشعر مع ذلك بالتعب والمعاناة والمشقة.

كنا في باص تابع للوكالة يحمل قرابة 18 راكبا، وعلى مدى ست ساعات توقفنا مرات للصلاة وشراء بعض المأكولات الخفيفة وكاسات من الشاي الأحمر تجنبا لصداع الطريق.

نلبي ونكبر ونهلل وما يلبث الشيطان أن يدخل بقرنه فيجرنا إلى أحاديث من هنا وهناك.

رغم مرورنا على كثير من دوريات التفتيش إلا أن أيا منها لم توقفنا وهو ما ساهم في قطعنا للمسافة في الوقت المتوقع سلفا.

وصلنا مدخل مكة المشهور الذي يمثل مصحفا محمولا على دعامتين تلتقيان فوق المسارين المتوازيين للشارع، إنها البوابة التي

صممها المهندس السعودي "ضياء عزيز ضياء" وتم تنفيذها قبل 35 سنة لتصبح بذلك أحد المعالم المميزة لمدينة مكة المكرمة.

نزل السائق حاملا جوازاتنا فأخذ إكمال إجراءات عبور البوابة أكثر من ساعة بسبب زحمة العربات من مختلف الأحجام.

الساعة الثامنة مساء وبضع دقائق، أقبل السائق متهللا بعد أن أكمل الإجراءات في مدة قياسية حسب قوله، تحرك الباص فدخلنا مكة ملبين مكبرين حيث وصلنا بعيد التاسعة إلى البناية المؤجرة من قبل الوكالة التي نتبع لها.

كانت البناية مكونة من ثلاث طوابق وفور نزولنا من الباص تسابق الركاب إلى حيازة الأسرة المتوفرة في الطوابق السفلى– تجنبا لصعود السلالم – كما يتسابق التلاميذ إلى مقاعد صف يدخلونه لأول مرة.

بعد هدوء العاصفة وتوقف السباق بقيت أسِرَّةٌ شاغرة في الطابق الثالث فحزتها أنا وصديقي وثلاثة رجال آخرين.

كانت العمارة تبعد من الحرم مسافة تزيد عن7 كيلومترات حيث تقع في المنطقة المعروفة تاريخيا ببطحاء قريش الواقعة في سفح جبل ثور.

كان الوقت قد تأخر ونحن قادمون من سفر طويل فقررنا النوم والتوجه فجرا إلى الحرم المكي لأداء العمرة.

طلبت من صديقي إعادة الكرَّة مع مشروبه السحري وما هي إلا دقائق وكنا نياما.

استيقظنا قبيل الفجر وتوجهنا إلى الحرم، إنه السادس من ذي الحجة ودعوة أبينا إبراهيم في أوج استجابتها فالخلائق تتدفق نحو البيت العتيق من كل فج عميق.

وصلنا الحرم ولما يؤذَّن لصلاة الصبح بعد، عبرنا المسجد باتجاه صحن الكعبة لنبدأ طوافنا، وصلنا الصحن وكانت لحظةُ رؤية الكعبة لأول مرة تجربة يصعب التعبير عن معايشتها، إنه شعور نابع من الرغبة الفطرية للنفس السليمة كي تستجيب مشتاقة إلى تلبية دعاء الأنبياء، إنه شعور يجتاح النفس على شكل موجات متلاحقة من الغبطة واستشعار المهابة والخوف والرجاء والانشراح.

إنه شعور لم أجد من تنزل على حقيقة كنهه حتى بين صفحات كتاب "شدهة النظرة الأولى"، الذي رصد مؤلفه شهادات الكثيرين من الرحالة حول شعورهم لحظة رؤية الكعبة لأول مرة.

هذا أول بيت وضع على الأرض، البيت الذي بنته الملائكة حتى قبل خلق آدم عليه السلام، البيت الذي كان يعظمه حتى المشركون عبدة الأصنام، البيت الذي يقال إنه لم يخلو يوما من طائف أو عائذ.

زحفت في الصحن نحو قبالة الركن الشرقي من الكعبة الذي يقع فيه الحجر ويُبدأ منه الطواف.

سَمَّيْتُ الله وكبرت وأشرت إلى الحجر تقبيلا وبدأت شوطي الأول مضطبعا ومحاولا ما أمكن أن أرمل رغم الزحام، هناك متسع من الوقت للدعاء والذكر، قاربت إكمال الشوط الأول فأنا الآن بمحاذاة الركن اليماني الموالي لركن الحجر الأسود، بدأت – حسب السنة – في ترديد الآية الكريمة: {رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}. حتى وصلت الركن الشرقي مرة أخرى لأبدأ شوطي الثاني.

أُقيمَ لصلاة الصبح وأنا في الشوط الثاني فصليت وأكملت شوطي الثاني ثم الثالث رملا ثم مشيت في الأربعة الباقية كما تقتضي السنة، تقدمت قليلا بعد إكمال الشوط السابع حتى صرت خلف مقام إبراهيم فصليت ركعتي الطواف وانثنيت غير بعيد إلى حنفيات لماء زمزم فشربت منها وتضلعت ثم توجهت إلى الصفا لأبدأ السعي.

اقتربت من الصفا فقرأت قوله تعالى: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ}. صدق الله العظيم.

أنا الآن على ما بقي من صخرة الصفا بعد اقتطاعها من جبل أبي قبيس الذي كانت متصلة به ذات يوم (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده).. هنا مكان الدعاء ومظنة الاستجابة.

نزلت من المرتفع متجها نحو المروة حتى إذا كنت فيما بين العلمين الأخضرين أسرعت الخطى ثم مشيت بعد ما جاوزتهما وصولا إلى المروة.

هنا كانت هاجر أم إسماعيل تسعى باحثة عن الماء تاركة ابنها الصغير العطشان، من هنا انطلقت تلك المرأة القوية المؤمنة قاطعة المسافة بين الصفا والمروة سبع مرات بين المشي والعدو حتى عثرت – حسب بعض الروايات – على ماء زمزم ينبع من تحت أقدام صغيرها فصاحت في النبع أن "زِمْ " "زِمْ" أي توقف توقف، فكرمها الله بأن فرض على كل مسلم أن يقطع المسافة التي قطعتها.

كان هذا المكان أكمة وسط مكة تتناثر حولها بيوتات من قريش، هنا دار الأرقم ابن أبي الأرقم التي كان الرسول يجتمع فيها سرا مع أتباعه من أوائل المسلمين، وهناك دار السائب بن أبي السائب العائذي، هنا ما تزال الجغرافيا الإسلامية حية لا تموت.

أنا الآن على ما بقي من جبل المروة بعد ما اقتطع من جبل "قعيقعان" الذي كان متصلا به، علي أن أستقبل القبلة وأفعل كما فعلت عند الصفا.

أكملت شوطي السابع قادما من الصفا واقفا على المروة مستقبلا القبلة ومطيلا في الدعاء.

لم يبق قبل التحلل– للمحرم متمتعا مثلي – إلا الحلق أو التقصير فتوجهت إلى الحلاقين وطلبت من أحدهم ضبط ماكينته على مستوى الرقم 2 حتى أبقي من شعر رأسي ما يمكن أن تطاله الموسى يوم النحر.

عدت إلى مقر الإقامة فأخذت حماما باردا وتعطرت واستبدلت الإحرامات بـ"لبسة" من "أزبي" تخطف الأبصار من شدة اللمعان، وهو الوضع الذي حسدني عليه كل الموجودين الذين أحرموا بالحج إفرادا أو إقرانا وما زالوا وسيظلون في ملابس الإحرام التي لن يتسنى لهم التخلص منها قبل يوم النحر بعد التحلل الأصغر.

صحيح أن تحلل المتمتع يلزمه منه دم لكنه يظل أفضل أنواع النسك وأكثرها راحة، فالمتمتع يتصرف – بعد العمرة – كأن لم يحرم من قبل ويظل كذلك إلى يوم التروية الثامن من ذي الحجة حيث يحرم من مكان إقامته.

بدأ الجميع يعد العدة ليوم التروية الذي لم تعد تفصلنا عنه سوى ليلتين، كانت البناية تضم مختلف الأجناس والأعمار، شباب

في مقتبل العمر ورجال وكهول وشيوخ، حتى النساء كن حاضرات ضمن خليط تلك البناية.

ليلة الثامن من ذي الحجة علمنا من الوكالة أن الباصات المتوفرة لا تكفي لنقل كل الموجودين إلى مشعر منى الذي كان يبعد قرابة الخمسة كيلومترات لذلك قررنا التحرك صباحا مشيا عبر الطرق والأنفاق الجبلية.

قررت خلال الليل أنا وصديقي وشابان آخران أن نبكر كي نصل منى على الأقدام قبل اشتداد الحر، كان أحد الشيوخ يسمع حديثنا الجانبي فاتخذ قرارا بمرافقتنا دون أن يعلمنا بذلك.

كان شيخا سبعينيا ذا ملامح حادة وبنية كانت قوية في يوم من الأيام، كان باديا من خلال أحاديثه في الأيام السابقة أنه أفنى جلَّ حياته في الرعي وتتبع الإبل بحثا عن مواطن الكلأ، أخبرني– في جلسة تعارف – بأنه منح – من بين شيوخ آخرين – فرصة للحج تتكفل سفارة دولة خليجية بجميع متطلباتها، لكن كان واضحا أنه لم يحضر مطلقا – من حيث الأحكام – لمناسك الحج.

صباح يوم الثامن من ذي الحجة كنت أنا وصديقي قد تجهزنا للإحرام فيما كان الشابان اللذان رتبا للذهاب معنا محرمين أصلا، خرجنا خلسة من البناية دون أن نشعر أحدا حتى لا يرافقنا من يمكنه أن يعيق حركاتنا فنحن بصدد قطع مسافة طويلة في بيئة شاقة لا يتحمل المشي بها إلا القليلون.

كان الشيخ الذي سمع وشوشتنا البارحة حول مخططنا السري قد تجهز قبلنا ووقف ينتظرنا على ناصية الشارع.

تفاجأنا بالشيخ معترضا طريقنا وهو يبتسم قائلا: "أحسبتم أنكم ستذهبون وتتركوني، أنتم تظنون مخطئين أنني سأكون عبئا

عليكم وأعطل سيركم، هيهات أيها المغرورون، والله ما هي إلا دقائق فتنبعث أشعة الشمس ويسخن ظهري فأترككم ورائي تحاولون اللحاق بي، أنتم جيل ضعيف أفسدتكم الحلويات والنشويات أما أنا فتربيت على حليب النوق ولحم الضأن".

لم نستطع التخلص منه فاصطحبناه في طريقنا ولعل من بركة شيبته أننا وجدنا سيارة تقلنا نحو منى بشكل لم نكن نتوقعه.

انطلقت السيارة الصغيرة غير المؤجرة نحو منى، لم ندفع أجرة حيث أن صاحب السيارة كان يبحث عن حسنات يلتقطها، وصلنا حدود منى ولم نستطع التقدم لشدة الزحام فقررنا النزول وإكمال بقية الطريق مشيا.

وصلنا مخيم الحجاج الموريتانيين، لكن وبعد إلقاء نظرة ميدانية تبين لنا أن الوضع غير مشجع على الإقامة فقررنا الذهاب رأسا إلى مسجد "الخَيْفِ".

نزلنا مسجد "الخَيْفِ" قبل الظهر بساعة تقريبا، كان المسجد شبه ممتلئ لكننا وجدنا بين الزحام مكانا.

هنا المسجد الذي كان يصلى فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، والذي بني بـ"خـَيْفِ بني كنانة" في سفح جبل منى الجنوبي وقد سمي "الخيف" نسبة إلى ما انحدر عن غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء.

هنا صلى سبعون نبيًّا، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق فيما روى البيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما.

صلينا في المسجد الظهر والعصر والمغرب والعشاء كل في وقتها مع قصر الرباعيتين، كان الزحام يبلغ أشده عند سلالم باب

المسجد وقت الدخول أو الخروج فيشعر المرء كأن قدميه فارقتا الأرض وأنه قد يقع في أية لحظة.

على الحمامات – أكرمكم الله – لا تسأل عن الزحام وكثرة المنتظرين، أتذكر أنني أمضيت دهرا بعد الحج لا أرى حماما إلا أسرعت نحوه معتقدا أن طابورا طويلا سيتشكل على بابه خلال لحظة.

يصعب كثيرا الحصول في منى على الطعام خاصة للمقيمين في المسجد، أولا: لشدة الزحام على المطاعم وثانيا: لأن من يترك مكانه في المسجد لحظة لن يجده إن عاد إليه، لذلك كنا نتناوب أنا وصديقي على جلب حاجياتنا الضرورية.

قال لي صديقي "لو ذهبنا إلى مخيم الحجيج فنشرب الشاي ونستلم "المخلاة" – التي كنا أمناها لدى إحدى النساء على أن نستلمها منها لاحقا – قلت له "المسافة غير قريبة ولا نأمن أن نجد مكاننا غير شاغر إن فارقناه".

كان بجانبنا رجل ستيني من العراق، كان ينام بعد كل صلاة حتى يعلو شخيره ومع ذلك يستيقظ عند الأذان ويدخل في الصلاة الموالية، قلت له يا شيخ: "أرى أن عليك أن تجدد وضوءك لأنك استغرقت في النوم مرة أو مرتين"، فقال لي بلغة الواثق وهو يمز شفتيه: "لقد كان نوما خفيفا لا يستدعي الوضوء"، فسكت رغم يقيني أن نومه ربما استدعي الغسل لا مجرد الوضوء.

سألنا العراقي إن كان يستطيع رعاية حيزنا المكاني من المسجد فأجاب بنعم وقام بتفريق قطع من أغراضه الخاصة في مكاننا وقال لن يحتله أحد قبل مجيئكما لكني أود منكما كأس شاي ساخنة عند عودتكما.

انطلقنا نحو مخيم الحجيج الموريتانيين فوجدنا الطين ازداد بلة، بل إن سلطات تنظيم الحج السعودية قد وجهت لهم إنذارا بإغلاق المخيم لو استمر الوضع على ما هو عليه، كان الكل يضع المسؤولية على الآخر، حجاج الوفد الرسمي يتهمون الحجاج المقيمين في السعودية وحجاج الوكالات الخاصة يتهمون الوفود الرسمية، باعة الملاحف والسبحات والسجاجيد والبخور وأنواع الطعام الموريتاني يملؤون المكان.

بحثنا عن المرأة التي يفترض أن "المخلاة" معها، ولكن حين التقيناها قالت آسفة إنها بقيت في الباص الذي أوصلها إلى المخيم، لمحت صديقي المعروف بالحلم وهو يكاد ينفجر غيظا من رد المرأة البارد، لكنه كتم بصعوبة غيظه ولم يزد أن قال بتأتأته المحببة (ذاك هو ال فيه الخير).

قلت له "أراك غاضبا من ضياع "المخلة" فماذا كانت تحوي إضافة إلى الخلطة السحرية التي أعددت لنا منها الشراب مرات؟"، قال لي بنفس التأتأة "الله ينسخُ شِ ماهُ فيهَ.. فإضافة إلى عدة الشاي الكاملة من مواعين وشاي وسكر كانت تحتوي كمية من القديد المحضر منزليا وكمية من الفول السوداني والحليب المجفف وبسكويت "سرْغلَّة" إضافة إلى أشياء أخرى لم أعد أتذكرها".

قلت له "إذا أنت محق في غضبك، لقد كانت تلك "المخلاة" ثروة قومية لا ينبغي التفريط فيها، أعتقد أن المرأة تستحق الإعدام شنقا على تضييعها لهذه النفائس من الكنوز المحلية"، وأردفت قائلا "لا تنس أن تذكرني لأدعو عليها عند أستار الكعبة"، ضحك صديقي ورجعنا من حيث أتينا بوفاض خاوٍ.

عرجنا قبل دخول المسجد على أحد المطاعم فأخذنا وجبات خفيفة وحملنا منها معنا إضافة إلى الشاي لصديقنا العراقي.

دخلنا المسجد قبيل العاشرة مساء، كان المنظر على أرضية المسجد من الداخل يعطي الانطباع بأن معركة طاحنة قد انتهت قبل قليل، الحجاج متناثرون يشكل عشوائي فمن مستلق على ظهره ومنبطح على بطنه ومن سقط عنه الرداء وانحسر الإزار فتكشفت عورته بعد ما غيبه النوم عن الوعي.

تسللنا بين النُّوَّمِ إلى أن وصلنا مكاننا حيث كان العراقي عند وعده ما يزال جاثما في مكانه وحوله قطع من الأغراض المتناثرة تقوم على حجز المكان.

دفعنا إليه بالشاي والساندويتش فأتى عليهما بسرعة من لم يذق الزاد منذ مدة ولوى عنقه ونام.

استلقيت محاولا النوم محاكيا صديقي الذي كان قد نام قبل أن يكمل العراقي وجبته، كم حسدت صديقي على صفاء ذهنه الذي يؤدي به إلى النوم حالما يضع جنبه على الأرض.

كان علي أن أنام فغدا يوم النفرة نحو عرفة والحج عرفة، وعادة ما لا يتوفر النقل وإن توفر فيكون من نصيب النساء والعجائز وليست لي رغبة في التسابق مع أحدهم إلى كرسيه.

نجحت بعد عدة محاولات في الخلود إلى النوم ولم أستيقظ إلا على أذان الفجر، تبادلنا الأدوار في الذهاب إلى الحمام وحراسة الموقع، صلينا الصبح ومكثنا في المسجد حتى صلينا الضحى وانطلقنا إلى عرفة.

كانت منى بمن فيها وما عليها من بشر وآليات نقل قد بدأت الزحف، عشرات الآلاف من الباصات والسيارات الصغيرة

والدراجات كلها تملأ الفضاء أزيزا ودخانا وغبارا، ملايين من البشر الراجلين كل ذلك في اتجاه واحد، إنه يوم التوجه إلى صعيد عرفة، كان الحصول على موطئ قدم على ظهر سيارة أو باص يعد من المستحيلات.

إنها صبيحة يوم عرفة الذي أقسم الله به، والعظيم لا يقسم إلا بعظيم فهو – حسب ما ورد في تفسير القرطبي – اليوم المشهود في قوله تعالى في "سورة البروج": {وشاهد ومشهود}. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي قال: (اليوم الموعود: يوم القيامة، واليوم المشهود: يوم عرفة، وهو – كما ورد في تفسير السيوطي – الوتر الذي أقسم الله به في قوله في "سورة الفجر": {والشفع والوتر}، قال المؤلف، نقلا عن ابن عباس وعكرمة والضحاك: "الشفع يوم الأضحى، والوتر يوم عرفة".

لم أضيع الوقت أنا ورفيقي، لقد قررنا قطع المسافة البالغة 10 كيلومترات سيرا على الأقدام، كان ذلك الطوفان المتدفق يمثل آية من آيات الله، غص الفضاء بالتكبير والتلبية والتهليل، الكل يحث الخطى نحو المحشر على صعيد عرفة.

على طول تلك الوديان والوهاد لا تقطع مائة متر إلا ووجدت من يوزع الماء والعصير والفاكهة، شاحنات بأكملها ممتلئة بالوجبات الصغيرة الجاهزة تنتظر من يمد يده بل تدفع إليه دفعا حتى ولو لم يسأل.

هناك خيرون كثر وهناك من يفكرون في يوم كان مقداره خمسون ألف سنة ويعدون له الزاد والعدة.

العجاج والدخان يشقان عنان السماء لكن لا شيء يعلو على صوت التلبية، قرابة الحادية عشر بدأت منارات مسجد نمرة تلوح في الأفق فزادت حماسة الحجيج وارتفعت التلبية عما كانت.

سيتوجه معظم الحجيج إلى مسجد نَمِرة حيث سيخطب الإمام ويصلي بالناس الظهر والعصر قصرا بجمع تقديم.

كنت وصديقي علمنا أن أحد المشايخ الموريتانيين الأجلاء هو من سيخطب ويصلى بالناس في المخيم الموريتاني الواقع بين عرفة ووادي عُرنة.

وصلنا المكان ولما يبدأ الإمام خطبته، كان الشيخ محمد عبد الرحمن ولد فتى هو من تولى الخطبة وأمنا في الصلاة، كان موضوع الخطبة يتناول أهوال يوم القيامة، لقد أجاد الشيخ وأفاد وذكر ووعظ، لقد كادت أصوات الباكين أن تغطي على صوت الخطيب.

صلينا الظهر والعصر قصرا وجمع تقديم بأذان واحد وإقامتين، كان المشهد بالفعل يذكر بالحشر في عرصات القيامة وكأن الخلق في عرفة يجسد أحداث ذلك اليوم ولم يكن ينقص اكتمال الصورة إلا خطبة الإمام عن القيامة التي أكملت الحبكة الدرامية للمشاهد.

خرج الناس من الصلاة وما زالوا تحت تأثير المشاهد المخيفة التي استفاض الإمام في الحديث عنها.

وبعد الصلاة بوقت غير طويل بدأ الناس يستعيدون توازنهم ويعدون العدة للذهاب إلى جبل الرحمة، كان هناك من يسأل عن حكم ومن يثير إشكالا فقهيا بل كان هناك من يسرد بعض الطرف والملح، هكذا هي الدنيا يتم الانتقال فيها من حال إلى آخر في لمح البصر.

تناولنا بعض الفواكه والمرطبات وتوجهنا إلى جبل عرفة أو جبل الرحمة كما يسميه البعض، كان الجو حارا رغم أننا في بداية شهر يناير وإن كانت مضخات الرذاذ المنتشرة تساهم في تلطيفه.

كانت الجموع تتدفق دون انقطاع نحو الجبل، قطعنا مسافة تزيد عن الكيلومترين فوصلنا سفح الجبل ولم نتمكن من صعوده لشدة الزحام حيث يعتقد الكثيرون – خطأ – بأن الوقوف بعرفة لا يتم إلا بتسلق قمة المرتفع وهو اعتقاد خاطئ إذ أن عرفة كلها موقف إلا ما كان ضمن حدود وادي عُرنة كما قال الرسول في خطبة حجة الوداع.

هنا في مثل هذا اليوم في هذا المكان، وهو بطن نعمان، أخرج الله من صلب آدم كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذّر وأخذ منهم الميثاق فقال: {ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون}. صدق الله العظيم.

وقفنا أسفل جبل الرحمة غير بعيد من مسجد الصخرات وقناة مياه عين زبيدة زوج الخليفة العباسي هارون الرشيد.

كان هناك متسع من الوقت للذكر والدعاء قبل غروب الشمس، إنه يوم مغفرة الذنوب والعتق من النار والمباهاة بأهل الموقف، استقبلنا القبلة ودعونا رافعين أكف الضراعة لمن يستحي أن يرد اليد الممدودة إليه بالدعاء صفرا.

بعد غروب الشمس بدأنا الإفاضة باتجاه مزدلفة حيث كان علينا أن نقطع مسافة 6 كيلومترات أخرى سيرا على الأقدام.

أذكر أن شسع نعلي انقطع فسرت جزء من المسافة حافي القدمين إلى أن وجدت زوج نعل غير متجانس خلفه الزحام لكنه كان أفضل من المشي دون نعل على تلك الصخور غير الملساء.

الملايين باتجاه مزدلفة ولهم وجيب بالتلبية والتكبير والتهليل والدعاء، غربت الشمس على هذا المسار الذي سلكه رسول الله في حجة الوداع مردفا أسامة ابن زيد على ناقته، أحس الحِبُ ابن الحِب أن الشمس غربت منذ برهة فذكر الرسول قائلا: (الصلاة يا رسول الله)، فرد عليه من لم يكن ناسيا ولا غافلا: (الصلاة أمامك، يعني أنها ستكون في مزدلفة).

وصلنا مزدلفة بعيد التاسعة مساء فصلينا – بأذان وإقامتين – المغرب جمعا مع العشاء المقْصرة.

كان هناك نسوة من الصومال يبعن "لقيمات القاضي" محلاة بالعسل فاشترينا منهن ما سد جوعنا، تذكر صديقي "المخلاة" وتحسر عليها قائلا "لو كانت معنا لكنا الآن ملوكا نعد الشاي ونأكل القديد"، قلت له "ما زدت أن ذكرتنا بالشاي الذي كنا قد نسيناه ولا آمن أن يصيبنا الآن الصداع من مجرد التفكير فيه".

أخذ كل منا قنينة ماء خاوية وبدأنا في جمع حصوات رمي الجمرات استعدادا للأيام القادمة.

جمعنا سبعين حصاة لكل منا.. سبع منها لجمرة العقبة يوم النحر، وواحد وعشرون للجمرات الثلاث الأخر خلال أيام التشريق الثلاثة إذ أننا لم نكن ننوي التعجل، كانت كل حصاة بحجم حبة الفول.

كان الجميع من حولنا منكبا على نفس العملية وإن اختلفوا في اختيار أحجام الحصوات، لقد رأيت أحدهم – وكان أفغانيا –

يحمل صخورا بحجم قبضة اليد فسألته عن ذلك فقال بعربية مكسرة (هذا مِشانْ شيطانْ كبيرْ) أي أنه يعدها لرمي جمرة العقبة.

اشترينا من أحد الباعة لحافا لنفترشه، واضطجعنا للنوم استعدادا ليوم الحج الأكبر يوم النحر.

كانت أول مرة في حياتي أحاول النوم دون وسادة، الوسادة بالنسبة لي مسألة لا غنى عنها، ولدي اشتراطات كثيرة يجب أن تتوفر فيها بحيث لا تكون مرتفعة جدا ولا منخفضة جدا، لا صلبة ولا لينة، حتى في الحالات العادية كانت تأخذ منى وقتا لتحضيرها وتجربتها، في البيت لدي وسادتي الخاصة التي لا يتجرأ أي كان على استعارتها، كنت أشعر بالدوار إذا رأيت أحدهم مستلقيا دون وسادة فكيف سأفعلها أنا بنفسي.

كعادته استغرق صديقي في النوم وأنا ما زلت أفكر في موضوع الوسادة، جربت الأحذية فلم تفد، أخيرا استقر الأمر على نتوء معد من الأحذية والرمل ومغطى بطرف اللحاف..

الغريب أنني نمت، لا أعرف كيف ولكني فعلا نمت رغم الأضواء والعراء وغياب الوسادة الملائمة.

استيقظنا قبيل الفجر فصلينا وتوجهنا نحو المشعر الحرام غير بعيد من مزدلفة، حيث دعونا الله مستقبلين القبلة ومكثنا هناك حتى الضحى، كانت نيتنا أن نواصل السير إلى منى مسافة 7 كيلومترات لكننا وجدنا باص نقل قد امتلأ وما زال صاحبه يجمع الزبائن المستعدين لاعتلاء ظهره فقررنا التسلق استنادا إلى مبدأ (شين الركوب ؤلا زين التروكيجة) فاعتلينا ظهر الباص وبأجرة 10 ريالات للفرد.

كان نجل سائق الباص قد جمع الأجور مسبقا من معظم الركاب لكن والده السائق أراد أن يمر عليهم مرة أخرى فلعله يجد من لم يدفع أو لعل أحدهم يجود بالدفع مرتين.

كان صديقي سباقا لجيبه فدفع أول ما ركبنا فلما مرَّ عليه السائق وسأله التسديد قال له "لقد دفعت"، رأى الولد أباه يطالب صديقي بالدفع فصاح قائلا لأبيه (لا لا يا بوي البنغالى دفع)، كان المراهق معذورا فصديقي ذو ملامح بنغالية لا تخفى على أحد، لقد كان شابا مائلا إلى السمرة مع شعر مسترسل وناعم وهي صفات لا تجتمع إلا في الجنس القوقازي الذي يستوطن جنوب آسيا".

تحرك الباص الذي حُمِّل ما لا يطيق نحو منى، لقد كان مغطى بالكامل من الركاب وأغراضهم ومع ذلك تحرك في سكينة وتؤدة تنبعث من جنباته أصوات الملبيين.

أوصلنا الباص إلى مكان غير بعيد من جمرة العقبة فبدأنا الزحف مكملين الطريق، كانت الجموع قد توافدت فغطت تلك النقطة من وجه الأرض.

هنا تراءى إبليس عليه اللعنة لإبراهيم موسوسا له ألا يمتثل لأمر الذبح فرماه الخليل – الذي كان أمة – بسبع حصوات حتى ساخ في الأرض فكانت ركنا في الحج إلى يوم الدين.

اقتربت من شاهد الجمرة وسط ذلك الخضم المتلاطم حتى استندت على الجدار المحيط بها فوضعت منى عن يميني والكعبة عن شمالي ورميت الشاهد بالحصاة الأولى قائلا: "بسم الله، والله أكبر، رغما للشيطان وحزبه وإرضاء للرحمن"، وكررت الرمي سبعا.

كان البشر من حولي في هرج كبير، والسماء لا تكاد ترى من كثافة المقذوفات نحو شاهد الجمرة، فمن رام بحذائه ورام بصخرة بحجم كرة المضرب وقاذف بعصى ومرسل لقضيب من حديد.

لا تسأل عن عبارات القذف والسباب الموجهة للشيطان في ذلك اليوم، لقد سمعت أذناه من السوء والمكروه ما يستحق عليه اللعنة، هناك خمسيني مصري يدعو عليه ويلعنه قائلا "لقد فرقت بيني وبين إخوتي وطلقت زوجتي بسببك "يا إبن الكلب" وذاك آسيوي يحمل عصى غليظة ويرطن مُرغدًا ومُزبدًا، وهذا نيجيري عملاق رمى بردائه كأنما يستعد للقتال وبقي في إزاره الذي بالكاد يستر عورته المغلظة وهو يمد إصبعه نحو الجمرة مهددا ومتوعدا.

حاولت الانسحاب قبل أن تُشج جبيني فالوضع كان في غاية الخطورة والخلق يصب جام غضبه على إبليس ممثلا في الجمرة محملين إياه كل ما هم فيه من مشاكل الدنيا.

خرجت من موقع المعركة واتصلت بقريب لي في مكة وكلفته بالنحر نيابة عني وعن رفيقي.

قفلت راجعا إلى مخيم الحجاج الموريتانيين فوجدت أحدهم يتطوع بحلق الرؤوس فطأطأت رأسي له فحلق شعرى بالموسى تاركا إياه أثرا بعد عين، كانت تلك أولى حلقة لي بالموسى منذ أن وعيت على الدنيا، وبعد قليل وصل صديقي من معركة الرمي فحلق بدوره.

وجدنا في المخيم من سَكَعَنا بكأسين ساخنين من الشاي الذي كنا قد اشتقنا إليه شوق الرضيع الجائع إلى ثدي أمه.

كنا، بتحقق الرمي والنحر والحلق، قد تحللنا عمليا تحللا أصغر، لكن لم يكن لدينا في منى ما نستبدل به ملابسنا لذلك بدأنا نعد العدة من أجل الذهاب إلى مكة لتغيير إحراماتنا التي رافقتنا أكثر من يومين ومن ثم تأدية طواف الإفاضة وسعي الحج.

قبيل الظهر كنا في الطريق نحو مكة حيث مررنا على مقر الإقامة فاسترحنا قليلا ولبسنا نظيفا وارتدينا نعالا وتوجهنا إلى الحرم.

بدأنا طواف الإفاضة ولا تسأل عن الزحام فكل الخلق يريد التحلل، لكن ارتداء الملابس العادية سهل عملية الطواف، كما أنه لم يكن علينا الرمل في الأشواط الثلاثة الأولى.

أكملنا الطواف بفضل الله وصلينا ركعتيه خلف مقام إبراهيم وتوجهنا إلى الصفا لنؤدي سعي الحج وهو ما تم لنا بغير مشقة تذكر.

رجعنا إلى بناية الحجيج فوجدنا الشيخ السبعيني ذا الخلفية الرعوية جالسا مرتديا فضفاضة خضراء من " الشكة" فسألناه أين اختفى خلال الأيام الماضية فقال إنه عاد إلى المنزل ظهر أمس.. "ماذا قلت يا شيخ!".. "نعم لقد عدت من هناك ظهر أمس وأنهيت جميع ما علي فعله في يوم واحد".

لا حول ولا قوة إلا بالله، هذا يعني أن الشيخ المسكين لم يقف أصلا بعرفة، لم يكن هناك من طريقة لإصلاح ما أفسده جهل الشيخ المسكين.

بعد صلاة المغرب عرجنا على مطعم غير بعيد فتناولنا وجبة عشاء فاخرة ثم صلينا العشاء وقصدنا منى للمبيت هناك استعدادا لرمي الجمرات غدا في أول أيام التشريق.

وجدنا وسيلة نقل إلى منى فوصلناها قبيل العشاء واخترنا العودة إلى مسجد "الخيف" للإقامة طوال أيام التشريق.

استطعنا العثور على مكان بين المقيمين في المسجد حيث أن الكثيرين ممن كانوا فيه لم يرجعوا من مكة بعد.

بتنا ليلتنا تلك وصلينا الصبح في المسجد، وهناك أشرقت علينا شمس أول يوم من أيام التشريق التي تعد فرصة كبرى للتكبير والذكر والدعاء وقراءة القرآن.

بعد الزوال توجهنا إلى الجمرات بادئين – حسب السنة – بالجمرة الكبرى والتي هي أقرب الجمرات إلى مسجد "الخَيْف".

كان الزحام قويا وإن لم يصل إلى مستواه يوم أمس، أخذت من قنينة الحصوات التي كنت جلبتها من مزدلفة 21 حصوة ورميت الجمرة الكبرى بنفس الطريقة التي فعلت بالأمس وتقدمت عنها قليلا تاركا إياها عن يساري واستقبلت القبلة ودعوت.

توجهت بعدها إلى الجمرة الوسطى ففعلت ما فعلت بالجمرة الكبرى وتنحيت قليلا ودعوت، ثم تقدمت إلى الصغرى فرميتها سبعا وانصرفت عائدا إلى المسجد.

كان الغد ثاني أيام التشريق الثاني عشر من ذي الحجة، صلينا الظهر في المسجد وعلمنا أن الزحام على الرمي لا يطاق لأن معظم الحجيج كانوا متعجلين وهو ما يقتضي خروجهم من منى قبل غروب الشمس.

كنت في المسجد حين وردني اتصال من البلد، كاد صاحب الصوت على الطرف الثاني من المكالمة أن يطير فرحا بسماع صوتي.. "لقد كنا في غاية القلق والخوف عليكم"، قال المتحدث، فقلت مستغربا "ولم الخوف!"، فقال: "ألم تعلم بما حدث على

جسر الجمرات؟"، قلت له "كلا لم أعلم بشيء"، قال "لقد حدث زحام رهيب هناك ومات المئات من الحجاج وكنا نخاف أن تكونوا هناك".

إنها أحداث اليوم الثاني من أيام التشريق الموافق للثاني عشر من يناير من عام 2006م، التي حدثت بسبب زحام الحجيج المتعجلين الذين حملوا معهم أمتعتهم استعدادا لمغادرة منى فور اكتمال رمي الجمرات حتى يتسنى لهم الخروج من منى قبل الغروب الذي يسن للمتعجل.

كان من نتيجة زحام البشر والأمتعة أن ارتقت أرواح 347 من الحجيج وأصيب كثيرون، لقد كنا وقتها ما نزال بالمسجد ولم نعلم بالأمر إلا عبر الهاتف.

على تمام الساعة الثالثة مساء توجهت إلى الجمرات حاملا 21 حصوة فكررت ما فعلت في يوم التشريق الأول، وأعدت الكرة في اليوم الثالث الذي كانت منطقة الجمرات فيه شبه فارغة، ما يعني أن أكثر من 90% من الحجيج قد تعجلوا يوم أمس.

بعد إكمال الرمي في اليوم الثالث وانتهاء أعمال الحج أحسست براحة غريبة وانتابني شعور يصعب التعبير عنه.

كان أملى في الله كبيرا بأن يكون قد تقبل أعمالي وأن أكون بالفعل رجعت من الحج مغفور الذنوب، كم أنا محتاج إلى تلك الجائزة الكبرى، لقد كنت كالهاتف المحمول الممتلئ بالملفات الضارة وغير النظيفة ولا علاج له إلا إعادة ضبط المصنع.

صباح يوم الخامس عشر من يناير عام 2006م، كنت في مطار جدة استعدادا لمغادرة الأراضي السعودية ولم أكن أفكر إلا في تاريخ العودة لتلك البقاع الطاهرة.

E-KUTUB
Publisher of publishers
Amazon & Google Books Partner
No 1 in the Arab world
Registered with Companies House in England
under Number: 07513024
Email: ekutub.info@gmail.com
Website: www.e-kutub.com
Germany Office: In der Gass 10,
55758 Niederwörresbach,
Rhineland-Pfalz
UK Registered Office:
28 Lings Coppice,
London, SE21 8SY
Tel: (0044)(0)2081334132